زكي مبارك

مدامع العشاق

الكتاب: مدامع العشاق

الكاتب: زكي مبارك

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

مبارك ، زكي

مدامع العشاق / زكي مبارك

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٤٢٠ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١٢٢٩ / ٢٠١٧

مدامع العشاق

الإهداء

إلى تلك النفس التي لا يعنيها من أمري شئ ، والتي أخلفت ما أخلفت من الوعود ، ونسيت ما نسيت من العهود ، والتي شغلت بنعمة المال ، والجمال ، عما أقاسي من محنة وعذاب ، والتي ما احسبني أطمع في أن تسكن إلي ، أو تعطف علي ، إلى تلك النفس الظلوم: أهدي هذا السفر الحزين !

ولست آمل والحمد للّه والحب ، أن تتوجه بالقبول ، فإن هذا أمل عزيز المنال ، وكل ما أصبو إليه: أن تنفحني من أجله بظلم جديد.

فبعض الظالمين وإن تناهى شهي الظلم مغفور الذنوب

زكي مبارك

مقدمة:

(١)

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟!

آية كريمة ، تذهب فيها النفس مذاهب شتى ، ولكني أريدها لمعنى خاص: هو الحكم على الأقوال والأفعال.

وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول ، أو يعمل ، فنحكم عليه بالبر أو الفجور ، فتارة نخطئ ، وتارة نصيب. وأكثر ما نكون شططًا إذا حكمنا على القول ، أو الفعل ، من غير أن نحيط خبرًا بظروف القائل ، أو الفاعل. وهي وحدها محور الخير ، والشر ، والخطأ ، والصواب. فليست كل كلمة يكفر قائلها كما يقول الفقهاء بمكفرة ، ما لم تشهد القرائن على أن قائلها معاند جحود ، وليست القصائد الخمرية شهادة على قائلها بالاثم ولا قصائد التشبيب رميًا لصاحبها بالفسوق ، ولكن في الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير !

ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال ، واجتهدنا في معرفة ظروف الفاعل قبل تأمل ما فعل من منكر أو خبيث فقد ترفع التهمة عن كثير ممن حكم عليهم بالكفر والمجانة ، لكلمة ظاهرها الكفر أو فعل ظاهره المجون.

وليس في ذلك خروج على أصول الدين ، فقد قال عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى» ليس لمتعنت أن يرد علينا بأن هذا خاص بأعمال الخير ، لا الشر. فإنه كما يجوز أن يفسد الخير حين يراد به شر ، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير ، وتبقى التبعة على من يقصرون في إرشاد الناس إلى نتائج أعمالهم ، وما لهم من الضر ، والنفع ، لتتماثل النيات والأعمال.

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله، من غير أن تلم إلمامة بالأسباب القريبة والبعيدة ، لما يعمل وما يقول وقد

تكون نيته سيئة فيحبط عمله ، فإن من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله ، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب.

إن علماء الغرب لا يحكمون على خلق المؤلف إلا بعد أن يتبينوا العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي احدفت به ، فنال منها ونالت منه ، لاحتمال أن تسود كتاباته فكرة كانت في عصره حسنة ، وهي عصرنا سيئة ، فنحكم عليه بما هو منه براء.

(٢)

ولنرجع إلى الآية التي صدرنا بها هذا المقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فإني لا أكتم القراء أني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لأنكرتها عليه. مع إني أعرف أني كتبتها من قبل ، وأنا نقي القلب ، خالص الضمير. ولقد تبدو تلك الكلمة ، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجمال ، وهي سذاجة طريفة ، تمثل عهدًا من عهود الصبا ، خيل إليّ فيه أن الحسن يجب أن يكون ملكًا لجميع العيون ، تستمتع به آمنة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور ، ولا يحجبها عنه ضنين. وليس في مقدوري الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة ، لأني حرمت من تلك السذاجة ، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر ، يلؤم من بعدها الكريم ، وحاشاي ! وسأفرض الآن أني في العهد الأول من عهود الشباب ، وأن الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين أطهارًا بررة ، لا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتقولون الأقاويل ، ولأذكر طرفًا من ذلك الخطاب:

«يا أرباب الجمال !

ما لكم تضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لثما ، ويأكله التراب أكلاً لما ؟

كم صائن عن قبلة خده ... سلطت الأرض على خدّه

وحامل ثقل الشري جيده ... وكان يشكو الضعف من عقده

أما والله إن أرواحنا لفي حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الخدود ، والمراود من الجفون ، والمساويك من الثغور ، والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف ، والزينة من الأطراف.. فلم تحرموننا في حبنا لكم ، وإشفاقًا عليكم مما تكرمون به

الجمال ليلاً ونهارًا ، على أنه لا يعرف ما حف به من حسن ، وأحدق به من جمال ؟!

يا أهل الملاحة !

إن الله ما خلقكم كالأزهار ، في القفار ، تزهر ، ثم تذبل ، ولا يتمتع أحد بشمها ، ولثمها ، وإنما خلقكم روحًا لكل حي ، ونعيمًا لكل موجود ، فاجعلوا لنا منكم حظًا ، ولا أقل من النظر ، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم ، وتموت بصدكم ، وما الله بغافل عما تعملون !!

يا أعلام الحسن !

إن كنتم فطرتم على العزة ، وجبلتم على النخوة ، فهبونا بعض القرب منكم ، والأنس بكم ، ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة ، وخضوع وعبودية ، وقد عذرناكم لعزكم ، فارحمونا لذلنا ، وعشقناكم لحسنكم ، فاعشقونا لحبنا ، فكفى بالحب جمالاً وبالعشق زينة ، وإن الحب المملول ، لخير من الحبيب الملول ، فإن أبيتم إلا الصد والقطيعة ، والجفاء والاعراض ، فإنا نبشركم بأن الحسن حال تحول ، ودلوة تدول ، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين !

أوردية الخدين من ترف الصبا ... ويا ابنة ذي الأقدام بالفرس الورد
صلي واغنمي شكرًا فما وردة الربى ... تدوم على حال ولا وردة الخد

(٣)

ولقد يعجب قارىء هذا الخطاب حين يرى كاتبًا يعتقد أن الجمال ملك العيون النواظر ، وأن البخل به إثم وعقوق ، ولكنه لو تروى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط ، وأن صاحبها لا يسلم من الإسراف ، ورحم الله ذلك العهد الذي كنت أعيش فيه بأمل غير محدود !!

ليالي لا تنجو بنبلي خريدة ... وإن عز حاميها وجم عديدها
إذا ما رمتني ذات دل رميتها ... بعين لها منها مقيد يقيدها

(٤)

على أنني لا أمنع أحدًا من أن يسيء الظن بما كتبت منذ سنين ، فإن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية ، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ، ليسهل عليه وعلى غيره التحليل ، ومثله في ذلك مثل الطبيب المخلص لعلمه ، لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس ، فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم ، وشهواتهم ، فينسون أنفسهم ، ويسلقون إخوانهم بألسنة حداد ؟

إن قليلاً من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزلل والعثار ، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل أسرف الكاتب حين هم بنشر مدامع العشاق في جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة ، موجهة إلى إحدى العذارى.

«قضي الأمر ، وأصبحت حيًا كميت ، وموجودًا كمعدوم ! فما ضرني لو أذعت هذا الحب ، وما أبقى هواك مني ما أسمع به ملامًا أو أرى وجه عذول ؟

على أن قلبي يحدثني بأن الاشادة بما بيننا من هوى قد تزيد حقد الحاقدين ، وما إلى ردعهم سبيل ! أو أنت المعنية بهذا الاشفاق ، أما أنا فما كنت لأرهب قومًا لا سلاح لهم غير القيل والقال.

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بثين لقوني
إذا ما رأوني طالعًا من ثنية يقولون: من هذا ! وقد عرفوني

وبعد فإنه لم يبق ما أسكن إليه في هذا الوجود غير حديث الحب ، وبلايا المحبين ، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في أعذب ما جرى على ألسنتهم: وهو النسيب ، وأن أبدأ ذلك بما انتهوا إليه ، وهو الحديث عن الدموع ، وما لها من سبب قريب أو بعيد، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المفسوح ، عدت فصاحبت

الشعراء ، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى ، وبينت مهوى عيونهم ، ومصرع قلوبهم ، بين الخدود الفواتن ، والعيون الفواتك ، ولن أتحرج من ذكر ما كان من الوقائع بين الخصر النحيل ، والردف الثقيل ، وعلي وحدي إثم الفتنة التي ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة في صدور الشباب والكهول ، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هذا الحديث.

نصحتك علمًا بالهوى، والذي أرى مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو

(٥)

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يوجه إلى فتاة ، فضلاً عما فيه من المجازفة ، في حمل إثم الآثمين ، وفتك الفاتكين ، ولقد آذتني آثامي ، فكيف أحمل آصار الناس !

ولم يمر ذلك الخطاب بدون أن تضح له إحدى الجرائد الاسبوعية ، وبدون أن ينالني أحد الكتاب بلسان حديد ، فكتبت في الرد عليهم هذه الكلمة القاسية:

« في مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطرسة والكبرياء والكاتب الجاد في نظرهم هو الرجل السليط ، الذي يخيل إليه كما كتب: أنه قسيس في كنيسة حافلة ، أو خطيب في مسجد جامع ، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعند المنكرات !؟ فأما الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن ، وبدائع الجمال ، فهو في رأيهم كاتب ماجن خليع !!

ولا أدري بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه الصور الجميلة ، التي طارت بألباب الشعراء ؟ وصيرتهم في كل واد يهيمون ؟ أتراهم يقولون أنها من خلق الله ، أم من خلق الشيطان ؟ فإذا كانت من خلق الله ، فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع ؟ وإن كانت من خلق الشيطان ، فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان ، لأنه من عمل الشيطان الرجيم ؟

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب !

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا في وجوههم ، وعموا عن صنع الله الذي أتقن كل شئ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن أجاريهم في عمايتهم ، وأن أسايرهم في جهالتهم ، فلا أكتب في غير ما يروقهم من ذم الدنيا ، التبرم بالوجود !! ولكني عرفت ما لم يعرفوا من «أفنان الجمال» في هذه الدنيا البديعة التي حملت الغزالي على أن يصرح بأن ليس بالإمكان أبدع مما كان ، فعدت خليقًا بحمد الحسن ، والتقديس له ، كلما أمنعوا هم في الجحود !

يقولون أن مدامع العشاق التي أنشرها في جريدة الصباح مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال ، وماله من الأثر في تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول ويهددون ويعدون بالويل والثبور ، إذا أنا مضيت في هذا البحث الشائق الطريف ! فهل حسب هؤلاء السفهاء أني أكتب لهم حق أنزل عند رأيهم السخيف المأفون !

أبينا أن نطيعكم أبينا ... فلا تلقوا نصيحتكم إلينا
ركبنا في الهوى خطرًا فإما ... لنا ما قد كسبنا أو علينا
ولو لم يرض ربك ما أردنا ... لما أعطى لنا أذنًا وعينا
فما تسآلكم عن كل صب ... كأن لكم على العشاق دينا

(٦)

إلى هنا وقف القاريء على ألوان من الخواطر ، مرت بخاطر شاب يهم بالتمرد على ما ألِف الناس ، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضي الرياء ، فأنا بصريح القول: موكل بالحسن أتبعه ، ومغرب بالتغريد على أفنان الجمال. وإني لأقول:

أشجاك ما خلف الستار وإنما ... خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا ... أني بكل حسانهم مفتون

وأقول:

فيا رب إما رمت لي الخير منعما ... ففي قرب من أهوى وبعد أخي اللوم
وإن كان لي فيما قضيت مساءة ... فحزن على النائين جيرتي القدم

وإن شئت لي يومًا جوارك فلأكن شهيد الجوى لا نضوهم ولا سقم
وطول حسابي في المعاد على الهوى فطول أحاديث الصبابة من همي

وما كان اغناني عن الفزع إلى حكم الاخلاق ، لا رجع الخير والشر إلى النيات ، لا إلى الأعمال ، فقد آن لنا أن نعرف أن من الحق ، بل من الواجب ، أن ندرس الجمال، وأن نتغنى به ، وأن نصفه بالنثر البليغ ، والشعر الجميل ، وأن نكتب عمن كلفوا بالحسن: من العشاق ، والشعراء.

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال: (إن الله ليعجب من شاب لا صبوة له) وأنا لا أريد أن يعجب الله مني ! وسينكر المتعنتون هذا الحديث ، وأنا قبلهم لا أجزم بصحته، ولكني أثق بأنه يقرر حقيقة واقعة ، فما كان الله ليخلق الجمال لنعمي عنه ، أو لنرمي عشاقه بالاثم والفجور ، وهؤلاء المتزمتون الأغبياء لا يملون من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة ، لهم الويل ! وهل الإنسان إلا لباب الطبيعة ، وسرها المكنون ؟ !

وماذا اصنع بالأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والأنهار ، والكواكب ، والنجوم ، والسهول ، والحزون ، والجبال ، والوديان ، والطيور الصوادح ، والظباء السوانح؟؟

ماذا أصنع بكل أولئك ، إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول ، وأساجله الحديث ، وأساقيه صهباء هذ الوجود ؟!

وهذا الإنسان ؟ أليس لي الحق في اختياره ، قبل اصطفائه ، وكيف أختاره إن لم أحكم الذوق ، في تمييز جسمه وروحه ، وعقله وشعوره ، وحسه ووجدانه ؟

وما قيمة الليل أن لم تظلني في الحب ظلماؤه ؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزني إلى ضم القدود ، وما حسن الأزهار إن لم تشقني إلى لثم الخدود ؟ وكيف أميل إلى الظباء ، لو لم تشبه بعيونها وأجيادها ، ما للحسان من أعناق وعيون ؟ وكيف أصبو إلى غنة الغزال ، لولا ذكري تلك النبرات العذاب ، التي يسمونها السحر الحلال ؟

وإنك لتعلم أيها القمر ، كيف كنت أصدف عنك ، وأنا طالع ذلك الوجه ، الذي نعمت معي بثغره المفلج ، وأنفه الأقنى ، وطرفه الأحور ، وجبينه الوضاح ، وأنك لتعلم أيها القمر ، كيف هجرتك حين غاب ، وتعلم أني لا انظر إليك إلا حين السرار ، لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالي ! وأنها لشماتة طفيفة ، أحزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه وعلى عودتك لشبابك ، في حين أودع كل يوم جزءًا من شبابي ، وواحسرتاه على ما أودع من أجزاء الشباب!!

لأصبحت نهب الأسى والحزن لجسم أقام وقلب ظعن
فيا ويحهم يزمعون الرحيل وما زودوني غير الشجن
دموع تحدر فوق الخدود كصوب الغمام إذا ما هتن
وقلب يقلب بين الضلوع بعيد القرار فقيد السكن
وأصبحت والرأس مرعى المشيب قليل السرور كثير الحزن
لعمري لئن شبت قبل الأوان لقد شاب حظي وشاب الزمن
كأن الشعور عراها البياض سهام الردي أو خيوط الكفن
وإن الشباب إذا ما انقضى لكالحلم اقلع عنه الوسن

أما بعد فقد أخرجنا للناس كتاب «الأخلاق عند الغزالي» ، فرمونا من أجله بالكفر ، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق ؟ وسيرمونا من أجله بالفجور ، وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب «آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية» وكتاب «أفنان الجمال» ثم نجنح بعد ذلك إلى المتاب !

وقد زعمت ليلى بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكي مبارك

سنتريس في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب ، وعن الحسن وتنوعت مذاهبهم في صف ما يشقى به الحب ، وما ينعم به الحبيب !

ويمكن رجع كلامهم في النسيب إلى اصلين اثنين:

الأول – وصف ما يلاقي المحبوب من عنت الحب . ويدخل في ذلك كل ما يهيج الوجد ، ويثر الدمع ، كحديث الفراق ، والعتاب ، والذكرى ، والحنين.

الثاني – وصف ما يرى الشعراء في أحبابهم من روعة الحسن ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس ؛ والعين ، من جمال الأبدان والأرواح ، كوصف العيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ، والصدور ، وكالحديث عن العطف ، والرفق والوفاء والعفات.

وقد رأيت أن أفضل مذاهب النسيب في وصف ما يشقى به المحبون في كتاب اسميه «مدامع الجمال».

وكان الواجب أن نبدأ بطبع «أفنان الجمال» لأنه أوفى وأمتع ، ولأن أفنان الجمال ، وجدت قبل مدامع العشاق.

ولكن دولة الحسن لا عدل فيها ولا رحمة ، فلنتابعها في الظلم ، ولنقدم الفروع على الأصول !!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء ، وموجبات المدامع ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد أن كانت بيضاء ، وابيضاضها بعد أن كانت حمراء !!

وللدموع أسباب عامة ، وأسباب خاصة. فأما الأسباب العامة فهي الحرق الدخيلة ، والجوى الدفين ، وما إلى ذلك من البث والحزن ، واللوعة والحسرة ، فمن هذا قول العباس بن الأحنف:

ظلمت عيناك عيني انها بادلتها بالرقاد الارقا
سلط الشوق على الدمع فما هب داعي الشوق إلا اندفقا

وما كان له أن ينسب إلى عينيها الظلم ، لابتلائه بالسهاد. وخير منه قول صريع الغواني:

أسهرتموني أنام الله أعينكم لسنا نبالي إذا ما نمت من سهرا

ولو قال:

رحمت عيناك عيني أنها بادلتها بالرقاد الأرقا

لكان أقرب إلى الصدق وعرفان الجميل ، فحسب المحب ما أهدته عينا حبيبه من ضني الجسم ، وسهد الجفون. وقال البحتري:

قد أرتك الدموع يوم تولت ظُعُن الحي ما وراء الدموع[1]
عبرات ملء الجفون مرتها حرق للفؤاد ملء الضلوع[2]

---

[1] الظعن والظعائن: جمع ظعينة ، وهي المرأة في الهودج.

[2] يقال مرى الراعي الناقة: إذا مسح ضرعها لتدر اللبن. ويريد الشاعر أن يقول أن اللوعة مرت الدمع ، أي حملته على أن يفيض.

فرقــة لــم تــدع لعينــي محــب منظــرًا بــالعقيق غيــر الربــوع

ولا أدري ما الذي أراده البحتري بما وراء الدموع ! أهو الدم الأحمر الذي تجود به الشئون عندما تفيض المدامع ، أم هي الحرق الدخيلة التي ينبيء عنها الدمع ، ويفصح عن مكنونها البكاء ! وقال الشريف الرضي:

يقولــون مــا أبقيــت للعــين عبــرة فقلــت جــوى لــو تعلمــون ألــيم
أيســمع جفنــي بالــدموع وأغتــدي ضــنينًا بهــا ؟ أنــي إذن للئــيم
ولــو بخلــت عينــي إذن لعتبتهــا فكيــف ودمــع النــاظرين كــريم

ولعل هذا خير ما قيل في الاعتذار عن البكاء ، بذكر موجبه ، والداعي إليه ، وأنه لشعر بديع. أما الأسباب الخاصة فهي كثيرة. فمن العشاق من يبكي لتلمس الأخبار، كما قال ابن هرم.

واستخبر الأخبار من نحو أرضها وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي
فإن ذكرت فاضت من العين عبرة على لحيتي نثر الجمان من العقد

وإني ليروقني قوله (وأسأل عنها الركب عهده عهدي) فإنه يدل على حيرة ووله ، إذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئًا ، استرواحًا بالسؤال عنها ، وكذلك يفعل المشوق ! ولا يبعد أن يستنكر الغواني فيض الدموع على اللحية في هذا الشعر ، لأن الأمر كما قال أبو تمام:

أجلى الرجال من النساء مواقعًا مــن كــان أشــبههم بهــن خــدودًا

وقاتل الله الشيب ، ولا عفا عن جنايته على الشباب !

ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم ، أو مطالعة الرسوم. كما قال ابن الدمينة:

هــل الحــب إلا زفــرة بعــد زفــرة وحــر علــى الأحشــاء لــيس لــه بــرد
وفــيض دمــوع العــين يــا مــي كلمــا بــدا علــم مــن أرضــكم لــم يكــن يبــدو

وما كان الحب زفزة ولا عبرة ، كما قال ابن الدمينة – ولكنه شئ به الروح تكلف – وما أحسن قول ابن أسباط القيرواني:

قـــال الخلـــي الهـــوى محـــال فقلـــت لـــو ذقتـــه عرفتـــه
فقـــال هـــل غيـــر شـــغل قلـــب إن أنـــت لـــم ترضـــه صـــرفته
وهلـــى ســـوى زفـــرة ودمـــع إن لـــم تـــرك جريـــه كففتـــه
فقلـــت مـــن بعـــد كـــل وصـــف لـــم تعـــرف الحـــب إذ وصـــفته

ومنهم من يبكي عند الوقوف بالرياض ، إذ تذكره رشاقة أغصانها ، وحمرة أزهارها ، بالقدود الرشيقة ، والخدود الوردية ، كما قال ابن المعتز:

وقفت بالروض أبكي فقد مشبهه وقد بكت بدموعي أعين الزهر
لو لم تعرها الجفون الدمع تسفحه لرحمتي لاستعارته من المطر

وهذا نوع من الاسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتز فيما أعلم ! وإنما كانت تسعد الحمائم ويبكي الرفيق[1].

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم. كما قال بعض الأعراب:

لعمرك ما ميعاد عينيك والبكا وقد بدراء إلا أن تهب جنوب
أعاشر في (داراء) من لا أحبه وبالرمل مهجور إلي حبيب[2]
إذا هب علوي الرياح وجدتني كأني لعلوي الرياح نسيب[3]

ومنهم من يبكي لبكاء الحمائم ، وهو كثير في كلامهم. ولعل من أبدعه وأروعه قول الشبلي يصف شجو حمامة هاجت شجوه:

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن[4]
ذكرت إلفًا وعيشًا سالفًا فبكت حزنًا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها وبكاها ربما أرقني

---

[1] الاسعاد هو المشاركة في البكاء.

[2] داراء اسم موضع ، وكذلك الرمل.

[3] علوي نسبة شاذة إلى عالية نجد.

[4] الورقاء هي الحمامة ، والشجو الحزن ، والفنن الغصن ويجمع على أفنان.

ولقـــد تشـــكو فمـــا أفهمهـــا ولقـــد أشـــكو فمـــا تفهمنـــي
غيـــر أنـــي بـــالجوى أعرفهـــا وهـــي أيضًـــا البـــين مـــا جرعنـــي
أتراهـــــا بالبكـــــا مولعـــــة أم ســـقاها البـــين مـــا جرعنـــي

وهذه الأبيات من أحسن الشعر تقسيمًا ، وأبرعه تصويرًا ، ولقد افتتح بها الشيخ علي الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظنًا منهم أنها له ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الأحياء على حساب الأموات ، من حيث لا يشعر الناس !!

ومما ابتدعته المتأخرون في موجب البكاء ، ما جعله بعضهم عقابًا للعين ، جزاء بما أهدت نظراتها للقلب من شجى ، وللجسم من نحول ، فقال:

لأعـــذبن العـــين غيـــر مفكـــر فيمـا جـرت بالـدمع أو سـالت دمـا
ولأهجـــرن مـــن الرقـــاد لذيـــذه حـــق يعـــود علـــى الجفـــون محرمًـــا
هـــي أوقعتنـــي فـــي حبائـــل فتنـــة لـــو لـــم تكـــن نظـــرت لكنـــت مســـلما
ســـفكت دمـــي لأســـفحن دموعهـــا وهـــي التـــي بـــدأت فكانـــت اظلمـــا

وهو مذهب غريب ، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن ، وفهم الجمال ! وإلا فأي عاشق يذكر جناية النظر عليه ، ولا يدعو لعينيه بطول البقاء. ولله در القائل:

قالـت أترقـد إذ غبنـا ؟ فقلـت لهـا نعـم، وأشـفق مـن دمعـي علـى بصـري
ما حق طرف هداني نحو حسنكم أنـــي أعذبـــه بـــالنوح والســـهر

ومنهم من جعل الدمع غسلاً للعين مما زنت بالنظر ، فقال:

وقائلـة مـا بـال عينـك مـذ رآت محاسـن هـذا الظبـي ادمعهـا هطـل
فقلـت زنـت عينـي بطلعـة وجهـه فحـق لهـا مـن فـيض مـدمعها غسـل

وقال الآخر:

إنســـــــانة فتانـــــــة بـــــدر الـــــدجى منهـــــا خجـــــل

إذا زنـــــت عينـــــي بهـــــا فبالـــــــــدموع تغتســـــــــل

وهو خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !!

وقد نظر الارجاني إلى قول أبي تمام:

بســـطت إليـــك بنانـــه أســـروعا تصـــف الفـــراق ومقلـــة ينبوعـــا[1]

كـــادت لعرفـــان النـــوى ألفاظهـــا مـــن رقـــة الشـــكوى تكـــون دموعًـــا

فولد منه معنى لطيفًا ، إذ جعل دموعه عند الفراق ، وقد تحدرت كالآلئ بقية ما نفثه المودعون في آذانه من حديث هو الدر النفيس. وذلك قوله:

لـــم يبكنـــي إلا حـــديث فـــراقهم لمـــا اســـر بـــه إلـــى دمـــوعي

هـــو ذلـــك الـــدر الـــذي اودعتـــه فـــي مســـمعي ألقيتـــه مـــن مـــدمعي

❁

أما السبب في احمرار الدموع فلم أجد فيه أبلغ من قول صرَّدُرّ:

حتـــام أرعـــى وردة لا نجتنـــي فـــي الخـــد أو تفاحـــة لا تلـــثم

أيـذاد عـن تلـك المحاسـن نـاظري ويريـــد منـــي أن يســـوغها الفـــم

فـــي كـــل يـــوم للعيـــون وقـــائع إنســـانها الطمـــاح فيهـــا يكلـــم

لـو لـم تكـن جرحـى غـداة لقـائهم مـــا كـــان يجـــري مآقيهـــا الـــدم

لـــم أدر أن الحـــب حومـــة مـــأزق تصـــلى ولا أن اللـــواحظ اســـلم

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد:

يـــا واشـــيًا حســـنت فينـــا إســـاءته نحـــن حـــذارك إنســـاني مـــن الغـــرق

إنـــي أســـد دموعًـــا لـــج ســـائقها مطروفـة العين بالمرضـى مـن الحـدق

ويرى القاريء أن أصحاب هذه الأخيلة الشعرية ، يرون أن احمرار الدموع إنما هو أثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين المعشوق. فيما لها من حرب ضروس تطأ فيها اقدام الجنس اللطيف أعناق الجنس النشيط. وإنا بهذه الهزيمة لفرحون !!

---

[1] الاتسروع ويجمع على أساريع دود أبيض أحمر الرأس يشبه به العرب الأنامل الرقيقة.

وكان عجيبًا أن تبيض الدموع بعد احمرارها !! وقد رأينا كيف أولوا احمرار الدموع. ولنذكر أن أصدقهم سبط بن التعاويذي حين يقول:

أتبعتم يوم أستقل فريقهم نظر المشوق وأنة المفجوع
لم تبك يوم فراقهم عيني دمًا إلا وقد نزف البكاء دموعي

والآن نريد أن نعرف كيف يتأولون ابيضاض الدموع بعد أن صيرها الحزن حمراء. فمن الشعراء من يرى الدمع الأبيض ماء ورد الخدود التي قطفها بعينيه عند الرحيل ، كما قال بعض الظرفاء:

كانت دموعي حمرًا يوم بينهم فمذ نأوا قصرتها بعدهم حرقى
قطفت باللحظ وردًا من خدودهم فاستقطر البين ماء الورد من حدقي

ومنهم من جعله شيبًا للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله:

قالت عهدتك تبكي دمًا لطول التنائي
فلِم تعوضت عنا بعد الدماء بماء
فقلت ما ذاك مني لسلوة عزاء
لكن دموعي شابت لطول عمر بكائي

وأشجى منه قول الآخر:

وقائلة ما بال دمعك أبيضًا فقلت لها يا عز هذا الذي بقي
ألم تعلمي أن البكا طال عمره فشابت دموعي مثل ما شاب مفرقي
وعما قليل لا دموعي ولا دمي ترين ولكن لوعتي وتحرقي

وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزنًا ، وأغزره دمعًا ، وهل تجد أدعى للشجو والبث من قوله:

فقلت لها يا عز هذا الذي بقي !!

ويذكرني هذا بقول الشريف الرضي في إتيان الدموع على العيون ، والغليل على الضلوع:

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها وغال بكم تلك الأضالع غولها
فمن ناظر لم يبق إلى دموعه ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلبًا بالغرام أذيبه عليكم وعينًا في الطلول اجيلها

ويذكر الشعراء أن الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق من الهواء. ولهم في ذلك فنون من اقول ، وشجون من الحديث ، وأجمل ما رأيت في ذلك قول خالد الكاتب في رفق عذاله به ، وإسعادهم له:

بكى عاذلي من رحمة فرحمته وكم مسعد لي في الهوى ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

عذر أرباب الدموع

لا تعـذل المشـتاق فـي أشـواقه حتـى يكـون حشـاك فـي أحشـائه
إن القتيـــل مـــبللاً بدموعـــه مثـــل القتيـــل مضـــرجًا بدمائـــه

نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم ، وما يحتجون به لدى عذالهم. وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدمع ، وداعي البكاء. والشعراء فيه رجلان رجل غلبه الحب ، وقهرته الصبابة: فباح بمكنون سره ، ومكتوم حبه ، ورجل تخوف الرقباء ، وتهيب العذال ، فأخذ يختلق العلل ، وينتحل الأسباب ، دفعًا لكيد الواشين ، ودرءًا لعذل اللائمين... فمن الأول قول البحتري:

سـارت مقدمـة الـدموع وخلفـت حرقًـا توقـع فـي الحشـا مـا ترحـل
إن الفـراق كمـا علمـت فخلنـي ومـدامعًا تسـع الفـراق وتفضـل
إلا يكـن صـبر جميـل فـالهوى نشـوان يجمـل فيـه مـا لا يجمـل

وحسن البيت الأول في خلود اللوعة ، وبقاء الغليل ! وهو خير من قول ذي الرمة:

لعـل انحـدار الـدمع يعقـب راحـة مـن الوجـد أن يشـفي شـجي البلابـل

والبيت الأخير أروع من قول أبي تمام في نفس المعنى:

والصـبر أجمـل غيـر أن تلـددًا فـي الحـب أحـرى أن يكـون جميلاً

وقال البحتري في الاعتذار عن البكاء:

لا تلمنـي علـى البكـاء فـإني نضـو شـجو مـا لمـت فيـه البكـاء
عـذلاً يتـرك الحنـين أنينًـا فـي هـوى يتـرك الـدموع دمـاء
كيـف أغـدر مـن الصـبابة خلـوًا بعـد مـا راحـت الـديار خـلاء

ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب:

عـــش فحبيـــك ســـريعًا قـــاتلي والضـــني إن لـــم تصـــلني واصـــلي
ظفـــر الحـــب بقلـــب دنـــف فيـــك والســـقم يجســـم ناحـــل
فهمـــا بـــين اكتئـــاب وضـــنى صـــيراني كالقضـــيب الـــذابل
وبكـــى العـــاذل لـــي مـــن رحمـــة فبكـــائي لبكـــاء العـــاذل

وهذا معنى جميل ، لا ينقص غير القرب من الحقيقة: فقد يندر أن يبكي اللائمون رفقًا بالحب الحزين !

ومما انتحل فيه الشعراء للبكاء أسبابًا غير اسبابه قول كثير:

إذا زرفـت عينـاي أعتـل بالقـذى وعـزة لـو يـدري الطبيـب قـذاهما

وهو نوع من الكتمان يفزع إليه الشعراء عند اليأس من أحبابهم:

يـأس يحسـن لـي التسـتر فـاعلمي لـو كنـت أطمـع فيـك لـم أتسـتر

ومن طريف هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه ، وقد استحيا من صديقه:

كـــم مـــن صـــديق لـــي أســـا رقـــة البكـــاءَ مـــن الحيـــاءِ
فـــإذا تأمـــل لامنـــي فـــأقول مـــا بـــي مـــن بكـــاءِ
لكـــن ذهبـــت لأرتـــدي فطرفـــت عينـــي بـــالرداءِ

الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط. ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب:

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا مني البكاء والقوافيا
فهلا منعتم إذ منعتم حديثها خيالاً يوافيني على النأي هاديا

وهي سذاجة طريفة تذكرنا بقول جحدر وهو في السجن:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني

وما الذي يضير أعاء الحب من أن يرى القمر كما تراه ، ويعلوها النهار كما علاه ، ما داموا قد أبعدوه عنها ، وحرموه منها. وقد تنبه بعض الأعراب إلى تفاهة هذه القناعة فقال:

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح او قبلت فاها
وهل رفت عليك فروع ليلى رفيف الأقحوانه في شذاها

على أنه لا ينبغي أن لا ينسينا جمال هذا الخيال ما في شعر جحدر وأمثاله من روعة الصدق ، وجلال الوفاء. وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح البكاء أشهى من الحديث المعسول ، حين يغدو الحب ولا أمل له في غير الوجد المشبوب ، والدمع المسكوب ، والصبر المغلوب !

من أجل هذا نخالف أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفي ونرجوه أن يصفح عن إعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء بدمعه الدائم ، وحزنه المقيم:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها مقالة واشٍ أو وعيد أسير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري

إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى ومـــن كـــرب تعتـــادني وزفيـــر
ومن حرق للحب في باطن الحشا وليـــل طويـــل الحـــزن غيـــر قصـــير
سـأبكي علـى نفسـي بعـين قريحـة بكـــاءَ حـــزين فـــي الوثـــاق أســـير
وكنـا جميعًا قبـل أن تظهـري النـوى بـــأنعم حـــالي غبطـــة وســـرور
فمـا بـرح الواشـون حتـى بـدت لنـا بطـــون الهـــوى مقلوبـــة لظهـــور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكنمـــا الـــدنيا متـــاع غـــرور

وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الإنسانية أجمل تصوير ، وتثيلها أدق تمثيل. ألم تر إلى الشاعر وقد أوجز في قناعته بالبكاء ، ثم انطلق يشكو إلى الله لوعته ، وحرقته ، ولياليه الطوال !! ألم تر إليه وقد كان يحسب الدمع نعمة سابغة يكبت بخلودها الأعـداء ، فعـاد يـرى الـدمع آيـة الـذل والمسـكنة ، وآخـر مـا يفـزع إليـه الاذلاء المساكين!!

الفزع إلى الدموع

قال أبو بكر بن عياش: نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي شجي البلابل

فخلوت فبكيت فسلوت !! ولست أدري كيف تذهب بالوجد زفرة ، أو تودي به عبرة ، وهو كما قيل:

ظن الهوى لبسة تبلي فيخلعها فكان في الروح مثل الروح في البدن

وكنت أسمي هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع ، وفقًا لما يجنح إليه الشعراء ، ولكني رأيت أن اسميه «فزعًا إلى الدموع» حين تبينت أن الدمع لا يطفئ اللوعة ، وأنه نار حامية ، لا برد وسلام !!

وهل تجد ادعى للبث ، واجلب للحزن ، من قول كثير ، وقد ترحلت حبيبته:

كفى حزنًا للعين إن رد طرفها لعزة عير آذنت برحيل

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى إذن لغليلي

توليت محزونًا وقلت لصاحبي اقاتلتي ليلى بغير قتيل

وما اختار البكاء لأنه أشفى للغليل كما قال. ولكنه اختاره ليفر من الصبر الذي رآه مر المذاق !! وقد حسب بعض الشعراء أن التفضيل بين الصبر والبكاء مما ينال ، وفي ذلك قول:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعًا ولم يجب الصبر

وهو ضلال مبين: فإن البكاء لا ينتظر دعوة المحزون ، ولكنه ينقض عليه انقضاض الصاعقة ، فإذا هو صريع ! وأمثال هذا الشاعر لا يتحدثون عن حزنهم المقيم. ولكنهم يمنون على أحبابهم بهذا الدمع المجلوب.

ومن الشعراء من تنبه إلى أن السلامة من الجوى أمض من الجوى ، وهؤلاءِ يبكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم «ومن أسماءِ الحب الضلال» ومن مختار الشعر في هذا البكاءِ قول المتنبي:

يـــراد مـــن القلـــب نســـيانكم وتـــأبى الطبـــاع علـــى الناقـــل
ولـــو زلـــتم ثـــم لـــم أبككـــم بكيـــت علـــى حبـــي الزائـــل

وأوجع منه قول البحتري:

وأود أنـــي مـــا قضـــيت لبـــانتي مـــنكم ولا أنـــي شـــفيت غليلـــي
وأعـــد برئـــي مـــن هـــواك جنايـــة والبـــرء أعظـــم نمايـــة المخبـــول

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه في السلوة ، ولا في البكاء.. وهل السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر ، ويقصف العمر ؟ أرأيت آدم وقد خرج من الجنة ؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع ، هي سر ما يعتادنا من أنين قد لا نعرف له سببًا قريبًا ؟ وهل البكاء إلا أثر من آثار الوجد يخشع لرهبته غلاظ الاكباد ، ويرق له قساة القلوب ؟

تلك حسرة البحتري أفسح عنها بقوله:

وأود مـ انـي ـا قضـيت لبـانتي مـــنكم ولا انـــي شـــفيت غليلـــي

فما الذي جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول:

قـف مشـوقًا أو مسـعدًا أو حزينًـا أو معينًـــا أو عـــاذرًا أو عـــذولا
وخـلاف الجميـل قولـك للـذاكر عهـــد الأحبـــاب صـــبرًا جمـــيلاً
علـى مـاء الـدموع يخمـد نـارًا مـن جـوى الحـب أو يبـل غلـيلا
وبكـاء الـديار ممـا يـرد الشـوق ذكـــرًا والحـــب نضـــوًا ضـــئيلا
لـم يكـن يومنـا طـويلاً بنعمـان ولكـــن كـــان البكـــاء طـــويلا

إن فهم ذلك يحتاج إلى تأمل النفس البشرية: فهي ليست موحدة المشاعر والميول. ولو جاز أن نجد نفسًا خالدة الألم لفقد شقيقتها في عالم النفوس ، لجاز أيضًا أن تكون في لوعتها الخالدة ذات تصاريف في الشكوى والأنين ! وليس طلب السلوة إلا صرخة الوجد يعجز عن كبحها المتيم العاني: ومن الذي يحرم على شقي أن يلتمس إلى السعادة السبيل ؟ ومتى كان المحبون سعداء حتى يكون طلب الخلاص من بلواهم كفرًا بنعمة الحب التي ابتلى الله بها أولئك الشهداء ؟! وقد يحسن أن ننشد القارئ قول البحتري نفسه:

قد كان مني الوجد غب تذكر إن كان منك الصد غب تناسي
تجري دموعي حيث دمعك جامد ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

ألا تراه جعل الوجد أثرًا للتذكر الذي حسب البكاء يفضي إليه فيريحه من الشوق في قوله:

وبكاءُ الديار مما يرد الشوق «ذكرا» والحب نضوًا ضئيلا

فهو يجعل الذكر دواء تارة ، ويجعله داءً تارة أخرى ! ولسنا نتخذ من ذلك دليلاً يرضاه المنطق عن خلود الصبابة ، والعالم كله لن يرزق الخلود ، ولكنا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيم المحزون ، فما يدري أيشفيه الدمع ، أم يزيد لوعته اضطرامًا..

على أنه لا عيب على الشاعر في أن «تتناقض» خواطره ، لأن الشعر كالمرآة والنفس دنيا ثانية ، تتراءى صورها المختلفة ؛ في لوحة الشعر الجميل.

الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق. فمن ذلك قول ابن الرومي:

لـو كنـت يـوم الفـراق حاضـرنا وهـن يطفـين غلـة الوجـد
لـم تـر إلا دمـوع باكيـة تقطـر مـن مقلـة علـى خـد
كـأن تلـك الـدموع قطـر نـدى يقطـر مـن نـرجس علـى ورد

وقد يؤخذ على هذه الأبيات ما فيها من الغزل في غير حينه: وهو قول أبي نواس في جنان:

يـا قمـرًا أبصـرت فـي مـأتم ينـدب شـجوًا بـين أتـراب
يبكـي فيـذري الـدر مـن نـرجس ويلطـم الـورد بعنـاب

والأدباء يرون هذا من وثبات الخيال ، ونراها أخيلة عادية ليس لها جمال خاص ، فقد يجد الشاعر في الجميلة الباكية ما ينسيه وصف طرفها الساحر وخدها الأسيل !! وقد أجاد ابن الرومي أو كاد في قوله:

تلاقينـا لقـاء لافتـراق كلانـا منـه ذو قلـب مـروع
فمـا افتـرت شـفاه عـن ثغـور بـل افتـرت جفـون عـن دمـوع

ومما جمع بين براعة التصوير ، ومتانة التعبير ، قول المتنبي:

لمـا تقطعـت الحمـول تقطعـت نفسـي أسـى وكـأنهن طلـوح
وجلا الوداع من الحبيب محاسنًا حسـن العـزاء وقـد جلـبن قبـيح
فيـه مسـلمة ، وطـرف شـاخص وحشًـا يـذوب ومـدمع مسـفوح
يجد الحمام ولو كوجدي لانبرى شـجر الاراك مـع الحمـام ينـوح

وقال مهيار في الاعتذار عما للمودع من الزفرات والعبرات:

دعـوني فلي أن زمت العيس وقفة أعلـم فيهـا الصـخر كيـف يلـين
وخلـوا دمـوعي أو يقـال نعـم بكـى وزفـرة صـدري أو يقـال حـزين

فلولا غليل الشوق أو دمعة النوى لما خلقت لي أضلع وجفون

وهي مدافعة حسنة تذكرنا بقول صردر:

إذا لم أفز منكم بوعد فنظرة إليكم فما نفعي بسمعي وناظري

وقال السري الرفاء في ذكر مظاهر الوداع: من اللوعة ، والحنين ، وتخديد الخد بالدمع ، مع ذهاب العزاء:

وقفتنا النوى على الكره منا موقفًا ضم شائقًا ومشوقا
حال ورد الخدود فأضحى النـ ـرجس الغض بالدموع غريقًا
لوعة أفرطت فعادت حريقا وحنين أربى فعاد شهيقً
وخليق بلوعة الحب صب لم كيكن بالعزاءِ فيه خليقا

ومن شجي الشعر في ذلك قول الشريف الرضي:

ولما تواقفنا ذهلت ولم يحن لطير قلوب العاشقين وقوع
عشية لي من رقبة الحي زاجر عن الدمع إلا أن تشذ دموع
وقد أمرت عيناك عيني بالبكا فقل لي أي الآمرين أطيع

ولهذا الشعر مزية خاصة: وهي ترتيب المعاني ترتيبًا لولا حيرة المودع لكان غاية في الوضوح. ولا يفوتنا أن نذكر هنا قول ابن زريتي:

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وإني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وادمعي مستهلات وادمعه

ومن الشعراءِ من يفرح بالوداع ، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها العين إلا عند الرحيل. فمن ذلك قول البحتري:

إن للبين نعمة لا تؤدي ويدًا في تماضر بيضاءَ
حجبوها حتى بدت لفراق كان داءً لعاشق ودواءَ
أضحك البين يوم ذاك وأبكى كل ذي صبوة وسر وساءَ

فجلعنـــا الـــوداع فيـــه ســـلامًا وجعلنـــا الفـــراق فيـــه لقـــاءَ

وفي هذا المعنى يقول بعض الظرفاء:

لـــم أنـــس إذ ودعتـــه والتقـــى ذا البـــدن النـــاعم والناحـــل
كأنمـــا جســـمي علـــى جســـمه غصـــنان ذا غـــض وذا ذابـــل
يـــا رب مـــا أطيـــب ضـــمي لـــه إلـــي لـــولا أنـــه راحـــل !

وقد الم الشريف بهذا المعنى في هذه الأبيات:

افـي كـل يـوم لفتـة ثـم عبـرة علـى رسـم دار أو مطـي موقـف
وركـب علـى الاكـوار يثنـي رقـابهم لـداعي الصـبا عهـد قـديم ومـألف
فمـن واجـد قـد الـزم القلـب كفـه ومـن طـرب يعلـو اليفـاع ويشـوف
ومسـتعبر قـد اتبـع الـدمع زفـرة تكـاد لهـا عـوج الضـلوع تثقـف
قضى ما قضى من أنه الشوق وأنثنى بـدار الجـوى والقلـب يهفـو ويرجـف
ولـم نغـن حتـى زايـل البعـد بيننـا وحتـى رمانـا الأزلـم المتغطـرف[1]
كـأن الليـالي كـن ألـين حلفـة بـأن لا يـرى فهـن شـمل مؤلـف
أيـا وقفـة التوديـع هـل فيـك راجـع إشـارته ذلـك البنـان المطـرف
وهـل مطمعـي ذاك الغـزال بلفتـة وإن ثـور الركـب العجـال وأوجفـوا[2]

وهذه الأبيات وصف سابغ للمرور بمنازل الأحباب ، ولكن فيها تصويرًا لانتهاب الحسن عند الوداع ، وإمتاع العين باللفتة وإشارة البنان ، وليست هذه المتعة بالشئ القليل !

---

[1] لم نفن: لم نقم. والأزلم المتغطرف هو الدهر.

[2] أوجفوا: أسرعوا

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع ، واليوم نذكر من شعرهم في الدمع بعد الفراق. فمن ذلك قول دعبل في راحلين ما يدري ايلقاهم وهو حي ، أم ينتظرهم في عالم البقاء:

ألم يأن للسفر الذين تحملوا إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق عبرة نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالي صرفهن كما ترى لكل إناس جدبة وربيع

ويذكر صاحب «مواسم الأدب» أن المأمون كان يعجب بهذه الأبيات ، وكذلك كان المؤلفون «يسجلون» إعجاب الملوك بما يقول الشعراء ، كأن الشعر «نقود» لا يتداولها الناس إلا إن حملت شارات الملوك !! على أن من العدل أن نذكر بهذه المناسبة أن إقبال المأمون على الشعر الجيد ، وتشجيعه للشعراءِ المجيدين ، كان مما رفع الأدب ونهض بالأدباء. وهناك ظاهرة أخرى لإعجاب المأمون بهذه القطعة الوجدانية: هي إقبال كراثم النفوس على مناهل الوفاءِ ، وإن اسبغت عليها نعمة العلم والجاه !! ولنا أن نقول: أن في عجز العلم والملك عن قتلا لحب في صدور الملك والعلماءِ لدليلاً على أن نعم الوجود تتلاشى أمام هذه النعمة الساحرة ، القاهرة: نعمة الجمال !! وفي الفزع من الموت قبل اللقاء ، يقول الطغرائي:

إني لأذكركم وقد بلغ الظما مني فأشرق بالزلال البارد
وأقول ليت أحبتي عاينتهم قبل الممات ولو بيوم واحد

وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر باك حزين كقوله:

الدمع مذ بعد الخليط قريب والشوق يدعو والزفير يجيب
لن لم تكن كبدي غداة وداعكم ذابت فاعلم أنها ستذوب

داء طلبت لـه الأساة فلـم يكـن إلا التعلـــل بالـــدموع طبيـــب
أمـا اقمـت فـإن دمعـي غالـب لعـــواذلي وتجلـــدي مغلـــوب

ومن الشعراءِ من ينفد دمعه ، فيوصي بالبكاءِ عنه ، كما قال الشريف:

أيهـا الـرائح المغـذ تحمـل حاجـــة للمتـــيم المشـــتاق
إقـر عنـي السـلام أهـل المصـلى فـبلاغ السـلام بعـض التلاقـي
وإذا مـا مـررت بـالخيف فاشـهد إن قلبـــي إليـــه بالأشـــواق
وإذا مـا سـئلت عنـي فقـل نضـ ـو هـوى مـا أظنـه اليـوم بـاق
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومنـي عنـد بعـض تلـك الحـداق
وابك عني فطالما كنت من قبـ ـل أعيـر الـدموع للعشـاق

وتذكرنا هذه الأبيات بقول عبد الرحمن الداخل:

أيهـا الراكـب المـيمم ارضـي إقـر مـن بعـض السـلام لبعضـي
إن جسـمي كمـا علمـت بـأرض وفـؤادي ومالكيـه بـأرض
قـدر البـين بيننـا فافترقنـا وطـوى البـين عـن جفـوني غمضـي
قـد قضـى الله بيننـا بـافتراق فعسـى باجتماعنـا سـوف يقضـي

ومن الشعراءِ من يبكي في القرب والبعد ، كما قال بعض الظرفاء:

ومـا فـي الأرض أشـقى مـن محـب وإن وجـد الهـوى حلـو المـذاق
تـراه باكيًـا فـي كـل حـال مخافـة فرقـة أو لاشـتياق
فيبكـي أن نـأوا شـوقًا إلـيهم ويبكـي إن دنـوا خـوف الفـراق
فتسـخن عينـه عنـد التنـائي وتسـخن عينـه عنـد التلاقـي

وليس لنا إلا أن نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الأخطل لعبد الملك بن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر: وأولها مر ، وآخرها سكر ؟ فقال صدقت يا أمير المؤمنين ! ولكن بين السكرو المرارة لحظة دونها ملكك الطويل العريض !
وبين دموع التلاق ، ودموع الفراق ، لحظة دونها حياة الإبرار في جنات النعيم !!

ومن الشعراءِ من يتوجع على عهده قبل الفراق. كقول الشريف:

هـل عهـدنا بعـد التفـرق راجـع ... أو غصـننا بعـد التسـلب مـورق
شـوق أقـام وأنـت غيـر مقيمـة ... والشـوق بـالكلف المعنـى أعلـق
ما كنت أحظى في الدنو فكيف بي ... واليـوم نحـن مغـرب ومشـرق

وفي البيت الأخير حسرة تذيب لفائف القلوب.

وقد أجاد الأرجاني في وصف اليأس بعد الفراق ، حين قال:

رحلـوا: أمـام الركـب نشـر عبيـرهم ... ووراءهـم نفـس المشـوق الصـادي
فكـأن هـذا مـن وراء ركـابهم ... حـاد لهـا وكـأن ذلـك هـادي
لله موقـف سـاعة يـوم النـوى ... بمنـى وأقمـار الحـدوج بـواد
لمـا تبعـت وللمشـيع غايـة ... اظعـانهم وقـد امـتلكن قيـادي
اتبعـتهم عينـي وقلبـي واقفًـا ... فـوق الثنيـة والمطـي غـواد
كيـف السـبيل إلـى التلاقـي بعـدما ... ضـرب الغيـور عليـه بالأسـداد
والحـي قـد ركـزوا الرمـاح بمنـزل ... فيـه الظبـاءُ ربائـب الآسـاد
وعـد المنـى بهـم فقلـت لصـاحبي ... كـم دون ذلـك مـن عـدى وعـواد
عهـدي بهـم وهـم بـوجرة جيـرة ... سـقيت عهـودهم بصـوب عهـاد
فـاليوم مـن نفـس النسـيم إذا سـرى ... نبغـي شـفاء علائـل الأكبـاد

ومن العشاق من يقف بالديار فيبكي لما صنعت بها أيدي الفراق حين نفرت عنها الظباء ، كسبط ابن اسهايذي حين يقول:

يـا موقفًـا بالبـان لـم تثمـر لنـا ... غيـر الصـبابة والأسـى شـجراته
هـل نفـرت لا نفـرت غزلانـه ... أو صـوحت لا صـوحت باناتـه
عهـدي بـه يلـوي الـديون قضـاته ... وتصـيد ألبـاب الرجـال مهاتـه
فـاليوم لا جيرانـه جيرانـه ... قـدمًا ولا فتياتـه فتياتـه
يـا حـادي الأظعـان فـي آثـاركم ... قلـب تقطعـه جـوى حسـراته

ولقـد يـرى ثبـت الحصـاة فمالـه اسـمت تـذوب على البعـاد حصـاته[1]

[1] الحصاة: القلب.

شكوى الصبابة

نظرت ما قال الشعراء في الشكوى فإذا هم مختلفون: فمنهم من يشكو إلى من يعلم السر والنجوى ، ومن يقدر على تصريف الخواطر ، وتقليب القلوب.

ألان لـــداود الحديـــد بقـــدرة مليـك علـى تيسـير قلبـك قـادر

وهؤلاءِ أصدق الناس حبًا وأحسنهم إيمانًا. وسيدهم أبو صخر الهزلي حين يقول:

بيـد الـذي شـغف الفـؤاد بكـم تفـريج مـا ألقـى مـن الهـم

فإنه جعل الهوى قدرصا ، وجعل الأمر في تيسير قلب من يهوى وتذليله للذي خلق الحب ، وأودع الذل فيه. ولم أجد في هذا المعنى أوجع من قول قيس ابن زريح:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلـى الله بعـد الوالـدين يتـيم
يـتم جفـاه الأقربـون فدمعـه غزيـر وعهـد الوالـدين قـديم

وإذا كان محالا إن يجد المرء بعد أبويه من يعوله ، ويحدب عليه ، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديرًا أن يفوز به لو عاش أبواه ، فكذلك لا يجد قيس من بين النساءِ مِن مَن تبره بر لبني. وهذا وجه الحسن في هذين البيتين ، اللذين يفيضان نارًا وحرقة. وقال ابن المعتز:

إلى الله أشكو الشوق لا أن لقيتها يقـل ولا إن بنـت يخلقـه الـدهر
مقيم على الأحشاءِ قد قطعت به فسـاعته يـوم وليلتـه دهـر

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه ، وخلود وجده. وإنما يشكو المحب قسوة الهجر ، ومرارة الصدود: وقال معين الدين الخطيب في الشكوى من لوعته وحسن محبوبه:

أكشـو إلـى الله مـن نـارين واحـدة فـي وجنتيـه وأخـرى منـه فـي كبـدي
ومـن سـقامين سـقم قـد أحـل دمـي مـن الجفـون وسـقم حـل فـي جسـدي

وهذا شعر منتقد. فإنه إذا صح أن يشكو المحب إلى الله سقمه ووجده ، أملاً في الراحة من بلاءِ الحب ، فما الذي يريده بشكوى السقم في جفن محبوبه والنار في خديه ؟ وقد أجاد أو قارب في قوله:

ومن نمو مين دمعي حين أذكره يذيع سري وواش منه للرصد
ومن ضعيفين صبري حين يهجرني ووده ويراه الناس طوع يدي

فإنه لا بأس من شكوى الواشي والود الضعيف !

ومن المحبين من يشكو إلى المعاهد والرسوم. وهو نوع من الوله ، وصنف من الصبابة. تقربه عين المحب. وتطيب به نفس المشوق. كقول ابن المعتز:

أياسدرة الوادي على المشرع العذب سقاك حيًا حي الثرى ميت الجدب
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكي الهوى إليك وإن طال الطريق على صحي
أصانع أطراف الدموع ومقلتي موقرة بالدمع غربًا على غرب
وهل هي إلا حاجة قضيت لنا ولوم تحملناه في طاعة الحب
تبدلت شيبًا بالشباب فإن تطر شياطين لذاتي يقعن على قرب

ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق. وهو أصل هذا الباب. ومنه هذا البيت السائر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ويعجبني في هذا المعنى قول البهاء زهير:

أين من يرحمني أشكو له يوا إنما الشكوى إلى من يرحم
أنا من قلبي ومنها آيس لم يكن من مقلتيها يسلم
أيها السائل عن وجدي بها إنه أعظم مما تزعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى أنت يا رب بحالي أعلم
طال ما ألقاه من نار الجوى وحديثي لك يا من يفهم
عشق الناس ومثلي لم يكن فاعلموا أني فيهم علم

سـطرت قبلـي أحاديـث الهـوى وبمسـك مـن حـديثي تختـتم

وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق ، وخفة الروح. ولعلك لا تجد أظرف من قوله:

أيـن مـن يرحمنـي أشـكو لـه إنمـا الشـكوى إلـى مـن يـرحم

فإنه خير ما قيل في معناه... ومن المغرمين من يشكو إلى حبيبه وهو أوجب لرحمته ، وأدعى إلى إنصافه. ومنه قول الطغرائي:

لعمـرك مـا يرجـى شـفائي والهـوى لـه بـين جسـمي والعظـام دبيـب
أجلـك أن أشـكو إليـك وأنطـوي علـى كمـدي أن الهـوى لعجيـب
وآمل براءًا من هوى خامر الحشا وكيـف بـداءٍ لا يـراه طبيـب
نصيبك من قلبي كما قد عهدته ومـا لـي بحمـد الله منـك نصـيب
ومـا ادعـي إلا اكتفـاءً بنظـرة إليـك ودعـوى العاشـقين ضـروب
وما بحت بالسر الذي كان بيننا ولكنمـا لحـظ المحـب مريـب

وقوله «نصيبك من قلبي كما قد عهدته» مأخوذ من قول ابن الأحنف:

إليـك أشـكو رب مـا حـل بـي مـن صـد هـذا التائـه المعجـب
صـب بعصـياني ولـو قـال لـي لا تشـرب البـارد لـم أشـرب
إن قـال لـم يفعـل وإن سـيل لـم يبـذل وأن عوتـب لـم يعتـب

وقوله «وما ادعى إلا اكتفاءً بنظرة» مأخوذ من قول الشريف:

عشـقت ومـا بـي يعلـم الله حاجـة سـوى نظـري والعاشـقون ضـروب

ومما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه – في الشكوى إلى المحبوب – قول بعض الأعراب:

شـكوت فقالـت كـل هـذا تبرمًـا بحـي أراح الله قلبـك مـن حبـي
فلما كتمت الحب قالت لشد ما صبرت وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنـو فتقصـيني فأبعـد طالبًـا رضـاها فتعتـد التباعـد مـن ذنبـي

فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها وتجزع من بعدي وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

وهذا شعر الطبع والسليقة ، والموفقون إلى مثله قليل.

وقد أجاد في هذا المعنى من شعراءِ العصر حافظ بك إبراهيم حين قال:

كم تحت أذياء الظلام متيم دامي الفؤاد وليله لا يعلم
ما أنت في دنياك أول عاشق راميه لا يحنو ولا يترحم
أهرمتني ياليل في شرخ الصبا كم فيك ساعات تشيب وتهرم
لا أنت تقصر لي ولا أنا مقصر أتبعتني وتعبت ، هل من يحكم
لله موقفنا وقد ناجيتها بعظيم ما يخفي الفؤاد ويكتم
قالت من الشاكي تسائل سربها عني ومن هذا الذي يتظلم
فأجبنها وعجبن كيف تجاهلت هو ذلك المتوجع المتألم
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له لولا عيونك حجة لا تفحم
أسلمت نفسي للهوى وأظنها مما يجشمها الهوى لا تسلم
وأتيت يحدوني الرجاء ومن أتى متحرمًا بفنائكم لا يحرم
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا تلك العيون وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى يبقى عليه ولا الصبابة ترحم
ولو تنظرين إليه في جوف الدجي متململاً من هول ما يتجشم
يمشي إلى كنف الفراش محاذرًا وجلاً يؤخر رجله ويقدم
يرمي الفراش بناظريه وينثني جزعًا ويقدم بعد ذاك ويحجم
فكأنه واليأس ينسف نفسه للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به في كل جنب مدية وانساب فيه بكل ركن أرقم
فكأنه في هوله وسعيره واد قد اطلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابدته من ناظريك وما كتمتك أعظم
قالت أهذا أنت ويحك فاتئد حتى م تنجد في الغرام وتتهم

إنـا سـمعنا عنـك مـا قـد رابنـا وأطـال فيـك وفـي هـواك اللـوم
اصغت إلى قول الوشاة فأسرفت فـي هجوهـا وجنـت علـي وأجرمـوا
حتـى إذا يـئس الطبيـب وجاءهـا أنـي تلفـت تنـدمت وتنـدموا
وأنـت تعـود مريضـها لا بـل أتـت منـي تشـيع راحـلاً لـو تعلـم

وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة ، تمثل العاشق ، وقد طال عليه الليل ، وهجر جفنيه المنام. وهي غاية في حسن القصص ، وسحر البيان.

ولنذكر الشكوى إلى ساقي الراح في قول ابن المعتز:

عشق أيها الساقي إليك المشتكي س قـد دعونـاك وإن لـم تسـمع
ونـديم همـت فـي غرتـه وبشـرب الـراح مـن راحتـه
كلمـا اسـتيقظ مـن سـكرته جـذب الـزق إليـه واتكـا

وسقاني أربعًا في أربع

غصـن بـان مـال مـن حيـث التـوى مـات مـن يهـواه مـن فـرط الجـوى
خفـق الأحشـاءِ موهـون القـوى كلمـا فكـر فـي البـين بكـى

ويحه يبكي لما لم يقع !

لـيس لـي صـبر ولا لـي جلـد يـا لقـومي عـذلوا واجتهـدوا
أنكـروا شـكواي ممـا أجـد مثـل حـالي حقـه إن يشـتكا

كمد اليأس وذا الطمع

كبـد حـرى ودمـع يكـف اصـرف الـدمع فـلا ينصـرف
أيهـا المعـرض عمـا أصـف قـد نمـا حبـي بقلبـي وزكـا

لا تقل في الحب أني مدعي

وفي هذه الموشحة شكوى أليمة. تهم بمثلها النفس الشجية ، من حين إلى حين ؟ وتعجبني شكوى ابن الرومي في قوله:

ظبـي يصـيد ولا يصـاد محـاذر نبـل الهـوى وحبائـل الايناس

غـــر شـــموس إن أحـــس بريبـــة أعجـــب يجـــامع غـــرة وشـــماس
يســبي القلــوب بمقلــة مكحولــة بفتـــور غـــنخ لا فتـــور نعـــاس
يـــا للرجـــال ألا معـــين لأيـــد صـب الفـؤاد علـى ضـعيف قـاس[1]
أيضـيمني خنـث الشـمائل لـو نضـا عنـــه غلالتـــه حســـاه الحاســـي ؟
ومـــن العجائـــب أن تحـــل ظلامـــة بفتـــى إنـــاس مـــن فتـــاة إنـــاس

ومن المعذبين من يبث شكواه من دهره وإخوانه إلى صديق اقصته في بره الليالي. ومـن شـعراءِ العصـر مـن قـارب الإجـادة فـي هـذا المعنـى ، كصـاحب البـدائع حـين يقول[2]:

عشـــق أنـــت الـــذي علمتنـــي يـــا ســـيدي بـــر الصـــديق
وتركتنـــــي فـــــي فتيـــــة مـــــا فـــــيهم بـــــر رفيـــــق
لـــم ألـــق بعـــدك مـــنهم ألا الجفـــــاء أو العقـــــوق
حتـــى كـــأني لـــم أبـــت مـــنهم علـــى عهـــد وثيـــق
وكـــأنهم لـــم يبصـــروا فـــي خلتـــي الحـــر الصـــدوق
فنســـوا هـــواي ولـــم يفـــق مـــن ودهـــم قلبـــي المشـــوق
ونســـوا طريـــف حـــديثنا عنـــد الصـــبوح أو الغبـــوق
ليـــت الهـــوى مـــا قـــادني يومًـــا إلـــى ذاك الطريـــق
أوليتنـــي لـــم أنخـــدع جهـــلاً بهاتيـــك البـــروق
بـــل ليتنـــي بعـــد الـــذي عانيـــت مـــن صـــبحي أفيـــق
مـــولاي لـــو أبصـــرتني لفزعـــت مـــن دمعـــي الطليـــق
وشـــجاك جســـمي نـــاحلاً وكأنـــه الطيـــف الطـــروق
أشـــكوا إليـــك وإنمـــا يشـــكو المضـــيم إلـــى الشـــفيق
فـــارحم فـــديتك مهجـــة أودى بهـــا الحـــزن العميـــق

---

[1] ايد: قوى. من الأتد بسكون الياء وهو القوة.

[2] أرسل هذه القصيدة الصديق العزيز محمد محمود حسين.

حـــزن يتطـــع فـــي الحشـــا فكأنـــــه غـــــدر الصـــــديق
يـــا ويـــح قلبـــي لـــم يـــزل يهفـــو بـــه الـــروح الخفـــوق
وتقـــــوده الـــــذكرى إلـــــى عهـــد الهـــوى الغـــض الرقيـــق
أيـــام نمـــرح فـــي الصـــبا فـــي ذلـــك العـــيش الأنيـــق
أيـــام نســـقي فـــي الهـــوى والـــود كأسًـــا مـــن رحيـــق
تلـــك الليـــالي لـــم تـــدع مـــن بعـــدها حســـنًا يـــروق
كـــــلا ولا خلـــــت لنـــــا إلا الزفيـــــــر أو الشـــــــهيق

عند منازل الأحباب

كان أبو نواس يكره الشعر في بكاءِ الرسوم والأطلال ، وأدباء هذا العصر يعدون هذه النزعة توديعًا للقديم ، وترحيبًا بالجديد ، وهذا حق أدا لوحظ أن الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم ببكاءِ الديار ، وإن لم يكونوا بنار الفراق من المحرقين ! ولكن من العبث في تحليل العواطف أن نجهل ما يجده المحبون عند المرور بديار أحبابهم المبعدين، ومن الغبن للآداب العربية أن نغفل ما قيل في منازل الأحباب من الشعر الباكي الحزين ؟ وها نحن أولاء نبسط القول عن هذه الوقفة الأليمة .

وقفة المحب على ديار خلت غرفها من الظباء الغرئر ، وعفت سررها من النساءِ الحرائر ، بعد أن كان ساكنوها أمل الآمل ، وأمنية المتمني !! فمن ذلك قول بعض الأعراب وقد وقف (بالحزن) بفتح الحاء – وكان ملعب شبابه ، ومنتدى هواه ، وصورة أيامه الخوالي:

ومستنجد (بالحزن) دمعًا كأنه ... على الخد مما ليس يرقأ حائر
إذا ديمة منه استقلت تهللت ... أوائل أخرى ما لهن أواخر
ملا مقلتيه الدمع حتى كأنه ... لما انهل من عينيه في الماءِ ناظر
وينظر من بين الدموع بمقلة ... دمى الشوق في انسانها فهو ساهر

وفي هذا المعنى يقول ابن الملوح:

نظرت كأني من وراءِ زجاجة ... إلى الدار من ماءِ الصبابة انظر
فعيناي طورًا تغرقان من البكا ... فأعشى وطورًا يحسران فأبصر

ومما يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، قول البحتري:

وقفنا فحيينا لأهلك باللوى ... ربوع ديار دارسات المعالم

ذكرنا الهوى العذري فيها فأنسيت عزاهـا مشـوقات القلـوب الهـوائم
خلعنـا بهـا عـذر الـدموع فأقبلـت تلـوم وتحلـى كـل لاح ولائـم
لقـد حكـم البـين المشـتت بـالبلى عليـك وصـرف الـدهر أجـور حـاكم
لعـل الليـالي يكتسـين بشاشـة فـيجمعن مـن شـمل الهـوى المتقـادم

ونود لو تأمل القارئ ما في هذه الأبيات من الترتيب والتنسيق: فقد وقف الشاعر بالديار ، ثم حياها وهو يتنقل برحه بين الشقاء الحاضر والنعيم الماضي ، ثم اشتعل الحزن في قلبه اشتعالاً ، فنسي جمال الصبر وحسن العزاء ، فاندفع يبكي وينتحب ، ثم أغرب في البكاءِ والنحيب ، حتى خشع عاذلوه ، وخضع لائموه !! ثم توجع للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالي !! ثم تمنى لو ضحك الزمن بعد العبوس، فاجتمع الشمل بعد الفراق !! وقال أبو فراس:

علـى لربـع العامريـة وقفـة إلى ليملي علي الشوق والدمع كاتب
فـلا وابـي العشـاق مـا أنـا عاشـق ادا هـي لـم تلعـب بصـبري الملاعـب
ومـن مـذهبي حـب الـديار وأهلهـا وللنـاس فيمـا يعشـقون مـذاهب

ولا يفهم أحد كيف يكون حب الديار وأهلها مذهبًا لأبي فراس ، مع أن أبياته هذه ليست شيئًا في جانب ما قيل في منازل الأحباب ، وكيفي أن نذكر قول نبهان العبسي في البئر الذي كانت تشرب منه حبيبته سليمي:

سأسري إلى الماءِ الذي شربت منه سـليمي وأن مـل السـري كـل واحـد
وألصـق أحشـائي ببـرد ترابـه وإن كـان مخلوطًـا بسـم الأسـاود

ويذكرني هذا بقول بعض الأعراب في (الوشل) وهو ماء كان يطالع عنده وجوه الكواعب:

اقـرأ علـى الوشـل السـلام وقـل لـه كـل المشـارب مـذ هجـرت دمـيم
سـقيًا لطلـك بالعشـي وبالضـحى ولبـرد مائـك والميـاه حمـيم

لو كنت أملك منع مائك لم يذق ما في قلاتك ما حييت لئيم[1]

وللشريف الرضي في بكاء الديار بدائع ، فمن ذلك قوله:

تزافر صحبي يوم ذي الأثل زفرة تذوب قلوب من لطاها واضلع
منازل لم تسلم عليهن مقلة ولا جف بعد البين فيهن مدمع
فدمع على بالي الديار مفرق وقلب على أهل الديار موزع
ألا ليت شعري كل دار مشتة ألا موطن يدنو بشمل ويجمع

ومن جيد شعره في هذا المعنى قوله من كلمة ثانية:

وقفت على تلك الديار ووحشها دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف قليلاً ولجا بعد في الهملان

وهذا آخر ما يقال في رسوم الديار ، فحسب أطلالها من البلى ، ورسومها من العفاء، أن تنكرها العينان ، ولا يعرفها القلب إلا قليلاً !! والأدباء ينكرون أن يتردد القلب في معرفة دار كانت بالأمس جنة ونعيمًا ، ويعجبون بقول طريح ابن إسماعيل الثقفي:

تستخبر الدمن القفار ولم تكن لترد أخبارًا على مستخبر
فظللت تحكم بين قلب عارف مغنى أحبته وطرف منكر

ومن الشعراء من يرى الديار الخالية ، وكأنها بأهلها مأهولة ، كأبي نواس حين يقول:

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما أقوت وحسن رسوم
تجافي البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواءِ ثوب نعيم

وكقول الأخطل:

لأسماء محتل بناظرة البشر قديم ولما يعفه سالف الدهر
يكاد من العرفان يضحك رسمه وكم من ليال للديار وكم شهر

وكقول ابن أحمر العقيلي:

---

[1] القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون في الصخره.

تراهـا علـى طـول القـراء جديـدة وعهــد المغــاني بــالحلول قــديم

والمعروف في هذا المعنى أن الديار تجد مثل ما يجد المتيم المحزون ، كقول محمد بن وهب:

طلــلان طــال عليهمــا الأمــد درسًــا فــلا علــم ولا قصــد
لبســا البلــى فكأنمــا وجــدا بعــد الأحبــة مثــل مــا أجــد

وكقول مالك ابن أسماء الفزاري:

بينــاهم ســكن لجــارهم ذكــروا الفــراق فأصــبحوا ســفرا
فظللــت ذا ولــه يعــاتبني مــن لا يــرى مثلــي لــه أمــرا
بكــت الــديار لفقــد ســاكنها أفعنــد قلبــي أبتغــي الصــبرا

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي:

ولمــا وقفنــا بالــديار وعنــدنا مــدامع نســديها لكــم ونثيرهــا
شكوانا إليها ما لقينا من الضنى فعرفنــا كيــف الســقام دثورهــا
وقــد درســت إلا أمــارة ذاكــر تلــوح لــه بعــد التمــادي ســطورها
خليلي قد عم الأسى وتقاسمت فنــون البلــى عشــاق ليلــى ودورهــا
فــلا دار إلا دمســنة ورســومها ولا نفــس إلا لوعــة وزفيرهــا
لعمر الليالي ما حمدت قديمها فيوحشــني ذهابهــا ومرورهــا
وقالوا عطاء الدهر يبلى جديده ومــن لــي بــدنيا لا يــزول ســروره

ونود لو نأمل القارئ إبداع ابن سنان في هذين البيتين:

خليلي قد عم الأسى وتقاسمت فنــون البلــى عشــاق ليلــى ودورهــا
فــلا دار إلا دمنــة ورســومها ولا نفــس إلا لوعــة وزفيرهــا

وحسب العاشق من موجب الأسى ، وداعي الحزن ، أن يرى منازل أحبابه هامدات، باليات !

تعفــو المنــازل أن نــأوا عنهــا وتغبــر الــبلاد

والحـــــي أولـــــى بـــــالبلى شـــــوقًا إذا بلـــــى الجمـــــاد

وهل تأملت كيف شكا إلى الديار ما لقي من الضنى ، وكيف عرف ما به من السقم لما تبين دثورها ، وتعرف عفاءها ! ويا ليت شعري هل شكت إليه ما تجد إليه من بعد سكانها ، وبين ملاكها ؟ أما والهوى إنها لتشكو في صمتها الرهيب: إذ كانت تحزن بغير قلب ، وتبكي بغير دمع !!

كفى حزنًا للهائم الصب أن يرى منـــازل مـــن يهـــوى معطلـــة قفـــرا

ومما يقرب من فلسفة الشعر ، وفقه الأدب ، في بكاء الرسوم الهوامد ، والأطلال الدوارس ، مع الإفصاح عن الأسى والبث ، والشجى والحزن ، قول ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سكانها ما لقي المحب بعدهم من الضنى والنحول:

وقفت أداري الوجد خوف مدامع تبـيح مـن السـر الممنـع مـا أحمـي
أغالـــب بالشـــك اليقـــين صـــبابة وأدفـــع مـــن صـــدر الحقيقـــة بـــالوهم

وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس ، ومغالبة الوجد: فقد عرف الديار بقلبه ، لما ضمنت منه الضلوع لأهلها النازحين ، وأنكرها بطرفه ، لما لقيت من الدثور والعفاء، فهو يريد أن يعتصم بالشك ، لينجو من قسوة اليقين ، ولكنه غلب على أمره فقال:

فلمـا أبـى إلا البكـاء لـي الأسـى بكيـت فمـا أبقيـت للرسـم مـن رسـم
كـــأني بـــأجزاع النقيبـــة مســـلم إلـى ثـائر لا يعـرف الصـفح عـن جـرم

يرحمه الله ! فهل رأى ثائرًا أظلم من الوجد ، وحاكمًا أجور من الصبابة ! ثم أخذ يقارن بين بليته وبلية الديار ، فقال:

لقـد وجـدت وحـدي الـديار بأهلهـا ولو لم تجدو جدي لما سقمت سقمي
علـــيهن وســـم للفـــراق وإنمـــا علـي لـه مـا لـيس للنـار مـن وسـم

وهذا من الإبداع في وصف الديار الخالية ، وهل تجد المنزل بعد أهله إلا باكيًا حزينًا؟ أوليست وحشة المنزل الخالي ذلة بادية يطالع بها الرائح والغادي ، عساه

يعرف شيئًا عن سكانه الراحلين ، وملاكه الغائبين ؟ إن السكان للمنازل كالأرواح للأجسام ، فإذا ارتحلوا آن حمامها ، وحان دثورها ، وحل دمارها ! وقد رآى الشاعر بعد ذلك أن البين جائر في قسمة الضنى بينه وبين المنزل الخالي ، فقال:

وكم قسم البين الضنى بين منزل وبيني ولكن الهوى جائر القسم
منازل أدارس شجاني نحوها فهلا شجاها ناحل القلب والجسم

وهذه استغاثة بالطلل البالي ، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين !

وكان ابن الخياط من أغزر الناس دمعًا عند مغاني الأحباب ، فمن ذلك قوله:

يا عمرو ما وقعة في رسم منزلة أثار شوقك فيها محو آثار
أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به وما اعترافك إلا دمعك الجاري
لو كنت ناسي عهد من تقادمه نسيت فيها لباناتي وأوطاري
أيام يفتك فيها غير مرتقب ظبي الكناس بليث الغابة الضاري
لا أرسل اللحظ إلا كان موقعه على شموس منيرات وأقمار
ما أطيب العيش لو أني وفدت به على زمان ودهر غير غدار

وهذا شعر يخالط النفس ، ويلابس الفؤاد ، ومثله في اللوعة قوله من كلمة ثانية:

أجدك ما تنفك بالغور ناشدًا فؤادًا بنجد ؟ يا لقلبك من نجد !
وإني لتصميني سهام أذكاركم وإن كان رامي الشوق مني على بعد
تمادي غرام ليس بحري إلى مدى وفرط سقام لا يقيم على حد
وما أنس لا أنس الحمى وأهلة تضل ومن حق الأهلة أن تهدي
زمانًا إخال الجهل فيه من النهى وحبًا أعد الغي فيه من الرشد
غنين وما نولن نيلاً سوى الجوى وبن وما زودن زادًا سوى الوجد
خليلي ما أحلي الحياة لو أنها لطاعمها لم تخلط الصاب بالشهد
لقد حالت الأيام عن حال عهدها ومن لي بأيام تدوم على العهد

ومن بديع الشعر في بكاء الديار قوله من كلمة طويلة:

وبالجزع حي كلما عن ذكرهم أمات الهوى مني فؤادي وأحياه

تمنيـــتهم بـــالرقمتين ودارهـــم بـــوادي الغضـــايا بعـــد مـــا أتمنـــاه
سـقى الوابـل الربعـي حائـل ربعهـم ورواحـــه مـــا شـــاء روح وغـــاداه
وجـــر عليـــه ذيلـــه كـــل خـــاطر إذا مشـى فـي عاطـل التـرب حـلاه
ومـا كنـت لـولا أن دمعـي مـن دم لأحمـــل منًـــا للســـحاب بســـقياه

ومن المعاني المولدة في الدمع عند الرسوم قول الأرجاني:

وقفـــت بـــأطلال الـــديار مســـلمًا وعهـــدي ومـــلء الـــواديين قبـــاب
فـــأبرق عـــذالي ملامًـــا وأردعـــوا وأمرطـــت أجفـــاني فـــتم ســـحاب
بـه غنيت أرض الحمى عن مصبح يقـــول ســـقى دار الربـــاب ربـــاب

وهو خيال يبدو كأنه طريف ، ولكنه من الأخيلة الجوفاء ! وفي هذا المعنى يقول ابن التعاويذي:

ســـقى دار الحبيـــب وإن تنـــاءَت ملـــث مثـــل أجفـــاني هطـــول
ولا برحـــت تســـحب للغـــوادي وطـــورًا للصـــبا فيهـــا ذيـــول
فجفنـــي والغمـــام لهـــا غـــدير وقلبـــي والنســـيم بهـــا عليـــل
وعنفنـي علـى العبـرات صـحبي عشـــية قـــوض الحـــي الحلـــول
وقـــالوا اســـتبق للأحبـــاب دمعًـــا فقـــد شـــرقت بأدمعـــك الطلـــول
معـــاذ الحـــب أن ألفـــي حمـــولا وقـــد ســـارت بمـــن أهـــوى الجمـــود
وعـــار أن تـــزم ليـــوم بـــين جمـــالهم ولـــي صـــبر جميـــل

ومن الشعراءِ من يجعل الحنين إلى الوطن كناية عن الحنين إلى ليالي الشباب التي قضاها بمرأى من كواكبه السواطع ، ونجومه اللوامع. وقد نوه بذلك صاحب زهر الآداب فذكر أن ابن الرومي جاءَ إلى علي بن عبد الكريم النصيبي وأنشده هذه القطعة البديعة:

ولـــي وطـــن آليـــت أن لا أبيعـــه وأن لا أرى غيـــري لـــه الـــدهر مالكـــا
عمـرت بـه شـرخ الشـباب منعمـا بصـحبة قـوم أصـبحوا فـي ظلالكـا
وحبـــب أوطـــان الرجـــال إلـــيهم مـــآرب قضـــاها الضـــباب هنالكـــا

إذا ذكـروا أوطـانهم ذكـرت لهـم عهـود الصـبا فيهـا فحنـوا لـذلكا
فقـد ألفتـه الـنفس حتـى كأنـه لهـا جسـد إن بـان غـودر هالكـا

ثم قال: انصفني وقل الحق. أيهما أحسن ؟ قولي في الوطن أم قول الاعرابي

أحـب بـلاد الله مـا بـين مـنعج إلـى وسـلمى لا يصـوب سـحابها
بلادهـا بهـا نيطـت علـى تمـائمي وأول أرض مـس مـن جسـمي ترابهـا

فقال له: بل قولك أحسن ، لأنه ذكر الوطن ومحبته. وأنت ذكرت العلة التي أوجبت ذلك !! وقد يشعر القارئ بالحاجة إلى معرفة المخاطب في قول ابن الرومي:

عمـرت بـه شـرخ الشـباب منعمـا بصـحبة قـوم أصـبحوا فـي ظلالكـا

وخلاصة الحديث أن القطعة التي نقلناها من شعر ابن الرومي عن الوطن هي جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها ، فمما فيها من التحريض قوله:

وإنـي وإن أضـحي مـدلا بمالـه لآسـل أن أضـحي مـدلا بمالكـا
فـإن لـم تصـبني مـن يمينـك نعمـة فـلا تخطئنـه لقمـة مـن شـمالكا
فكـم لقـي العـافون بـدءًا وعـودة نوالـك والعـادون غمـر نكالكـا

وقال ابن الرومي من كلمة أخرى يتشوق إلى بغداد:

بلـد صـبحت بـه الشـبيبة والصـبا ولبسـت ثـوب العـيش وهـو جديـد
فـإذا تمثـل فـي الضـمير رأيتـه وعليـه أغصـان الشـباب تميـد

والأدباء يرون أن مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن ، ولا بكاء على اللهو ، ولكنه بكاء على الشباب ، ويذكرون قول ابن الرومي من كلمة ثانية:

لا تلـح مـن يبكـي شـبيبته إلا إذا لـم يبكهـا بـدم
عيـب الشـبيبة غـول سـكرتها ومـدار مـا فيهـا مـن الـنعم
لسـنا نراهـا حـق رؤيتهـا غـلا أوان الشـيب والهـرم
كالشـمس لا تبـدو فضـيلتها حتـى تغشـى الأرض بـالظلم

ولـــرب شـــيء لا يســـر بـــه وجدانـــــه إلا مـــــع العـــــدم

والذين يؤولون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرون أنه تبع في وصف الوطن بشار بن برد حين يقول:

متى تعرف الدار التي بان أهلها بسعدي فإن العهد منك قريب
تذكرك الأهواء إذ أنت يافع لديها فمغناها إليك حبيب

ولعلنا لا نبالغ إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاءً لما انقطع بعده من دواعي الطيش ، وموجبات الجنون ، فبعض العقل رزء ، وبعض الوقار بلاء ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

ولقد سافر العباس بن الأحنف مع هرون الرشيد إلى خراسان واستدعاه ليلة لينشده شيئًا من الشعر ، فأنشده هذه الأبيات:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني علي شحط سكان دجلة من سكان جيحانا

فقال له: لقد اشتقت يا عباس ! فأجابه ، نعم يا أمير المؤمنين ! فإذن له بالرجوع...

وقال ابن ميادة يخاطب الوليد بن يزيد:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بحرة ليلى حيث ربني أهلي
بلاد بها نيطت علي تمائمي وقطعن عني حين أدركني عقلي
فإن كنت عن تلك المواطن مانعي فاقتر علي الرزق واجمع بها شملي

وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان ! وما أدري أكان شوق ابن ميادة إلى بلاده رفقًا بالأهل والعشيرة ، أم كان برًا بمن فيها من فاتنات الخدود ، وساحرات العيون ، وقاسيات القلوب ؟ لا يعلم ذلك إلا الذي يقول:

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحب إلى قلبي وعيني من أهلي

وقال مالك ابن الريب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل:

سقى الله اليمامة من بلاد نوافجها كأرواح الغواني[1]
وجو أزاهر للريح فيه نسيم لا يروع الترب واني
به سقت الشباب إلى مشيب يقبح عندنا حسن الزمان

وقال بعض الأعراب في توديع نجد ، وما لقي بها من نضارة العيش ، وطيب الحياة:

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحي نجدًا وأنت على زمانك غير زار[2]
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سِرار

وهذا حنين يذل له عصي الدمع. ويشبهه قول ابن المعتز في دار كانت ملعب صباه:

لا مثل منزلة الدويرة منزلٌ يا دار جادك وابل وسقاك
بؤسًا لدهر غيرتك صروفه لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحلُ للعينين بعدك منظر ذم المنازل كلهن سواك
أي المعاهد منك أندب طيبه ممساك بالآصال أم مغداك
أم برد ظلك ذي الغصون ودي الجنى أم أرضك الميثاء أم رياك
وكأنما سعطت مجامر عنبر أوفت فار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباء أرضك جوهر وكأن ماء الورد دمع نداك
وكأنما أيدي الربيع ضحية نشرت ثياب الوشي فوق رباك
وكأن درعًا مفرغًا من فضة ماء الغدير جرت عليه صباك

ومما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف. وقد كان الشعراء يتخذون الأديار موطنًا لعبث الصبا ولعب الشباب ، ولكثير منهم حنين موجع إلى سكانها من

---

[1] النوافج بالجيم نافجة وهي الريح تبدأ بشدة.

[2] غير زار: غير عاتب.

ظرفاء الرهبان ، وربما عدنا إلى بسط ذلك في غير هذا الحديث ونكتفي الآن بنفثات العشاق في التغني بمنازل الشراب. فمن ذلك قول محمد بن عاصم المصري في دير القصير ، وقد كان ملعبًا للشعراء المصريين.

إن ديـر القصـير هـاج أذكـاري ... لهـو أيامنـا الحسـان القصـار
وزمانًـا مضـى حميـدًا سـريعًا ... وشـبابًا مثـل الـرداء المعـار
ولـو أن الـديار تشـكو اشـتياقًا ... لشـكت جفـوتي وبعـد مـزاري
ولكـادت تسـير نحـوي لمـا قـد ... كنـت فيهـا سـيرت مـن أشـعاري
وكـأني إذا زرتـه بعـد هجـر ... لـم يكـن مـن منـازلي وديـاري
إذ صـعودي علـى الجيـاد إليـه ... وانحـداري فـي المعتقـات الجـواري
بصـقور إلـى الـدماءِ صـواد ... وكـلاب علـى الوحـوش ضـواري
منـزلاً لسـت علـى التصـاوير فيـه ... بصـغار محثوثـة وكبـار
صـورة فـي مصـور فيـه ظلـت ... فتنـة للقلـوب والأبصـار
أطربتنـا بغيـر شـدو فأغنـت ... عـن سـماع العيـدان والمزمـار
لا وحسـن العينـين والشـفة اللمـ ... ـياء منهـا وحـدها الجلنـار
لا تخلفـت عـن مـرادي دهـرًا ... هـي منـه ولـو نـأى بـي مـزاري

وفي دير القصير هذا يقول كشاجم:

سـلام علـى ديـر القصـير وسـفحه ... فجنـات حلـوان إلـى الـنخلات
منـازل كانـت لـي بهـن مـآرب ... وكـن مـواخيري ومنتزهـاتي
إذا جئتهـا كـان الجيـاد مراكبـي ... ومنصـرفي فـي السـفن منحـدرات

ومن الأديار التي خلدها الشعراء «دير قُنّا» بالقرب من بغداد ، وقد أبدع في وصفه المؤرخون ، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب الشباب ، ولم يبق غير ذكراه في قول ابن جمهور:

يـا منـزل اللهـو بـدير قُنـا ... قلبـي إلـى تلـك الربـى قـد حنـا

سـقيًا لأيامـك لمـا كنـا نمتـاز منـك لـذة وحسـنا
أيـام لا أنعـم عيشًـا منـا إذا انتشـينا وصـحونا عـدنا
إذا فنـى دن بزلنـا دنًـا حتـى يظـن أننـا جننـا
ومسـعد فـي كـل مـا أردنـا يحكـي لنـا الغصـن الرطيـب اللـدنا
أحسـن خلـق الله إذ تحنـا وجـس زيـر عـوده وغنـا
بـالله يـا قسـيس يـا باقنـا[1] متـى رأيـت الرشـأ الاغنـا
متـى رأيـت فتنتـي تجنـي آه إذا مـا مـاس أو تثنـى

أسأت إذا أحسنت فينا الظنا !

ومن الشعراء من تهج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر آخر كان ملعب هواه ، كما قال السري الرفاء يمدح الموصل ويذم العراق:

لحـا الله العـراق وسـاكنيه فمـا للحـر بيـنهم قـرار
وجـاد الموصـل المبـيض غيـث يجـود وللبـروق بـه انفسـار
كمـا انهلـت مـدامع مسـتهام تلهـب منـه فـي الأحشـاء نـار
ففـي أيامـه حسـن التصـابي وفـي أفيائـه خلـع العـذار
ليـالي كـان لـي فـي كـل يـوم إلا الحانـات حـج واعتمـار
فمـن ذكـر القيامـة بـي صـدود وعـن سـاح المسـاجد بـي نفـار
ولـي خـدنان همهمـا المعـالي وشـأنهما السـكينة والوقـار
وصـاق تضـحك الـدنيا إليـه إذا ضـحكت بكفيـه العقـار
يطـوف بهـا وقـد حملـت حبابًـا كمـا حمـل السـقيط الجلنـار[2]
كـأن الشـرب ينتبهـون نـارًا لهـا لهـب ولـيس لهـا شـرار
رأى الـدهر اجتمـاع الشـمل منـا فبـدده وللـدهر الخيـار

---

[1] قد يكون أصل الكلمة يا ابا قنا ثم حذفت الهمزة تخفيفًا والمراد به ساكن دير قنا.

[2] الجلنار: زهر الرمان.

إلى هنا وقف القارئ على نماذج في بكاءِ الديار الخالية ، والحنين إلى الوطن النائي ، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب ، فلنذكر شكوى العشاق من المنزل القريب المأهول ، حين يصبح أهله كالكواكب قريبة الضوء ، بعيدة المنال ! وحين يصبح تمنع الحبيب أقسى من النوى ، وأمر من الفراق. وأبدع الشعر في ذلك قول راشد بن إسحق الكوفي:

ومتسوحش لم يمس في دار غربة ... ولكنه ممن يحب غريب
طواه الهوى واستشعر الوصل غيره ... فشطت نواه والمزار قريب
سلام على الدار التي لا أزورها ... وإن حلها شخص إلى حبيب
وإن حجبت عن ناظري ستورها ... هوى تحسن الدنيا به وتطيب
هوى تضحك اللذات عند حضوره ... ويسخن طرف اللهو حين يغيب
تثنى به الأعطاف حتى كأنه ... إذا اهتز من تحت الثياب قضيب
ألم تر صمتي يجري حديثه ... وقد كنت أدعي باسمه فأجيب
رضيت بسعي الدهر بيني وبينه ... وإن لم يكن للعين فيه نصيب
أحاذر إن واصلته أن ينالني ... وإياه سهم للفراق مصيب
أرى دون من أهوى عيونًا تريبني ... ولا شك أني عندهن مريب
أداري جليسي بالتجلد في الهوى ... ولي حين أخلو زفرة ونحيب
وأخبر عنه بالذي لا أحبه ... فيضحك سني والفؤاد كئيب
مخافة أن تغري بنا ألسن العدا ... فيطمع فينا كاشح فيعيب
كأن مجال الطرف في كل ناظر ... على حركات العاشقين رقيب
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى ... وصيبين عثقل المرء وهو لبيب
وكم قد أذل الحب من متمنع ... فأضحى وثوب العز منه سليب
وإن خضوع النفس في طلب الهوى ... لأمر إذا فكرت فيه عجيب

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراعة القيسي أنه كان في مجلس العتبي مع عبد الصمد بن المعذل ، وأنهم تذاكروا ما أبدع المولدون من الشعر الرقيق فقال عبد الصمد أنا في ذلك أشعر الناس ؟ فقال أبو شراعة أشعر منك الذي يقول:

ومتسوحش لم يمس في دار غربة ولكنه ممن يحب غريب

إلى آخر القصيدة. وإن عبد الصمد حين سمعها لم ينطق بحرف ! وعندي أن صاحب هذه القصيدة لم يوفق في وصف مشاعره وصفًا منظما يصح أن يكون «صورة شعرية» بل نراه جمع بين أشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل: ألا تراه يذكر في أول القصيدة أنه قريب ، ولكنه في قربه غريب ، لأن إنسانًا غيره يتمتع بذلك الحبيب ؟ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر أنه يحاذر الوصل طائعًا لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق ؟ وهذا بالطبع شطط في تصوير النفس المعذبة ، لأن الذي يتصور أن محبوبه قد يطوق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه يترك مواصلته اتقاءً لعيون الوشاة!

ينقص هذه القصيده إذن ما أسميه «الصورة الشعرية» ولا يمنع هذا أن تكون في جملتها جميلة لما تحويه من الأبيات المختارة. ولئن صح أن العتبي صادق على أن صاحبها أشعر الناس فإنا نشك في أذواق الأدباء الأقدمين ونرتاب في حاستهم الفنية. وأحب أن يفهم بعض الناس معنى «الحاسة الفنية» فإن كثيرًا من أدعاء الأدب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون ، فضلاً عن أن يفقهوا ما تناثر على بساط الدهر من ثمرات العقول !

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يسمع أو يرى أو يلمس أو يشم أو يذاق ! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك ، إذ لم يرزقوا الأدراك ! ومحال أن يجدوا طمعصا لقول الشاعر:

أسمع في قلبي دبيب المنى وألمس الشبهة في خاطري

لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر. وأين تكون القلوب ! من أجل هذا أشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار الكتاب والشعراء ، وأن لا يعتمد في

اختياره على الأذواق العامة لعلماء البيان ، فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا أنهم على شئ ، وأن الأدب لحياتهم مدين !!

وقد يمر العاشق ببيت من يهوى ثم لا يملك التحية ، لأن الوشاة له بالمرصاد. فمن ذلك قول السري الرفاء:

مررنا بالعقيق فكم عقيق ترقرق في محاجرنا فذابا
ومن مغنى جعلنا الشوق فيه سؤالا والدموع له جوابا
وفي الكلل التي غابت شموس إذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لهن أعباءَ التصابي ولم أحمل من السوان عابا
ولو بعدت قبابك قاب قوس من الواشين حييت القبابا

إلى هنا عرف القاريء ألوان العواطف عند منازل الأحباب ، فقد رأى نفثات المحبين عند الديار الخالية ، وشهد بكاءهم على الوطن النائي ، وحنينهم إلى مواطن اللهو والشراب ، ثم رأى زفراتهم عند المنزل يدنو وهو بعيد ، لنفور ما فيه من الظباء ! ويجمع شتيت هذه المعاني قول بعض الأعراب:

بكل تداوبنا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي عهد

وربما عدنا إلى تفصيل هذه النوازع القلبية ، حين نتحدث عن آراء الشعراء في أفنان الجمال.

وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان: فهو يخشى أن تفضحه الدموع ! وأشهر الشعراء في الخفاء الحب العباس بن الأحنف ، وسنبسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان. ونكتفي الآن بشعره عن قهوه بالدموع: وقد رأيته يتوجع حينًا من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع ، فيقول:

هـــوني أغـــض إذا مـــا بـــدت وأملـــك طرفـــي فـــلا أنظـــر
فكيـف أسـتتاري إذا مـا الـدمو ع نطقـــن فـــبحن بمـــا أضـــمر
أمنـي تخـاف انتشـار الحـديث وحظـــي فـــي صـــونه أوفـــر
ولـو لـم يكـن فـي بقيـا عليـك نظـــرت لنفســـي كمـــا تنظـــر

ويغضب حينًا على دمع عينيه فيقول:

لا جـزى الله دمـع عينـي خيـرًا وجـــزى الله كـــل خيـــر لســـاني
نـم دمعـي فلـيس يكـتم شـيئًا ورأيـــت اللســـان ذا كتمـــان
كنـت مثـل الكتـاب اخفـاه طـي فاســـتدلوا عليـــه بـــالعنوان

ويبالغ في هذا المعنى حتى ليرمي قلبه بالعداوة ، فيقول:

قلبـي إلـى مـا ضـرني داعـي يكثـــر اســـقامي وأوجـــاعي
كيـف احتراسـي مـن عـدوي إذا كـــان عـــدوي بـــين أضـــلاعي

ومن الشعراء من ييأس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع ، كما يقول البحتري:

علاقـة حـب كنـت أكـتم بثهـا إلـى أن أذاعتهـا الـدموع الهوامـع
إذا العين راحت وهي عين على الجوى فلـيس بسـر مـا تسـر الأضـالع

وقد أفصح الأرجاني عن غاية ذلك: وهي نصر الوشاة ، بقوله:

ولـي نفـس إذ مـا امتـد شـوقًا أطـار القلـب مـن حـرق شـظايا

ودمع ينصر الواشين ظلمًا ويظهـــر مـــن ســـرائري الخبايـــا

وأكرم من هؤلاءِ جميعًا الشريف الرضي حين يقول:

أيسـمح جفنـي بالـدموع وأغتـدي ضـــنينًا بهـــا أنـــي إذن للئـــيم
ولـــو بخلـــت عينـــي إذن لعتبتهـــا فكيـــف ودمـــع النـــاظرين كـــريم

وقد نظر أبو نواس إلى قول بشًا بن بُرد:

يروعـــه الســـرار بكـــل شـــيءٍ مخافـــة أن يكـــون بـــه الســـرار

ثم حاكاه بهذه الأبيات في نميمة الدمع:

قـد تسـترت بالسـكون وبالاطـ ـــراق جهـــدي فنمـــت العينـــان
تركتنـي الـدموع نصـب المشيريـ ـــن وأُحدوثـــة بكـــل مكـــان
مـــا آرى خـــاليين للســـر إلا قلـــت مـــا يخلـــوان إلا بشـــاني

وهي صورة شعرية ، تمثل العاشق المروع أصدق تمثيل.

ومن المحبين من تنم عليه دموعه الغزار ، وأنفاسه الحرار ، كالبحتري حين يقول:

إن الخطـــوب طـــوينني ونشـــرنني عبـــث الوليـــد بجانـــب القرطـــاس
مـا شـبت مـن طـول السـنين وإنمـا طـول الملامـة فيـك شـبب رأسـي
نمـت علـى مـا فـي ضـميري أدمعـي وتتـــابع الصـــعداء مـــن أنفاســـي

ومن روائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مهيار:

طرحـت بجمـع نظـرة سـاءَ ركبهـا وتبعـــث شـــرًا للعيـــون المطـــارح
فإن سترت تلك الثلاث على منى هـواي فيـوم النفـر لا شـك فاضـح
بكيـت ولام العـاذلات فلـم تغـض علـى رقيـة العـذل الـدموع السـوافح

كيف يسوءُ كسب العيون ، حين تجني على القلوب !

سلطان الحب

سالنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي عن الحب: اختياري هو أم اضطراري وهل المحب مضطر أم مختار ؟ وقد اختلف الناس من قبل في هذه المسألة ، وأوضحها ابن أبي حجلة في كتاب «ديوان الصبابة» وأنا ناقل هنا نبذة من ذلك الكتاب الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف القرن الثامن الهجري ، لأنه يمثل لنا رأي علماء ذلك العصر في مثل هذه الشئون. قال ابن أبي حجلة في سذاجة غريبة ما نصه:

«هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره. وأسفر كالصباح أمره. إذ للناس فيه كلام من الطرفين ، وتبختر من الصفين. فقائل بأنه اضطراري. وقائل بأنه اختياري. ولكل من القولين وجه مليح. وقد رجيح. ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع. ونتكلم في طوله وعرضه بالباع والذراع (!!) فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمرو النوناني في كتابه تحفة الظراف: العشاق معذورون على كل حال. مغفور لهم في جميع الأقوال والأفعال. إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار. بل اعتراهم على جبر واضطرار. والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور. لا في المقضي عليه والمقدور. وقد جاءَ في الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الحامل كانت ترى يوسف – عليه السلام – فتضع حملها. فكيف تراها وضعته ؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار ؟ لا. بل باضطرار ، وفقد اقتدار. وهذا مما لا يشك فيه ذولبٍ. ولا يختلج خلافه في قلب».

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال: لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية. ونقل عن أبي محمد بن حزم أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين إني رأيت امرأة فعشقتها. فقال عمر: ذلك مما لا

يملك. قال «وما أحسن قول بعض بني عذرة وقد قال له بعض العرب: ما لأحدكم يموت عشقًا في هوى امرأة يألفها ؟ إنما ذلك ضعف نفس ، ورقة ، وخور ، تجدونه فيكم يا بني عذرة. فقال: أما والله لو رأيتم الحواجب الزج ، فوق النواظر الدعج ، تحتها المباسم الفلج ، لا تخذتموها اللات والعزى !».

ثم قال بعد كلام طويل «إن العشق يختلف باختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية ، وغلظ الكبد ، وقساوة القلب ، ونفور الطباع ، وغير ذلك. فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ومنهم من إذا رأى المليح سقط من قامته ، ولم يعرف نعله من عمامته» – العاقبة عندكم يا شيخ محمد ! – ثم قال «فهذا وأمثاله عشقه اضطراري ، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس».

والذي أراه أن المحب مضطر غير مختار ، وما ذكرت هذه التفاصيل إلا ترويجًا للنفس. أما الشعر في سلطان الحب فكثير. فمن الشعراءِ من يجعله سحرًا كالطفرائي حين يقول:

إن لم يكن سحرًا هواك فإنه ... والسحر قدًا من أديم واحد
ما زلت أزهد في مودة راغب ... حتى ابتليت برغبة في زاهد
ولربما نال المراد مرفه ... لم يسع فيه وخاب سعي الجاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به ... حيل الطبيب وطال يأس العائد

ومنهم من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد كقول مهيار:

وعنفني سعد على فرط ما أرى ... فقلت أتعنيف ولم تك مسعدي
وما ذاك إلا أن عجلت بنظرة ... قتلت بها نفسي ولم أتعمد

ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كالقضاء المحتوم لا مرد له كقول المتنبي:

أيدري الربع أي دم أراقا ... وأي قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبدًا قلوب ... تلاقى في جسوم ما تلاقى
فليت هوى الأحبة كان عدلاً ... فحمل كل قلب ما أطاقا

ومنهم من يجعله قضاءً من الله. كقول عمرو بن ربيعة الرقاشي:

تضيق جفون العين عن عبراتها فتسفحها بعد التجلد والصبر
وغصة صدر أظهرتها فرفهت حزازة حرّ في الجوانح والصدر
ألا ليقل من شاءَ من شاءَ إنما يلام الفتى فيما استطاع من الأمر
قضى الله حب المالكية فاصطبر عليه فقد تجري الأمور على قدر

ويدخل في هذا الباب خلود الحب. فمن الشعراءِ من يجعل سببه خلود المحاسن في الحبيب ، كقول ابن الرومي:

هل الملالة إلا منقضى وطر من متعة يطبي من غيرها وطر
وفيك أحسن ما تسمو النفوس له فأين يرغب عنك السمع والبصر

وكما قال ابن عنين:

خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا
واسألوها في زورة من خيال إن تكن لم تجد من الهجر بدا
ظبية تخجل الغزالة وجهًا وبهاءً وتفضح الغصن قدا

وكما قال أبو الأسود الدؤلي:

أبي القلب إلا أم عمرو وحبها عجوزًا ومن يحبب عجوزًا يفند
كبرد اليماني قد تقادم عهده ورقعهته ما شئت في العين واليد

وهو رأي منتقد: فكل زهر إلى ذبول ، وكل جمر إلى خمود ، وكل حسن إلى فناء ، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفاني والجمال الزائل.

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه ، كقول صردر:

ولقد عرضت على السلو جوانحي الـ ـحرى فلم يرهن دار مقام
كيف السلو وليس يسلك مسمعي إلا حنين أو بكاء حمام

وكما قال ابن الزيات:

لم يزدني العذل إلا ولعا ضرني أكثر مما نفعا

ذهبت بالقلب عين نظرت ليتها كانت وإياه معا
كل يوم لي منها آفة تركتني للهوى متبعا

وكما قال ابن التعاويذي:

يلوم عليك خال من غرامي رويدك أين سمعي والملام
سلو مثل عطفك لا يرجى وصبر مثل وصلك لا يرام
فكيف أطيع عذالي وعندي هموم قد سهرت لها وناموا

وهذا أيضًا منتقد ، فإن أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب إذا نفدت دواعيه ! ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب تغلغل الوجد في الأحشاء. كما قال الأبيوردي:

أرى كل حب غير حبك زائلا وكل فؤاد غير قلبي ساليا
إذا استخبر الواشون عما أسره حمدت سلوى أو ذممت التصابيا
أيذهل قلب أنت سر ضميره فلا كان يومًا عنك يا علو ساليا

وكما قال الغزي:

يا خليلي لو ملكت فؤادي جاز أن يملك الصواب عناني
ظالمي من أراد إنصاف نفسي من هواها وآمري من نهاني
قد تورطت في تعسف شوقي حيث لا يعرف السلو مكاني

وكما قال الطغرائي:

خليلي هل من مسعد أو معالج فؤادًا به داء من الحب ناكس
وهل ترجو أن البرءَ مما أكنه فإني وبيت الله منه لآيس
هوى لا يديل القرب منه ولا النوى ولا هو من طول التقادم دارس
سرى حيث لا يدري الضمير مكانه ولا تتهتدي يومًا إليه الهواجس
إذا قلت هذا يوم أسلو تراجعت عقابيل من أسقامه ووساوس

وأرجو أن لا يغفل القاريْ عما في هذا الشعر من فنون الجمال.

هناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتاة للطبع ، ونزولاً عقد حكم الخليقة ، وهو أجمل المذاهب. ومنه قول التعاويذي:

من بات ذا قلب سـ ـلميم من جوى فأنا السليم[1]
مالي إذا رمت السلو تلوم القلب الملـيم[2]
وإذا كتمت الحب با ح بسره دمع نموم
عيني وقلبي في الهوى عون على فمن ألوم

وأظهر منه قول المتنبي:

إلام طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
وهبت السلو لمن لامني وبت من الشوق في شاغل

ولا أنكر أن من الشعراء من يرى غير ما ذهبت إليه في هذا الحديث.

ولكني أرى الحب الصادق حليف الخلود. وقد أوضحت هذه المسألة في كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» فليرجع إليه من شاء.

[1] السليم هو الملدوغ.

[2] المليم: الجاني.

غرام النساء بالنساء

سألني حضرة محمد شهيب عبد الناصر بديروط «عما قالته الغواني في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شئ من ذلك» بمناسبة ما حدث في برلين من غرام المزكلين بالمسز ريب ، وما جنت بداهما في سبيل هذا الحب الغريب !!

وآسف كثيرًا أيها الأديب لاستحالة الجواب بالتفصيل في صحيفة سيارة: فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل الوقار ! ويكفي أن ألفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب الأدب جاءت فيه هذه العبارة «هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال !» وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع !! وقد جاء في كلام رسول الله النهي عن «السحاق» كما جاءَ في القرآن النهي عن الزنا ! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول ! والمطلع على آداب الفرنسويين يجد في اعترافات النساء عجايب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين ! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الأعاجيب. والناس هم الناس في كل قطر وفي كل جيل ، فلا تصدق ما تسمع من أن الإسراف في المجانة بدعة ابتدعها نساء برلين ! وعندي أن آفة المصلحين في الشرق هي جهلهم بدقائق الحياة الإنسانية ، وإغفالهم الركن الأساسي للإصلاح ، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء ، وإقدام كثير منهم على الأمر بما لا يأتمر به والنهي عما لا ينتهي عنه ، ومن البلية أن يكون المصلحون منافقين !

ألم نصف الآداب الغربية بالإسراف في وصف النساء ؟ لقد جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ، ولكنها في رأيي من الحسنات ، إذ كان الواجب على كل مصلح أن يقوي ما بين الرجل والمرأة من الميول الطبيعية ، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة ، وحب الرجال للغلمان !

اقرءوا هذا وتأملوا قبل أن تصدعوا رءوسنا بالدعوة إلى الفضيلة من حيث لا تعلمون!

وبعد ذلك ألفت نظر قراء «مدامع العشاق» إلى أن شعر النساء في الحب قليل: فقد كان العرب يستنكرون أن تعشق المرأة ، وكان الرجل منهم يذوب خجلاً إذا قالت إحدى قريباته بيتًا واحدًا في غلام جميل ، وقد ثأر طويس المغني لنفسه عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته قارعة بنت ثابت في عبد الرحمن بن الحرث المخزومي:

يا خليلي نابني سهدي ... لم تنم عيني ولم تكد
فشرابي ما أسيغ وما ... أشتكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على رجل ... آنس تلتذه كبدي
مثل ضوء البدر طلعته ... ليس بالزميلة النكد
نظرت عيني فلا نظرت ... بعده عيني إلى أحد

وحديث علية بنت المهدي معروف ، فقد حرم عليها أخوها هارون الرشيد أن تشبب بغلامها طل ، فكان من نتيجة ذلك أن تشببت بجاريتها زينب وقالت فيها:

ود الفؤاد بزينبا ... وجدًا شديدًا متعبا

وهو شعر سخيف ، ولكنه يدل على أن عشق المرأة كان مما تسيغه النفوس في ذلك العهد. وليس معنى ذلك أننا ننكر أن زينب هنا كناية عن طل ، ولكن معناه أن تشبيب عليه بزينب كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح ، ولم نر في الكتب الأدبية من أنكر على علية هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على نساءِ الألمان ! وهناك أبيات لفضل الشاعرة قالتها في «قبيحة» جارية المتوكل !

سلافة كالقمر الباهر ... في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف كبدر الدجي ... فوق قضيب أهيف ناضر[1]

ولا مرية في أن العرب قتلوا عواطف المرأة ، وحرموها من التشبيب ، ولهم في ذلك عذر مقبول ، فإن الغيرة لم توجد ، ولن توجد ، في مثل النفوس العربية ، والعرب

[1] الخشف بتثليث الخاء ولد الظبي.

بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك ، أو شبه الشريك. ويأبون أن يسمعوا حديث المرأة عن هواها المشبوب بل يغارون من تحدث الرجل عن هواه ، حتى ليقول شاعرهم:

ألم ألق ذا شجن يبوح بحبه ... إلا حسبتك ذلك المحبوبا
حذرًات عليك وأنني بك واثق ... إن لا ينال سواي منك نصيبا

وإذا عز على المرأة أن تقول شعرًا في الرجل ، فإنه يعز عليها من باب أولى أن تقول شعرًا في اختها المرأة ، فضلاً عن بعد ذلك من الحاجة الطبيعية ، فإن «هذه الشهوة» تعتبر فضولاً في باب الشهوات !

والحق أننا حرمنا خيرًا كثيرًا حين حرمنا شعر النساء ، انظر إلى قول فضل في حبيب حرمها طيب الرقاد:

إن من يملك رقي ... مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العا ... لم هذا في حسابي

وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية:

كن لي شفيعًا اليكا ... إن خف ذاك عليكا
واعفني من سؤالي ... سواك ما في يديكا
يا من أعز وأهوى ... ما لي أهون لديكا

إننا نشتهي أن تتكلم المرأة ! إننا نحب أن نسمع حديثها العذب الجميل ! ولكنهم يزعمون أن كلام المرأة فسق ، وإن حديثها فجور ، فيا ليت شعري متى يفقهون !

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التي تودي برشده حين تحرمه اليقظة من الاستمتاع بالطيف ، كالذي يقول:

وزارني طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحًا ... وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تكذبني ... نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

ومنهم من يذكر العلة في طروق الطيف ، والسبب في زيارة الخيال ، كقول أبي تمام:

زار الخيال لها لا بل ازاركه ... فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم
ظبي تقنصته لما نصبت له ... في آخر الليل أشراكًا من الحُلمِ

وقوله من كلمة ثانية:

استزارته فكرتي في المنام ... فأتانا في خِفية واكتتام
يا لها ليلة تنزهت الأر ... واح فيها سرًا من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب ... غير أنا في دعوة الأحلامِ

وكقول عبد الصمد بن المعذل:

وصلَ النوم بيننا بعد هجر ... فاجتمعنا ونحن مفترقان
غير أن الأرواح خافت رقيبًا ... فطوت سرها عن الأبدان
منظرٌ كان لذة القلب إلا ... إنه منظر بغير عيان

فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتيار فكره ، ونصبه أشراكًا من الحلم. والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعذل هو النوم ، مع إبداعه في طي الأرواح سرها عن الأبدان ، خوفًا من الرقباء !

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف: وهي أن الحبيب سطع نوره وعم، حتى شمل النائمين ، وتجلى لأعينهم ، على بعدهم منه ، ونأيهم عنه. وله في هذه الفكرة البديعة هاته الأبيات الحسان:

يـــا حبـــذا طيفـــك مـــن قـــادم يـــا أحســـن العـــالم فـــي العـــالمِ
طيـــف تجلـــى نـــوره ســـاطعًا حتـــى رأتـــه مقلـــة النـــائم
يـــا غائبًـــا يحكـــم فـــي مهجتـــي علـــي طالـــت غيبـــة الحـــاكم
عـــار علـــى حســـنك أن يشـــتكي حظـــي منـــه إنـــه ظـــالمي

والبحتري على شهرته بالخيال ، لم يكن ممن يعنون بذكر السبب في قدومه ، والعلة في طروقه ، وإنما يجيد في وصف العطافه ، وانصرافه، كقوله:

سقى الغيث أجراعًا عهدت بجوها غـــزالا تراعيـــه الجـــآذو أغيـــدا
إذا مـا الكـرى اهـدى إلـى خيالـه شـفى قربـه التبـريح أو نقـع الصـدى
إذا انتزعتـــه مـــن يـــدي انتباهـــة عـــددت حبيبًـــا راح منـــي إو غـــدا
فلـــم أر مثلينـــا ولا مثـــل شـــأننا نعـــذب ايقاظًـــا ونـــنعم هجـــدا

ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله:

ألمـت بنـا بعـد الهـدوءِ فسـامحت بوصـل متـى نطلبـه فـي الجـد تمنـع
وولـدت كـأن البـين يخلـج شخصـها أو أن تولـت مـن حشـاي وأضـلعي

وهو غاية في الإبانة عن اللهفة ، والإفصاح عن الحسرة !

ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح ، كقول بشار:

ولقـــد تعـــرض لـــي خيـــالكم فـــي القُـــرط والخلخـــال واللـــب
فشـــربت غيـــر مباشـــر حرجًـــا برضـــاب اشـــنب بـــارد عـــذبِ

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى:

بتنـــا يناولنـــا المـــدام بكفـــه مـــن لـــيس يخطـــر أن نـــراه ببالـــه
تجنـي الكواكـب مـن قلائـد جيـده وتنـال عـين الشـمس مـن خلخالـه

وقد نص البحتري على ما ذكرناه من النعيم المباح بقوله:

وما نلتقي إلا على حُلم هاجد يحل لنا جدواك وهي حرام
إذا ما تبادلنا النفائس خلتنا من الجد إيقاظًا ونحن نيام

وآلم به في قوله:

بنفسي خيالاً من أثيلة كلما تأوهتُ من وجدي تعرض يُطمع
ترى مقلتي مالا ترى من لقائه وتسمع أذني رجع ما ليس تسمع

خيال البحتري

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب أن نذكر كيف اشتهر البحتري بالخيال حتى قالوا (خيال البحتري) وضربوا به الأمثال. وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع إلى ترديده لزيارة الطيف في غير ضعف ولا فضول: فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضن المحبوب ، والقرب وقد شطت ديار الحبائب ، حتى ليبعث الهوى من جديد ، كقوله:

وقفنا فلا الأطلال ردت إجابة ... ولا العذل أجدى في المشوق

تمادت عقابيل الهوى وتطاولت ... المخاطب

إذا قلت قضيت الصبابة ردها ... لجاجة معتوبٍ عليه وعاتب

يجود وقد ضن الألي شغفي بهم ... خيال ملم من حبيب مجانب

ويدنو وقد شطت ديار الحبائب

وتارة يذكر أن الطيف ألم به في الظلام فلم يجد مكانًا يأوى إليه ، لأن الكرى طردته الدموع ، كقوله:

تلك البخيلة ما وصلي بمنصرف ... عنها ولا صدها عني بمصدود

ألم بي طيفها وهنًا فأعوزه ... عندي وجود كرىً بالدموع مطرود

وأحب لو تأمل القاريء وصفه لحبيبته بالبخل ، وعفا الله عن هؤلاء البخلاء.

ومما امتاز به البحتري شكواه هجر الخيال. وقد أكثر من ذلك حين حرم من غلامه نسيم ، ولغلامه هذا قصة عجيبة: فقد ذكروا أنه كان يبيعه ، ثم تطير نفسه إليه فيشتريه ، حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال ! وقد أوضح شكواه هجر الخيال في هذه الأبيات الحسان:

أنسيم هل للدهر وعد صادق ... فيما يؤلمه المحب الوامق

ما لي فقدتك في المنام ولم يزل عون المشوق إذا جفاه الشائق
أمنعت أنت من الزيارة رقبة منهم فهل منع الخيال الطارق
اليوم جاز بي الهوى مقداره في أهله وعلمت أني عاشق

ثم ردد هذا المعنى فلي داليته الجميلة ، التي يقول فيها:

دعا عبرتي تجري على الجوار والقصد أظن نسيما قارف الهجر من بعدي
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه فيا عجبًا للدهر فقدًا على فقد
بنفسي حبيب نقلوه عن اسمه فبات غريبًا في رجاء وفي سعد
فيا حائلا عن ذلك الاسم لا تحل وإن جهد الأعداء عن ذلك العهد
أبا الفضل في تسع وتسعين نعجة غنى لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقد أخذ الجوى مآخذه مما أسر وما أبدى
وتخطو إليه صوتي وصبابتي ولم يخطبه بثى ولم يعده وجدي

ونحنب أن لا يتعقنا حضرة (البدوي الملثم) فيطالبنا بتحقيق بيع البحتري لغلامه نسيم ، ليعرف أكان ذلك عن حاجة أم كان طمعًا في المال ، فقد تردد في ذلك المؤرخون ! أليس هو الذي لمح إلينا حين ذكرنا أن علية بنت المهدي كنت عن طل بزينب ، ولفت نظرنا إلى أنها إنما كنت بزينب عن رشأ ؟ رويدك أيها الصديق ، فليس في هذه المجاهل يقين ، وحسبك أن تعلم أن ذلك سر من أسرار القصور ، وناهيك بقصر الرشيد !

وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث «شربوا نخب مصر ! وشربوا نخب فرنسا» كان له عند العرب بديل جميل ، انظر قول علية في غلامها رشأ:

أشرب على وجه الغزال الاهيفِ الحلو الدلال
أشرب عليه وقل له يا غل ألباب الرجال

وانظر قول اسحق في غلامه زياد:

ادِرها على بعد الحبيب فربما شربنا على بُعد الأحبة والفجع
فما بلغتني الكأس إلا شربتها وألا سقيت الأرض كأسًا من الدمع

وقال ابن الفارض:

شـربنا علـى ذكـر الحبيـب مدامـة سـكرنا بهـا مـن قبـل أن يخلـق الكـرم

فاي التعبيرين أجمل ؟ أقول العرب: شربت على وجهه ، وعلى بعده ، وعلى ذكره ؟ أم قولنا شربت نخبه ؟ أجيبوا أيها المتكلفون !

ونعود فنذكر تشبث البحتري بالطيف عند الصباح في قوله:

وليلـة هـو منـا على العيس أرسلت بطيـف خيـال يشـبه الحـق باطلـه

فلـولا بيـاض الصـبح طـال تشـبثي بعطفـي غـزال بـت وهنًـا أغازلـه

وكـم من يـدل لليـل عنـدي حميـدةٍ وللصـبح مـن خطـب تُـذم غوائلـه

أتذكر أيها القاريء أن لسانك انعقد ، وقد رأيت دمية من دمي الجمال ، فلم تزد علي إن قلت: هـذه فتاة حسناء ؟ الأمر هنـا كـذلك ، فاعـذرني إن لـم أزد على أن أقول: هذا شعر جميل !

ويظرف البحتري كثيرًا حين يجعل هجر الطيف نوعًا من العتاب. انظر قوله:

تنـاءت دار علـوة بعـد قـربٍ فهـل ركـبٌ يبلغهـا السـلاما

وجـدد طيفهـا عتبًـا علينـا فمـا يعتادنـا إلا لِمامـا

وربـت ليلـةٍ قـد بـت أسـقي بعينيهـا وكفيهـا المـداما

قطعنـا الليـل لثمـا واعتناقًـا وأفنينـاه ضـما والتزامـا

وقد تعجب لتشبيه الزائر النحيل بالطيف الطروق: انظر قوله:

وزورٍ أنـاني طارقًـا فحسـبته خيـالاً أتـى مـن آخـر الليـل يطـرق

أقسـم فيـه الظـن طـورًا مكـذبًا بـه أنـه حـق وطـورًا أصـدق

أخـاف وأرجـو بطـل ظنـي وصـدقه فللـه ظنـي حـين أرجـو وأفـرق

وقـد ضـمنا وشـك التلاقـي ولفنـا عنـاقُ علـى أعناقنـا ثـم ضـيق

فلـم نـر إلا مخبـرًا عـن صـبابةٍ بشـكوى وإلا عبـرة تترقـرق

فأحسـن بنـا والـدمع بالـدمع واشـج تمازجُـه والخـد بالخـد ملصـق

ومـن قبـل قبـل التشـاكي وبعـده نكـاد بهـا مـن شـدة الوجـد نشـرق
فلـو فهـم النـاس التلاقـي وحسـنه لحبيـب مـن أجـل التلاقـي التفـرق

وقد يأسى البحتري ويشجعي حين لا تبقي له الليالي غير الذكرى والخيال ، تأمل لقوله:

حبيـب نـأى ألا تعـرض ذِكـرةٍ لـه أو علـم طـائف مـن خيالـه
أمنـع فـي هجرانـه مـن صـبابة وقـد كنـت صـبًا مغرمًـا فـي وصـاله
ويـأمرني بالصـبر مـن لـيس وجـده كوجـدي ولا اعـلان حـالي كحالـه
فإن افقد العيش الذي فات باللوى فقـدمًا فقـدت الظـل عنـد انتقالـه

ولقد اذكر أني قرأت منذ سنين رواية (رافاييل) وهي بدعة في الآداب الفرنسوية. فأقسمت لأزورن إن استطعت قبر (لامارتين) واليوم أقسم إن استطعت لأزورن قبر البحتري !

أليس هو القائل في طيف الخيال:

أتـرى حبـي لسـعدي قـاتلي وإذا مـا أفـرط الحـب قتـل
خطـرت فـي النـوم منهـا خطـرةٌ خطـرة البـدر بـداثم اضـمحل
أي زور لـك لـو قصـدًا سـرى وملـم منـك لـو حقًـا فعـل
يتـراءى والكـرى فـي مقلتـي فـإذا فارقهـا النـوم بطـل

ولتقي الدين السروجي قصيدة بديعة ختمها ببيتين في الخيال ، وقد زاره فما حققه لفرط سروره به ، ثم ولى عنه فما درى كيف يدركه ، ولا عرف كيف يلحقه. قال:

أنعـم بوصـلك لـي فهـذا وقتـه يكفـي مـن الهجـران مـا قـد ذقتـه
أنفقـت عمـري فـي هـواك وليتنـي أعطـي وصـولاً بالـذي أنفقتـه
يـا مـن شُـغلتُ بحبـه مـن غيـره وسـلوت كـل النـاس حـين عشـقته
كـم جـال فـي ميـدان حبـك فـارس بالصـدق فيـك إلـى رضـاك سـبقته
أنـت الـذي جمـع المحاسـن وجهـه لكـن عليـه تصـبري فرقتـه
قـال الوشـاة قـد ادعـى بـك نسـبة فسـررت لمـا قلـت قـد صـدقته

بـالله إن سـألوك عنـي قـل لهـم عبـدي وملـك يـدي ومـا اعتقتـه
أو قيـل مشـتاقٌ إليـك فقـل لهـم أدري بـذا وأنـا الـذي شـوقته
يـا حسـن طيـف مـن خيالـك زارني مـن فرحتـي بلقـاك مـا حققتـهُ
فمضـى وفـي قلبـي عليـه حسـرةٌ لـو كـان يمكننـي الرقـاد لحقتـه

والشعراء يشكون غالبًا ألا يمكث الطيف طويلاً. وقد شذ الطغرائي فذكر أن محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده ، وطول مكثه لديه. وذلك قوله:

بعثـت إلـي تلـومني فـي هجعـةٍ اهـدت إلـى خيالهـا المـذعورا
وتقـول مـا للطيـف أبطـأ بعـدما كنـا اشـترطنا لائـم معـذورا
فأجبتهـا بالعـذر وهـو مبـين لـو كـان يُنصـف لائـم معـذورا
أطبقـت أجفـاني عليـه وسـمته خـوض الـدموع فمـا اسـتطاع عبـورا

وهذا الخيال على طرافته منتقد. فإن الطيف لا يدخل العين ، حتى يضطر إلى عبور الدمع ، وهدى الله قومًا يحسبون هذا الشعر من وثبات الخيال !

قالوا: وأول من طرد الطيف طرفة ابن العبد في قوله:

فقـل لخيـال العامريـة ينقلـب إليهـا فـإني واصـل حبـل مـن وصـل

وتبعه جرير فقال:

طرفتـك صـائدة القلـوب وليـس ذا وقـت الزيـارة فـارجعي بسـلام

وهذا حرس ةخمين ، فإنه ليس إلى توقيت النوازع القلبية من سبيل.

ومن طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هانيء الأندلسي:

ألا طرقتنـا والنجـوم ركـود وفـي الحـي أيقـاظٌ ونحـن هُجـود
وقد أعجل الفجر الملمع خطوها وفـي أخريـات الليـل منـه عمـود
سرت عاطلاً غضبي من الدر وحده فلـم يـدر نحـر مـا دهـاه وجيـد
فما برحت ألا ومن سلك ادمعي فلائـد فـي لباتهـا وعقـود
ألـم يأتهـا أنـا كبرتـا عـن الصـبا وأنـا بلينـا والزمـان جديـد

ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله لزيارة الخيال.

انظر قول علي الأيادي:

أمـا أنـه لـولا الخيـال المراجـع وعـاصٍ يُـرى فـي النـوم وهـو مطـاوِع

لأشـفق واسـتحيا مـن النـوم والـه يُـرى بعـد روعـات النـوى وهـو هـاجع

وأود لو تأمل القاريء قوله (وعاص يرى في النوم وهو مطاوِع) فطالما قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون !

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله:

وإنـي لأستغشـي ومـا بـي نعسـة لعـل خيـالاً منـك يلقـي خياليـا

وأخـرج مـن بـين الجلـوس لعلنـي أحـدث عنـك النـفس فـي السـر خاليًـا

تُقطـع أنفاسـي بـذكرك أنفسًـا يـردن فمـا يـرجعن إلـى صـواديا

وأوضح منه قول قيس بن ذريح:

وأني لأهوى النوم في غير نسعةٍ لعـل لقـاءً فـي المنـام يكـونُ

تخبرنـي الأحـلام أنـي أراكـم فيـا ليـت أحـلام النيـام يقـين

والظاهر أن نعمة الطيف لا تسوى بين العشاق جميعًا. فهي عند بعضهم لوعة وغليل ! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضي بها الضرورة حين يقول:

ومـاذا يفيـدك الخيـال والهجـر حظـك ممـن تحـب

غنـاءٌ قليـل ولكننـي تمنيتـه بقنـوع المحـب

ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال ، كأن يزوره الطيف وهو سجين ، كقول جعفر بن عُلبة:

عجبـت لمسـراها وأنـى تخلصـت غلـى وبـاب السـجن دونـي مغلـق

ألمـت فحيـت ثـم قامـت فودعـت فلمـا تولـت كـادت الـنفس تزهـق

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم لشيءٍ ولا أني من الموت أفرق
ولا أن نفسي يزدهيها وعيدهم ولا أنني بالمشي في القيد أخرق
ولكن عرتني من هواك صبابة كما كنت ألقي منك إذ أنا مطلق

وقد ترفق زياد بن حمل فعجب كيف زاره طيف حبيبته مع أنها ضعيفة المشي مكسال. وذلك قوله من قصيدة طويلة:

زارت رويقة شعثًا بعدما هجعوا لدي نواحل فقي أرساغها الخدم
وقمت للزور مرتاعًا فأرقني فقلت أهي سرت أم عادني حلم
وكان عهدي بها والمشي يبهظها من القريب ومنها النوم والسأم
وبالتكاليف تأتي بيت جارتها تمشي الهوينا وما تبدو لها قدم
سود ذوائبها ببعض ترائبها دُرم مرافقها في خلقها عمم
رويق إني وما حج الحجيج لهُ وما أهل يجنبي نخلة الحرم
لم ينسني ذكركم مُذ لم ألاقكم عيش سلوت به عنكم ولا قدم
ولم تشاركك عندي بعد غانية لا والذي أصبحت عندي له ذمم

ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعد الشقة كقول ابن عنين.

سامحت كتبك في القطيعة عالمًا إن الصحيفة أعوزت من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل

وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف:

لقد بخلت حتى بطيف خيالها علي وقالت رحمة لنحيبي
أخاف على طيفي إذا جاء طارقًا وسادك أن يلقاه طيف رقيبي

طرف أدبية

وقد يكون من المستملح أن نذكر جملة من الطرف تتناسب مع طيف الخيال. فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء إلى الحسن بن سهل:

رأيت في النوم إني راكب فرسًا ... ولي وصيف وفي كفي دنانير
فقال قوم لهم فهم ومعرفة ... رأيت خيرًا وللأحلام تعبير
رؤياك فسر غدًا عند الأمير نجد ... في الحلم دارًا وفي النوم التباشير

فوقع في أسفل الكتاب «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» !! ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده:

أغفيت عند الصبح نوم مسهدٍ ... في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك رعتني بوليدة ... رعبوبة حسن علي قيامها
وببدرةٍ حُملت إلي وبغلةٍ ... دهماء مشرقة يصل لجامها
فدعوت ربي أن يثيبك جنة ... عوضًا يصيبك بردُها وسلامها

فقال له: أبشر في كل شيء إلا البغلة فإني لا أملك إلا شهباء ! فقال: امرأتي طالب إن كنت رأيتها إلا شهباء غير أني غلطت !

ونقل عن أبي العبر أنه كان عنده حمار فمات فرآه في النوم ينشد شعرًا يقول فيه أنه مات عاشقًا ، فسأله المتوكل ما الذي كان من شأنه ؟ فقال: كان يا أمير المؤمنين أعقل من القضاة ، ليس له هفوة ولا زلة ! فاعتل على حين غفلة ، فمات ، فرأيته في النوم فقلت له. ألم أنق لك الشعير وأبرد لك الماء ، فما سبب موتك ؟ فقال أتذكر إذ وقفلت على باب الصيداني ؟ قلت نعم ، قال مرت إذ ذاك أتان فافتتنت بها ومت ؟ فقلت وهل قلت شيئًا في ذلك ؟ فقال نعم وأنشد:

هام قلبي بأتان ... عند باب الصيدلاني
تيمتني يوم رُحنا ... بثناياها الحسان

وبخـــــــــــــــــدٍ ذي دلال مثـــــــل خـــــــد الشـــــــيقران
فبهـــــا مـــــت ولـــــو عشـــــ ـــــــت إذًا طـــــال هـــــواني

فقال له يا أبا معاذ. وما الشيقران ؟ فقال أنا مشغول بما أنا فيه ! وهذا كلام تعرفه الحمير ! فإذا رأيتم حمارًا ، أو من كان أولاً حمارًا ، فاسألوه ! فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، جزاء بما أبدع في هذا الخيال.

اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء ، وليس فيهم من لم يرزأ باليأس والقنوط.

وقد تأملت ما قال الشعراء في اليأس ، فرأيت منهم من يترك لأجله العتاب كقول ابن الأحنف:

سكوتي بلاء لا أطيق احتماله ... وقلبي ألوف للهوى غيرُ نازعِ
وأقسم ما تركي عتابك عن قلي ... ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني إذا لم ألزم الصبر طائعًا ... فلابد منه مكرهًا غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعة ... فلا خير في ودٍ يكون بشافع

وقد عزى نفسه ابن الأحنف حين يئس بقوله:

لعمري لقد جلبت نظرتي ... إليك علي بلاءً طويلا
فيا ويح من كلفت نفسهُ ... بمن لا يطيق إليه السبيلا
هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولا

وإني لأتمنى أن يرحمني الله من عذابي ، بترديد هذا البيت الجميل:

فيا ويح من كلفت نفسه ... بمن لا يطيق إليه السبيلا

ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع. كما قال صردر:

لا أمدح اليأس ولكنه ... أروح للنفس من المطمع
ياليت إني قبل وقد الهوى ... أذنت للعذلِ على مسمعي
أين بدور من بني درامٍ ... تبخل أن تسفر في مطلعِ
لا في سرار الشهر تبدولنا ... ولا ليالي العشر والأربع
أودعتم قلبي وما خلتهم ... يستحسنون الغدر بالمودع

لـــو زارنـــي طـــيفهم مـــا درى مـــن الضـــنى أنـــي فـــي مضـــجعي

ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه ، بيأسه وقنوطه. ولم أجد في هذا المعنى أبدع من قول الطغرائي:

من مبلغ الحي شطت دراهم ورضوا بالجار جارًا وما أرضى بهم عوضا
قد طاب عنكم فؤاد طاب قبلكم عن الرضاع تقضي والشباب مضي
إن الزمان الذي كانت بشاشته للقلب والعين ملهي بان فانقرضا
فإن نسيت فيأس لم يدع طمعًا وإن ذكرت فعرق ساكن نبضا
حكمت في مهجتي من ليس ينصفني ولست أبلغ من تحكيمهِ غرضا
سيان عندي وأمري صار في يده قضى علي بجورٍ أم إلي قضى

وليس بعد اليأس إلى الرجاء ، وإن عجب لذلك بعض الناس. فمن المحبين من يلهج بالأمل ترويحًا لنفسه ، وترفيهًا لقلبه ، كالذي يقول:

أعللُ بالمنى قلبي لعلي أروح بالأماني الهم عني
واعلم أن وصلك لا يرجى ولكن لا أقل من التمني

ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعد الحزين كما قال ياقوت:

لله أيام تقضت بكم ما كان أحلاها وأهناها
مرت فلم يبق لنا بعدها شيء سوى أن نتمناها

ويكاد الأمل يصرخ في قول مسلم بن الوليد:

دهرًا تولى هل نعيمك مقبل وهل راجع من عيشنا ما نؤمل
أدهرًا تولى هل لنا منك دعوة لعلك يُعدى آخرًا منك أول

واوجع الشعر في هذا المعنى قول ابن زريق:

لأصبرن لدهر لا يمتعني به ولا بي في حال يمتعه
علمًا بأن اصطباري معقب فرجًا فأضيق الأمر لو فكرت أوسعه
علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يومًا وتجمعه

ولو سئلت عن رأيي في اليأس والرجاء ، لقدمت لسائلي هذه الدعوة المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة «يا ربي ! إنني ما جحدت نعمتك يوم رزقتني بهم ، ولا جهلت حكمتك يوم اقصيتهم عني ، وهأنذا انتظر فضلك وطولك ، في ردهم إليّ ، وعطفهم عليّ. فلولا الثقة برحمتك ، والإيمان بإحسانك ، لذهبت النفس عليهم حسرات. وقطع القلب في آثارهم قطعًا».

العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل ، بادي الخضوع ، نزولاً عند حكم الهوى ، وإيمانًا بعودة الحبيب ، كقول القائل:

يـا غايـة القصـد وأقصـى المنـى وخيـــر مرعـــى مقلـــة النـــاظر
إن كـان لـي ذنـب ولا ذنـب لـي فمـــا لـــه غيـــرك مـــن غـــافرِ
أعـــوذ بـــالود الـــذي بيننـــا إن يفســـــد الأول بـــــالآخر

وحسبك من موجب العطف ، ودواعي الرحمة ، أن يتوسل المحب بسالف حبه ، وماضي عهده ، وأن يجعل الأمر في غفر ذنبه لحبيبه.

وقال ابن التعاويذي:

يا ابنة القوم كيف ضاعت عهودي بيـنكم والوفـاء فـي العـرب ديـن
كيف أسلمت فيك قلبي إلى الأشـ ـــجان لـــولا أن الغـــرام جنـــون
أترينـي علـى النـوى مضـمرًا عنـ ـــك ســـلوًا أنـــي إذن لخئـــون
أنا من قد علمت عهدي على النأ ي وثيـــق وحبـــل ودي متـــين

ولا يكون العتاب بابًا للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة ، كقول ابن زيدون:

يـــا قمـــرًا اطلعـــه المغـــرب قـــد ضـــاق فـــي حبـــك المـــذهب
ألزمتنـــي الـــذنب الـــذي جئتـــه إلـــي فاصـــفح أيهـــا المـــذنب

وكقول الآخر:

إذا مرضـــتم أتينـــاكم نعـــودكم وتـــــذنبون فنـــــأتيكم فنعتـــــذر

فأما قول البحتري:

قـد كـان منـي الوجـد غِـب تـذكرٍ إذ كـــان منـــك الصـــدغب تناســـي
تجري دموعي حيث دمعك جامد ويـــرق قلبـــي حيـــث قلبـــك قاســـي

فهو بالتأنيب أشبه منه بالعتاب ، وخير منه قول البحتري نفسه في كلمة ثانية:

إنـــي وإن لـــم أبـــح بوجـــدي أُسِـــرُّ فيـــك الـــذي أســـرُّ
يـــا ظالمًـــا لـــي بغيـــر جـــرم إليـــك مـــن ظلمـــك المفـــر
أنـــت نعيمـــي وأنـــت بؤســـي وقـــد يســـوء الـــذي يســـرُّ

وقوله من كلمة أخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعًا:

أيـــا قمـــر التمـــام أعنـــت ظلمًـــا علـــي تطـــاول الليـــل التمـــام
أمـــا وفتـــور لحظـــك يـــوم أبقـــى تقلبـــهُ فتـــورًا فـــي عظـــامي
لقـــد كلفتنـــي كلفًـــا أعنـــي بـــه وشـــغلتني عمـــا أمـــامي
أعيـــذك أن يُـــراق دم حـــرامٌ بـــذاك الـــذل فـــي شـــهر حـــرام

ويعجز القلم عن وصف ما لهذا الشعر من روعة الجمال ، وأتمنى لو تأمل القاريء قليلاً هذا البيت الجميل:

يـــا ظالمًـــا لـــي بغيـــر جـــرم إليـــك مـــن ظلمـــك المفـــرُّ

فإنه خير من قول ابن زيدون:

ألزمتنـــي الـــذنب الـــذي جئتـــه إلـــي فاصـــفح أيهـــا المـــذنب

وهل رأي القاريء ، أروح للنفس ، وأمتع للقلب ، من هذا القسم:

أمـــا وفتـــور لحظـــك يـــوم أبقـــى تقلبـــه فتـــورًا فـــي عظـــامي

وهل رأى حيرة للحب أشقى من حيرة الذي يقول:

لقـــد كلفتنـــي كلفًـــا أعنـــي بـــه وشـــغلتني عمـــا أمـــامي

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية ، يعلمون ما نعلم من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا أنهم يجنون على أنفسهم ، وعلى قرائهم إذ يحرمونهم من التطلع إلى جنة الأدب ، وقطفوها الدانية ! ولو عرضت على كتاب العامية هذا البيت:

إنـــي وإن لـــم أبـــح بوجـــدي أســـر فيـــك الـــذي أســـرُّ

ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبوك من المسرفين ، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى إلى اللغة المبتذلة المهلهلة عجزًا عن الكتابة باللغة التي رحبت بثمرات العقول في جميع الأمم الإسلامية ، وكانت لغة العالم زمنًا غير قليل.

ولا يحسب واحد من هؤلاء أن الحسن في الأدب لا حد له ولا تعريف ، بل هناك حقائق أدبية يرتكز عليها الجمال. في الشعر البديع والنثر الجميل ، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه أن العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول في كثير من المواطن إيذانًا بالتفخيم والتهويل ، كلفظة «ما» في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) للدلالة على أن ما عانوه من طغيان الماء يفوق الوصف ، ويعجز عنه التمثيل ، ومنها قول البحتري:

برح بي حبك المعني وغرني منك ما يغر

إذا كانت دواعي الحب ، وأسباب العشق ، مما يقصر عن إدراكه المحب المفتون ن والعاشق المأسور !

ومن ذلك لفظة «الذي» في هذا البيت المختار:

إني وإن لم أبح بوجدي أسر فيك الذي أسر

إيذانًا بأن ما يجنه من اللوعة ، وما يكنه من الشوق ، أجل من أن يحيط به الوصف ، أو يناله البيان !

ومن العشاق من يضيف إلى ذلة العتاب ، ذلة الإقرار بالذنب كقول الشريف:

أيا شاكيًا مني بذنب جنيته فديتك من شاكٍ إليّ حبيبِ
لئن راب مني ما يريب فإنني على عدواء الداء غير مريب
وإني لأرعى منك والود بيننا هوى قلما يرعى بظهر مغيب
فهب لي ذنبًا واحدًا كنت قلته فما زلة من حازم بعجيب
فيا حسن حال الود ما دمت مذنبا أتوب وما دامت تعد ذنوبي

والبيت الأخير يذكرنا بقول بشار:

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعدّ معايبه

ومن بديع الشعر في وصف العتاب ، وما فيه من ذلة العاشق ، وعزة المعشوق قول الشريف:

ومقبل كفي وددت لو أنه أو ما إلى شفتي بالتقبيل
جاذبته طرف العتاب وبيننا كبر الملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عُقد الجمال بقرُطقٍ محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول
من لي بد والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل

وقوله:

ومقبل كفي وددت لو أنه أو ما إلى شفتي بالتقبيل

يذكرنا بقول الصاحب بن عباد:

أهوى لتقبيل يدي فقلت. بل شفتي !

وحيرة أمثال الشريف الرضي والصاحب بن عباد في أمثال هذه المواقف حيرة رهيبة، فكلا الرجلين عالم جليل ، ولكن الحب كالموت لا يعصم منه البرج المشيد ، والحصن المنيع ، وقد يتقرب بعض الناس إلى مثل الشريف الرضي بتقبيل يمناه ، فيود هذا لو قبل شفتيه ، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالمظمة ، وقضى عليه بتقديس الجمال ! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانه: حين يذهب بوقار العلم ، وجلال الجاه ، وغرور المال ، ثم يسوي بين الأقدار ، ريثما ينسى العالم علمه ، والوجيه جاهه ، والغني ماله، حتى إذا أنِست تلك النفوس العاتيه إلى هذه المساواة ، عاد فميز أهل الحسن ، ورفع أرباب الجمال ، وصير المحبين أذلة ، بالرغم من أنف العلم والجاه والمال ! ويقول العرب: الهوى إله معبود ، وأنهم لصادقون. غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الإله ليس برحمن ولا رحيم ، ولكنه قهار جبار ! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث ما يستحقه من البيان ، ولبينت للقاريء

لأي الفلاسفة في مملكة الجمال ، ولكن الدين في كثير من القلوب كالكرى في عين الخائف المذعور: يودي به مر الطيف وهبوب النسيم ! والذين يختلفون في النظرة البريئة أحرام هي حلال ، لا يعقلون كيف يكوي الهوى إلهًا ، وكيف يكون له ملائكة مقربون ، من الشعور والعيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور والصدور ، وهم أن عقلوا هذه الألوهية فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتاب الحب أنبياء مرسلون ، بل كل محب عندهم ماجن خليع ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

ونعود فنبين أن الشريف أجاد تصوير العتاب بقوله:

جاذبته طرف العتاب وبيننا كِبر الملول وذلة المملول

والمراد بكبر الملول عزة المعشوق ، الذي تحدثه عن هجره وصده ، فكأنما تُسمعه هجر القول ولغو الحديث ، فيتبرم ويتململ ، ويود لو أرحته من حديث الحب: إذ كان الحسن يسد إذن الجميل ، فلا يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب ، وما أبدع الغزل في قوله:

جذلان ينفض من فروج قميصه اعطاف غصن البانه المطلول

ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم يذكر الشريف الرضي إلا ذكر له هذا البيت ، وله فيه تأويل عجيب ! ولعل ابرع ما قيل في التطلع إلى الاستمتاع بالجمال ، قوله في هذا البيت المختار:

من لي به والدار غير بعيدةٍ من داره والمال غير قليل

ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف الرضي على جاهه كان يشكو بعد الدار ، وقلة المال:

فدع ذكر سُعدى إن فيك تقيةً ألا إنما يبغي ألمها من يصيدها

وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس ، وعذل للقلب ، على الكلف بحبيب ليس للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض الأعراب:

أحبًا على حبٍ وأنت بخيلةٌ وقد زعموا أن لا يُحب بخيل
بلى والذي حج الملبون بيته ويشفي الهوى بالنيل وهو قليل
وإن بنا لو تعلمين لغلة إليكِ كما بالحاثمات غليل

وقد يعكس هذا المعنى ، فيحب العاشق ظلم معشوقة ، ويحب من أجل ذلك أعداءه الظالمين ، كقول أبي الشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس متأخر عنه ولا متقدم
لي حبًا لذكرك ليلمني اللوم
أجد الملامة في هواك لذيذة إذ كان حظي منك حظي منهم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ما من يهون عليك ممن أُكرم
واهنتني فأهنت نفسي صاغرًا

ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر ما لقي في سبيل الحب من البلايا ، كقول ابن الدمينة:

وأنت التي كلفتني دلج السرى وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التي قطعت قلبي حزازة وفرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التي أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضا داني الصدود كظيم

وقد أجابته محبوبته أمامة فذكرت ما لقيت في سبيل حبه من سفاهة الوشاة ، وشماتة اللائمين ، حين تقول:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني واشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضًا أرمى وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد ابدا بجسمي من قول الوشاة كلوم

وقد ضعف ابن الدمينة عن مجاراتها في قسوة العتاب ، فبعث إليها الأبيات الآتية ، يسألها الصفح والغفران:

وإذا عتبتِ علي بت كأنني بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد أردت الصبر عنك فعاقني عَلقٌ بقلبي من هواك قديمُ
يبقى على حدث الزمان وريبه وعلى جفائك إنه لكريم

ومن المحبين من تعجزه الحيلة ، فيذكر أحبابه بأن الحياة قصيرة ، لا تتسع للصد ، ولا تحتمل الهجر ، كقول الطغرائي:

ويا رفقة مرت بجزعاء مالك تؤم الحمى أنضاؤها المطايا
نشدتكم بالله ألا نشدتم بها شعبة أضللتها من فؤاديا
وقلتم لحي نازلين بقربها أقاموا بها واستبدلوا بجواريا
رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالي إن في الدهر كافيا

وأصل هذا المعنى لا يأس بن القائف إذ يقول:

إذا زرت أرضًا بعد طول اجتنابها فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتا معًا كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقد كان سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله في النهي عن العتاب:

أقلل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل تارة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألمت مدة ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الأخاء جماعة إن حصلوا أفناهم التصحيل
فلئن سبقتُ لتبكين بحسرةٍ وليكثرن علي منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامقٍ حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين من لا يشاكله لدي خليل
وليذهبن بهاء كل مروءةٍ وليفقدن جمالها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا باقٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثر عتبنا ويطول

على أن الرفق الذي ألم بالطغرائي فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف الليالي ، لم يمنعه من أن يصرخ شاكيًا في نفس القصيدة. فيرمي أحبابه بالخيانة والنسيان ، وذلك قوله:

أفي الحق أني قد قضيت ديونكم وإن ديـــوني باقيـــات كمـــا هيـــا
فلـوا أسـفي ، حتـام أرعـى مضـيعًا وآمـــن خوانًـــا وأذكـــر ناســـيا
ومـازال أحبـابي يسـيئون عشـرتي ويحفـوننني حتـى عـذرت الأعاديـا

والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام:

أحبابَـــه لِـــمَ تفعلـــون بقلبـــه مـــا لـــيس يفعلـــه بـــه أعـــداؤه

وقد بسط الأرجاني هذا المعنى فقال:

أأحبابنـا كـم تجرحـون بهجـركم فـؤادًا يبيـت الليـل بـالهم مكمـدا
إذا رمـتم قتلـي وأنـتم أحبـةٌ فمـا الـذي أخشـى إذا كنـتم عـدا
سأضـمر في الأحشاء منكم تحرقًا وأظهـر للواشـين عـنكم تجلـدا
وأمنـع عينـي اليـوم إن تكثـر البكـا لتسـلم لـي حتـى أراكـم بهـا غـدا

ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير أحبابهم بقصر الحياة أبو صخر الهذلي في هذه الأبيات الموجعة:

بيـد الـذي شـغف الفـؤاد بكـم تفرجـي مـا ألقـى مـن الهـم
قـد كـان صـرم فـي الممـات لنـا فجعلـت قبـل المـوت بالصـرم
ولمـا بقيـت ليبقـين جـوى بـين الجـوانح مضـرع جسـمي
فتعلمـي أن قـد كلفـت بكـم ثـم افعلـي مـا شـئت عـن عِلـم

وما ذكرت هذه المعاني المحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذي لا أراه إلا زفرة تتصعد ، أو عبرة تتدفق:

وأرى الأيـام لا تـدني الـذي أرتجـي منـك وتـدني أجلـي !!

ومن الشعر الممتع في وصف الحيرة ، يرمي بها المحب العميد ، قول الشريف يعاتب حبيبًا أغراه بالحب ، ثم أصلاه الصدود:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ... ألم الجوى من قلبي المصدوع
أأسأت بالمشتاق حين ملكته ... وجزيت فرط نزاعه بنزوع
هيهات لا تتكلفن لي الهوى ... فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحبائل طامعًا ... فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب غلتي ... أسفًا على ذاك اللمي الممنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى ... قيظٍ وهذا في رياض ربيع
كم ليلةٍ جرعته في طولها ... غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجي ما بيننا ... حتى أضاء بثغره ودموعي
تفلي أناملـه التراب تعللاً ... وأناملي في سني المقروع
قمر إذا استخجلته بعتابه ... لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السرار وقفتما ... لعجبتما من عزه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره ... شر الهوى ما نلته بشفيع
أهون عليك إذا امتلات من الكرى ... أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله ... لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وقد ارتبت في بيتين وردا في خلال هذه القصيدة ، وبينهما وبين موضوعها بون شاسع ، وهما قوله:

ما كان إلا قبلة التسليم أر ... دفها الفراق بضمة التوديع
كمدي قديم في هواك وإنما ... تاريخ وصلك كان مذ اسبوع

فإن هذا الوصل الحديث خليق بمحو ذلك العتب القديم ، والتنافر بين هذين البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على الأقل من مقابلتهما بهذا البيت الجميل:

أهون عليك إذا امتلأت من الكرى ... إني أبيت بليلة الملسوع

فإنه يدل على أن الحبيب غير بعيد ، وأنه في قربه نافر شرود ، مما يذكرنا بقوله من كلمة ثانية:

أبيت والليل مثبوت حبائله والوجد يقنص مني كل مجلود
شوقًا إليك وإشفاقًا عليك ولي دمعان ما بين محلول ومعقود
ليس الغريب الذي تنأى الديار به أن القريب قريب غير مودود

وإما أردنا هذه الملاحظة ليتنبه القاريء إلى أن في الدواوين أشياء كثيرة نسبت زورًا إلى الشعراء ، وربما عدنا إلى تحقيق ذلك في مبحث خاص. والأدباء يعجبون بعينية الشريف هذه في العتاب ، وقل منهم من لا يحفظ هذا البيت المختار:

لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي

والعز والخضوع في هذا البيت يذكرنا بالعز والذل في قول عمارة اليمنى في المجون:

ونافر الأعطاف عاملتهُ باللطف حتى سكن النافرُ
ولم أزل أمسحُ أعطافه ورأيه في قصتي حائر
حتى غدا من خجلٍ مطرقًا وكل إعراض له آخر
عجبت من ذلي ومن عزه في موقفِ عاذلهُ عاذر
في ليلةٍ ساهرها نائمٌ فما له سمعٌ ولا ناظر
مددت فيها الفخ لما خلا الـ ـجو إلى أن وقع الطائر
فبتُّ من فرط اغتباطي به أظن أني غائبٌ حاضر

وابن التعاويذي يجيد الشعر في العتاب ، وهو صاحب هذه الأبيات المختارة:

خذ في أفانين الصدود فإن لي قلبًا على العلات لا يتقلب
أتظنني أضمرت بعدك سلوة هيهات عطفك من سلوي أقرب
قد كنت تنصفني المودة راكبًا في الحب من أخطاره ما أركب
فاليوم أقنع أن يمر بمضجعي في النوم طيف خيالك المتأوب

وهو أيضًا صاحب هذه القطعة التي تمثل الوجد الدفين:

يـــا نازحًـــا لـــيس يـــدنو وعاتبًـــا لـــيس يرضـــى
يـــا واجـــدًا وديـــوني فـــي حبـــه لـــيس تقضـــي
أمـــرت عينـــي ففاضـــت ومضـــجعي فأقضـــا
أرقـــد هنيئًـــا فـــإني مـــا ذقـــت بعـــدك غمضـــا

ومن الظلم للعواطف أن لا نفصل مذهب العباس بن الأحنف في العتاب ، فإن شعره آيه الآيات في الشكوى من الهجر ، والتوجع من الصدود ، وهو مع هذا يعد أيام الهجر أحسن أيامه ، ويقول:

واحسن أيام الهوى يومك الذي تُـروع بـالهجران فيـه وبالعتـب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضًا فـأين حـلاوات الرسـائل والكتـب

ولكن هذا أمل بعيد ، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب ، وصحف الهوى ، وكذلك رزيء ابن الأحنف بمن ينبذ كتبه ، ويمزق رسائله ، وفي هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية:

وصـالك مظلـم فيـه التبـاس وعنـدك لـو أردت لـه شـهاب
وقـد حملـت مـن حبيـك مـا لـو تقسـم بـين أهـل الأرض شـابوا
أفيقـي مـن عتابـك فـي أنـاسٍ شـهدت الحـظ مـن قلبـي وغـابوا
يظـن النـاس بـي وبهـم وأنـتم لكـم صـفو المـودة والبـاب
وكنـت إذا كتبـت إليـك أشـكو ظلمـت وقلـت لـيس لـه جـواب
فعشـت أقـوت نفسـي بالأمـاني أقـول لكـل جامحـةٍ إيـاب
وصـرت إذا انتهـى منـي كتـاب إليـك لتعطفـي نبـذ الكتـاب
وإن الـود لـيس يكـاد يبقـى إذا كثـر التجنـي والعتـاب
خفضـت لمـن يلـوذ بكـم جنـاحي وتلقـوني كـأنكم غِضـاب

وقد أكثر ابن الأحنف من التوجع لحرمانه من كتب من يهوى ، وهو صاحب هذا البيت الحزين

ويقنعنـي ممـن أحـب كتابـه ويمعنيـهِ ، إنـه لبخيـلُ !

وكثيرًا ما يميل ابن الأحنف إلى الصفح الجميل ، إذ يرى العتاب لا يعطف القلوب ، إن لم تضمر الحنان. وقد أفصح عن ذلك في هذه الأبيات:

انكر الناس ساطع المسك من دجـ ـــلة قـــد أوســـع المشـــارع طيبـــا
فهمـــو يعجبـــون منـــه ومـــا يـــدرو ن أن قـــد حللـــت منـــه قريبـــا
قاســـميني هـــذا الـــبلاء وإلا فـــاجعلي لـــي مـــن التعـــزي نصـــيبا
أن بعـض العتـاب يـدعو إلـى العتـ ـــب ويـــؤذي بـــه المحـــب الحبيبـــا
وإذا مـا القلـوب لـم تضـمر العـط ـــف فلـــن يعطـــف العتـــاب القلوبـــا

وما أجمل العزة في قوله:

خفضـت لمـن يلـوذ بـك جنـاحي ويمعـــن وتلقـــوني كـــأنكمُ غضـــابُ

وقوله:

خفضت طرفي لأدنى من يلوذ بكم حتـى احتُقـرت ومـا مثلـي بمحتَقِـر

وأي كريم لم يلق مثل هذه الذلة في سبيل الصبابة ؟ ومتى عرف الهوى قيمة العزة في نفوس الأعزاء ، فعصمها عن مدارة قوم يحيطون بالجمال ، أحاطة الأشواك بالورود ؟ وقد نرى ابن الأحنف يائسًا من نفع العتاب ، فنقرأ له هذه الأبيات في التبرم بالسكوت:

ســكوتي بــلاء لا أطيــق احتمالــه شـهي وقلبي الوف للهوى غير نـازِع
فأقسـم مـا تركـي عتابـك عـن قلـى ولكـــن لعلمـــي أنـــهُ غيـــر نـــافع
وأنـي إذا لـم ألـزم الصـبر طائعًـا فلابـــد منـــه مكرهًـــا غيـــر طـــائع
إذا أنـت لـم يعطفـك إلا شـفاعة فـــلا خيـــر فـــي ودٍ يكـــون بشـــافع

وربما رأيناه زاهدًا في العتاب ، لأن محبوبته لا تصد صد العاتب ، بل صد الملول وذلك قوله:

لـو كنـتِ عاتبـة لسـكن لـوعتي أملـــي رضـــاك وزرت غيـــر مراقـــبِ
لكـن مللـتِ فلـم تكـن لـي حيلـة صـد الملـول خـلاف صـد العاتـب

ما ضر من قطع الرجاء ببلخله لو كان عللني بوعدٍ كاذب

على أن ابن الأحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب ، بل رأيناه يعجب بنصره في الحب ، وقهره لقلوب الحسان ، أليس سعيدًا من يقول:

يا رب جاريةٍ أسلبتُ عبرتها من رقة ولغيري قلبها قاسي
كم من كواعب ما ابصرن خط يدي إلا تمنين أن يأكلن قرطاسي

وكان البها زهير ، أحد وزراء مصر في أيامها الخوالي ، من أرق الشعراء في العتاب ، حتى لتحسب شعره نجوى بين المحب والحبيب ، أو رنين الحلى عند عناق الحسان ، أو خفوق الأمل في قلب اليائس المحزون. انظر إلى اعتذاره عن محبوبه ، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل:

مولاي من سكر الدلا لعبثت والسكران عابث
ونكثت عهدًا في الهوى ما خلتُ أنك فيه ناكث
لك لا أشك قضيةٌ أنا سائلٌ عنها وباحث"

وقد يكثر في شعر البها زهير وصف الدلال وما له من النشوة والسكر ، فنراه في موطن آخر يقول:

أضنى الفؤاد فمن يريحه وحمى الرقاد فمن يبيحُه
ونضا من الأجفان سيـ ـفًا قلما يبقى جريحه
نشوان من خمر الدلا لِ غَبُوقهُ وبها صَبوحُه

والذي يعنينا الآلي شرح مواقفه في العتاب ، لأنها تمثل الرح المصرية ، وما لها من السماحة المصحوبة بالشمم والإباء. فحينًا ينفي ما ذاع من سلوه ، حتى هجره أحبابه، فيقول:

يا هاجرين وحقكم هونتم ما لا يهون
قلتم فلان قد سلا ما كان ذاك ولا يكون

وحيـــاتكم وهـــي التـــي ... مـــا مثلهـــا عنـــدي يمـــين
مـــا خنـــت عهـــدكم كمـــا ... زعـــم الوشـــاة ولا اخـــوان
يـــا مـــن يظـــن بـــأنني ... قـــد خنتـــه غيـــري الخئـــون
لـــو صـــح ودك صـــح ظنـــ ... ـــك بـــي وبـــان لـــك اليقـــين
يـــا قلـــب بعـــض النـــاس كـــم ... تقســـو علـــي وكـــم ألـــين
يـــا ويلتـــاه لمـــن يخـــا ... طِـــب أو لـــم يشـــكو الحـــزين
قـــد ذلـــك مـــن كـــان المعيـــ ... ـــن لـــه هـــو الـــدمع المعـــين

وحينما يمزج العتاب بالشكوى فيقول:

يـــا أعـــز النـــاس عنـــدي ... كيـــف خنـــت اليـــوم عهـــدي
ســـوف أشـــكو لـــك بعـــدي ... فعســـى شـــكواي تجـــدي
أيـــن مـــولاي يرانـــي ... ودمـــوعي فـــوق خـــدي
أقطـــع الليـــل أقاســـي ... مـــا أقاســـي فيـــه وحـــدي
ليتنـــي عنـــدك يـــا مـــولا ... ي أو ليتـــك عنـــدي

ثم يترفق في شكواه وأمانيه ، فيقول:

مـــن لـــي بقلـــب أشتريـــ ... ـــه مـــن القلـــوب القاســـيه
إنـــي لأطلـــب حاجـــةً ... ليســـت عليـــك بخافيـــه
أنعـــم علـــي بقبلـــةٍ ... هبـــةً وإلا عاريـــه
وأعيـــذها لـــك لأعدمـــ ... ـــت بعينهـــا وكمـــا هيـــه
وإذا أردت زيـــادة ... خـــذها ونفســـي راضـــيه
فعســـى يجـــود لنـــا الزمـــا ... ن بخلـــوةٍ فـــي زاويـــه
أو ليتنـــي ألقـــاك وحـــ ... ـــدك فـــي طريـــق خاليـــه

وهذه غاية الغايات في رقة النجوى ولطف العتاب ، ولكن البها زهير كما قلنا مصري الروح: فهو في رقته غضوب: ألم تر إليه وقد تبدل من يهوى ، فرماه بهذه الصاعقة:

يـــا مـــن تبـــدل فـــي الهـــوى ... يهنيـــك صـــاحبك الجديـــد

إن كـــان أعجبـــك الصـــدو د كـــذاك أعجبنـــي الصـــدود
واعلـــم بـــأني لا أريـــ ـــد إذا رأيتـــك لا تريـــد
وأنـــا القريـــب فـــإن تغيـــ ـــر صـــاحبي فأنـــا البعيـــد

وقد أوضح هذا المعنى ورفاه ، في الكلمة الآتية:

سـأعرض عمـن راح عنـي معرضًـا وأعلـن سـلواني لـه وأشـيعه
واحجـب طرفـي عنـه فهـو رسـوله وأحجـب قلبـي عنـه فهـو شـفيعه
وكيـف تـرى عينـي لمـن لا يـرى لهـا ويحفـظ قلبـي فـي الهـوى مـن يضـيعه
واقسمت لا تجري دموعي على امريءٍ إذا كـان لا تجـري علـي دموعـهُ
فلـو خـان طرفـي مـا حوتـه جفونـه ولـو خـان قلبـي مـا حوتـه ضـلوعه

وأوضح من هذا قوله من كلمة ثانية:

هـــو حظـــي قـــد عرفتـــه لـــم يحـــل عمـــا عهدتـــه
فـــإذا قصـــر مـــن أهـــوا هـ فـــي الحـــب عذرتـــه
غيـــر أنـــي لـــي فـــي الحـــ ـــب طريـــق قـــد ســـلكته
لـــو أراد البعـــد عنـــي نـــور عينـــي مـــا تبعتـــه
إن قلبـــي وهـــو قلبـــي لـــو تجنـــي مـــا صـــحبته
كـــل شـــيء مـــن حبيبـــي مـــا خـــلا الغـــدر احتملتـــه
أنـــا فـــي الحـــب غيـــرو ذاك خلُقـــي لا عدمتـــه
أبصـــر المـــوت إذا أبصـــ ـــر غيـــري مـــن عشـــقته

نوح الحمام

لقد ألمنا إلمامة قصيرة بنوح الحمام عند أسباب المدامع ، واليوم نفصل مذاهب الشعراء في هذا الباب: فمنهم من يحن إلى الحمائم الشادية ، ويتمنى لو عُدن إليه ، فإذا عدن أسلمنه إلى البكاء ، كما قال المجنون:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة ... فأني إلى أصواتكن حزين
فعدن فلما عدن كدن يمتنني ... وكدت بأجشاني لهن أبين
فلم تر عيني مثلهن بواكيًا ... بكين ولم تذرف لهن عيون

ومن الشعراء من يذكر أن الحمائم الباكية تبعث الهوى في قلب الخلي ، فكيف بالشجي ، وأن أنغامها ليست دموعًا ولكنها أمضى من الدموع ، كما قال أبو تمام:

بعثن الهوى في قلب من ليس ... فقل في فؤادٍ رعنه وهو هائم
هائمًا ... مضت حيث لا تمضي الدموع السواجم
فها نغمٌ ليست دموعًا فإن علت

ومنهم من يستريح إلى نوح الحمام ، ويراه تداويًا من الداء بنفس الداء ، كقول ابن عبد ربه:

فكيف ولي قلبٌ إذا هبت الصبا ... أهاب بشوق في الضلوع دفينِ
ويهتاج منه كلما كان ساكنًا ... دعاء حمام لم يبت بوكون
وأن ارتياحي من بكاء حمامةٍ ... كذي شجنٍ داويته بشجون
كأن حمام الأيك لما تجاوبت ... حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزين

ويسمون الحمامة «مطوقة» لطوقها المخضب الجميل ، كما قال ابن عبد ربه:

ونائح في غصون الأيك أرقني ... وما عُنيت بشيء ظل يعينه

مطـــوق بخضـــابٍ مـــا يزايلـــه حتـــى تزايلـــه إحـــدى تراقيـــه
قد بات يشكو بشجو ما دريت به وبـت أشـكو بشـجو لـيس يدريـه

ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية ، فيذكر أنها تبكي بلا دمع ، وأن إلفها منها قريب ، كما قال أبو محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ، وقد كبرت سنه ، طالت غربته:

وأرقنـــي بـــالري نـــوح حمامـــة فنحـت وذو الشـجو الغريـبُ ينـوح
على أنهـا ناحـت ولـم تـذر دمعـة ونحـت وأسـراب الـدموع سـفوح
وناحـت وفرخاهـا بحيـث تراهمـا ومـن دون أفراخـي مهامـه فِـيحُ
ألا يـا حمـام الأيـك إلفـك حاضـر وغصـنك ميـاد ففـيم تنـوح
أفـق لا تـنح مـن غيـر شـيءٍ فـإنني بكيـت زمانًـا والفـؤاد صـحيح
ولوعًـا فشـطت غربـة دار زينـبٍ فهأنـا أبكـي والفـؤاد جـريح

ومما يجدر أن يكون «صورة شعرية» في وصف الحمامة الباكية قول الطغرائي:

أبكيـة صـدحت شـجوًا علـى فـننٍ فأشـعلت مـا خبـا مـن نـار أشـجاني
ناحت وما فقدت إلفًا ولا فجعت فـذكرتني أوطـاري وأوطـاني
طليقـةٌ مـن إسـار الهـم ناعمـةٌ أضـحت تجـد وجـد الموثـق العـاني
تشبهت بي في وجدي وفي طربي هيهـات مـا نحـن فـي الحـالين سيانِ
مـا فـي حشـاها ولا فـي جفنهـا أثرٌ مـن نـار قلبـي ولا مـن مـاء أجفـاني
يـا ربـة البانـة الفنـاءِ تحضـنها خضـراء تلتـف أغصـانًا بأغصـان
إن كـان نوحـك إسـعادًا لمغتـربٍ نـاءٍ عـن الأهـل ممنـوٍ بهجـران
فقارضـيني إذا مـا اعتـادني طـرب وجـدًا بوجـدٍ وسـلوانًا بسـلوان
أولا فقصـرك حتـى اسـتعين بمـن يعنيـه شـأني ويأسـو كَلـمَ أحزانـي
مـا أنـت منـي ولا يعنيـك مـا أخـذت منـي الهمـوم ولا تـدرين مـا شـأني
كِلـي إلـى الغـيم إسـعادي فـإن لـه دمعًـا كـدمعي وإرنانًـا كإرنـاني

وهذه القصيدة من إبداع ما قال الشعراء في الحمائم الشاديات. وهي نموذج لملاحه التقسيم ، وبراعة التصوير ، وحلاوة التعبير ، ويقرب منها قول ديك الجن:

حمائم ورق في حمى ورق خضر ... لها مقل تجري الدموع ولا تجري
تكلفن إسعاد الغريبة إن بكت ... وإن كن لا يدرين كيف جوى الصدر
لها حرق لو أن خنساء أعولت ... بهن لادت حق صخرٍ إلى صخر
فقلت لنفسي ها هنا طلب الأسى ... ومعدنه أن فاتني طلب الصبر

وقد يحسن لفت النظر إلى الخرافة القديمة في نوح الحمام: فإن العرب يذكرون أنه كان لهن ملك في عهد نوح يسمى (الهديل) فهن يبكينه إلى الآن ! ؟ وهو المعني بقول نصيب:

لقد راعني للبين نوح حمامةٍ ... على غصن بانٍ جاوبتها حمائم
هواتف أما من بكين فعهده ... قديم وأما شجوهن فدائم

وممن ذكر الهديل حُميد بن ثور في هذه الأبيات الحسان:

إذا نادى قرينته حمامٌ ... جرى لصبابتي دمع سفوح
يُرَجِّع بالدعاء على غصون ... هتوف بالضحى غرد فصيح
هفا لهديله مني إذا ما ... تغرد ساجعًا قلب قريح
فقلت حمامة تدعو حمامًا ... وكل الحب نزاع طموح

قال أبو بكر بن دريد: خرجنا من عمان في سفر لنا ، فنزلنا في أصل نخلة ، فنظرت فإذا فاختتان تزقوان في فروعها ، فقلت:

أقول لو رقاوين في فرع نخلةٍ ... وقد طفل الإمساء أو جنح العصر
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها ... ومال على هاتيك من هذه النحر
ليهنكيما أن تراعا بفرقةٍ ... ومادب في تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلي قطع الشوق قلبه ... على أنهُ يحكي قساوته الصخر

ومن جيد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية قول ابن سنان الخفاجي:

أتظن الورق في الأيك تغني ... إنها تضمر حُزنًا مثل حزني
لا أراك الله نجدًا بعدها ... أيها الحادي بها أن لم تجبني
هل تباريني إلى بث الجوى ... في ديار الحي نشوى ذات غُصنِ
هب لنا الشبق ولكن زادنا ... إننا نبكي عليها وتغني
يا زمان الخيف هل من عودة ... يسمح الدهر بها من بعد ضن
أرضينا بثنيات اللوى ... عن زرودٍ يا لها صفقة غَبنِ

وقد ينكر الشاعر على الحمامة أن تشكو الفراق ، وهي كثيرة الالاف ، وحيالة بالطوق والخطاب ، كقول ابن سنان صاحب الأبيات السالفة:

وهاتفةٍ في البان تُملي غرامها ... علينا وتتلو من صبابتها صُفحات
عجبت لها تشكو الفراق جهالةً ... وقد جاوبت من كل ناحيةٍ الفا
ويشجي قلوب العاشقين حنينها ... وما فهموا مما تغنت له حرفا
ولو صدقت فيما تقول من الاسى ... لما لبست طوقًا ولا خضبت كفًا

ولكن الارجاني يصفها بصدق اللوعة ، فيذكر أنها مزقت أثواب الحِداد ، وأن صدورها ضاقت بأنفاسها ففضت مجامع الأطواق وأنها نزفت دمعها وافنته بطول البكاء ، وذلك في قوله:

ومما شجاني وقد ودعوا ... بكاءُ الحمام على ساقها
تنوح على يُعد ألافها ... وتظهر مكنون أشواقها
لبسن حدادًا ومزقنهُ ... فلم تدّخر غير ازياقها
وضاقت صدورًا بأنفاسها ... ففضَّت مجامع أطواقها
وقد نزفت في الهوى دمعها ... فلم يبق ماءٌ بآماقها

ولم يكثر الشعراء الحديث عن غناء الكروان ، ويظهر أنهم لم يتمتعوا بأعانيه الجميلة على ضفاف النيل في سِنتريس ، والدهر كله فداء للحظة واحدة من الأصائل ، أو العشيات ، أو الأسحار ، في مغاني سنتريس.

ويعجبني في وصف الكروان قول الأستاذ عباس العقاد:

يا مُحيـيَ الليـل البهـيم تهجّـدًا ... والطيـر آويـةٌ إلـى الأوكـان
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعًا ... مـن نـايغ فـي غَمـرة النسـيان
قـل يـا شـبيه النـابغين إذا دعـوا ... والجهـل يضـرب حـولهم بجـران
كـم صيحةٍ لـك فـي الظـلام كأنهـا ... دقـات صـدر للدجنـةِ حـانِ
خَفاقـة النغمـات تطفـرُ فـي الـدجى ... فـوق النسـائم طفـرة النشـوان
هـن اللغـاتُ واللغـاتِ سـوى التـي ... رُفعـتْ بهـن عقيـرة الوِجـدان
إن لـم تقيـدها الحـروف فإنهـا ... كـالوحي ناطقـةٌ بكـل لسـان
أغنـى الكـلام عـن المقـاطع واللغـى ... بـثّ الحـزين وفرحـةُ الجـذلان
إنـي لأسـمع منـكَ إذْ نـاديتني ... معنـى يقصِّـر عنـه كـل بيـان
أصغي إليك إذا هتفت وفي يدي ... سِـفرٌ يغـرد صـامت الأوزان
شـعر الطيـور ولا ريـاء يشـوبهُ ... يـذري ببـدْع قصـائد الإنسـان
يـا سـاليًا يشـكو ويصـدح وحـده ... علـم سـميرك راحـة السـلوان

ومن خير ما وُصِفت به الحمامة من ناحية الخِلقة الجميلة ، قول بعض الأعراب:

وقلبي أبكي كل من كان ذا هوى ... هتـوف البـواكي والـديارُ البلاقـعُ
وهن على الأطلال من كل جانب ... نـوائح مـا تخضـل منهـا المـدامع[1]
مزبرجـة الأعنـاق غـر ظهورهـا ... مُخطمـةٌ بالـدر خُضـرٌ روائـع[2]
تـرى طـررًا بـين الخـوافي كأنهـا ... حواشـيُّ بُـردٍ زينتهـا الوشـائع[3]

---

[1] المدامع هنا أماكن الدمع وهي العيون.

[2] مزبرجة: من الزبرج وهو الزخرف. ومخطمة من الخطم بفتح فسكون وهو منقار الطائر.

[3] الوشائع جمع وشيبة وهي الطرائق في الثوب.

ومن قِطع الياقوت صيغت عيونها خواضب بالحنَّاءِ منها الأصابع

ويعجبني خطاب عبد البر بن فرسان الغساني لطائر مغرد ضم أفراخه إليه:

أعِدهن ألحانًا على سمع مُعربٍ يطاوحُ مرتاحًا على القُضب مُعجما
وطر غير مقصوص الجناح مُرفَها مُسوّغ أشتاتِ الحبوب مُنعما
مُخلى وأفراخًا بوكرك نُوَّمًا ألا ليتَ أفراخي معي كن نُوما

وقد أبدع الرصافي شاعر الأندلس حين تغنى يومًا من أيام شبابه وقد خلا فيه بمن يهوى في روضة لم يشاركهم في سكناها غير الهديل ، وأبياته الآتية غاية من غايات الحسن في وصف الشمس وهي تجنح للغروب:

وشعيّ رائق منظرُهْ قد قطعناهُ على صرف الشمول
وكأن الشمس في أثنائه ألصقت بالأرض خدًا للنزولْ
والصبا ترفع أذيال الرُّبا ومُحيا الجوِّ كالسيف الصقيل
حبذا منزُلنا مُغتَبَقًا حيث لا يطرُقنا غير الهديل
طائرٌ شادٍ وغصنٌ منْثنٍ والدجي تشرب صهباء الأصيل

ومما يقرب من هذا الباب وليس منه قول القاضي أبي حفص القرطبي:

هُم نظروا لواحظها فهاموا وتشربُ لُبّ شاربها المدامُ
يخاف الناس مقلتها سواها أيضعر قلب حامله الحسام
سما طرفي إليها وهو باك وتحت الشمس ينسكب الغمامُ
وأكر قدّها فأنوح وجدًا على الأغصان ينتحبُ الحمام
وأعقب بينُها في الصدر غمًا إذا غرَبت ذكاءُ أتى الظلام

التقرب بالدموع

خير ما تقرب به المحب إلى حبيبته دمع مسفوح ، وقلب مجروح ووجد مشبوب ، وصبر مغلوب !! والتقرب بالدموع نوع من الاستعطاف تغزي به قلوب الحسان ، ومن طريفه قول الأبيوردي:

أشكو الهدوى لترقيِّ يا أميمة لي ... فطالما رفقَ المشكو بالشاكي
يشقى بعضي ببعضي في هواك فما ... للعين باكية والقلب يهواك

وهذا المعنى غير معروف عند العرب: فهم يرون بكاء العين من فضل حزن الفؤاد ، حتى ليقولون: نعمت العين ، وشقى القلب ، ولكن الأبيوردي عكس المعنى ، فجعل نعيم القلب في الهوى ، وعذاب العين في البكاء ، ثم قال:

إن يحك ثغرك دمعي حين أسفحهُ ... فإنني جدت للمحكيِّ بالحاكي
ما كنت أحسب أنّ الدرّ مسكنه ... يكون جيدَك أو عينيّ أو فاكِ

وأوضح من هذا وأجمل قول الشريف:

أهون بما حملتنيه من الضنى ... لو أن طيفك كان من عُوّادي
ولقلما زار الخيال بمقلةٍ ... روعاءَ نافرةٍ بغير رُقادِ
ما تلتقي الأجفان منها ساعةً ... وإذا التقت فلغضّ دمع بادِ
لا يبعدن قلبي الذي خلفتهُ ... وقفًا على الإتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وسادَهُ ... لم يدرِ كيف نبا عليّ وسادي
ولقد بعثت من الدموع إليكم ... بركائبٍ ومن الزفير بحادي
لولا هواك لما ذللت وإنما ... عزّي يعيّرني بذل فؤادي

وهكذا يجمع الشريف الرضي بين العزة القرشية ، والذلة العذرية: فهو عزيز ذليل !! وللبحتري حوار لطيف في هذا الباب ، فمن ذلك قوله:

صلي مغرمًا قد واتر الشوق دمعه سجامًا على الخدين بعد سجامِ
فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرمته بحرام

وقد ردد هذا المعنى في موطن آخر فقال:

ألام على هواكِ وليس عدلاً إذا أحببتُ مثلك أن ألاما
فقد حرمت من وصلي حلالاً وقد حللت من هجري حراما

ولا يسعني وقد أسرف البحتري في ذكر الحرام والحلال ، إلا الرجاء في أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب !! وقد رق شعر العباس بن الأحنف حين يقول:

أما استوجبت عيني فديتك نظرة إليك وقد أبكيتها حِجَجًا عشرا
لعمري لئن أقررتِ عيني بنظرةٍ إليك لقد عذبتها بالبكا دهرا

ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية:

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين أيقنت أنهُ يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أُجاجًا دونكم فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أيا ساكني أكناف دجلة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وقد تلطف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله:

يا ومـوحش العين التي أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي نفسًا تموت بدائها
تشتاق عيني أن ترا ك وأنت في سوادئها
فإذا بخلت بنظرة سمحت بجُمة مائها

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء:

وقلتُ شهودي في هواك كثيرةٌ وأصدقها قلبي ودمعي مسفوحُ
فقال شهودٌ ليس يقبل قولها فدمعك مقذوف وقلبك مجروح

وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدثون ، لطول ما يبحثون في القذف والتجريح ، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء !!

وقد يتوسل المحب بفنائه في الوجد ، ومن شعراء العصر من أجاد هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول:

يـا أهـل أسـيوط لازلـتم بعافيـةٍ ... وإن تمـرد فـي وجـدي بكـم دائـي
أسلمتموني لـدهري بعـد مـا بَلِيَتْ ... مـن قسـوة الصـد والتبـريح أحشـائي
فلـو أتـت ظبيـةُ الحمـراء غازيـةً ... قلبـي لمـا وجدتـه غيـر أشـلاء[1]
يـا ويـح نفسي ، أتنسـوني وأذكـركم ... مُقـرح الجفـن فـي صـبح وامسـاءِ

●

إن الـذين بـأمر الحـب قـد ملكـوا ... لـم يتقـوا الحـب فـي ضُـرِّي وإيـذائي
لـم يُدنني الشوقُ يومًا من منـازلهم ... ألا تولـوا مـع الأيـام أقصـائي
كـم رُحـتُ أحمـل آمـالي لحـيهم ... وعـدتُ أحمـل آلامـي وارزائـي
يـا لوعـة القلـب لا شـكواي نافعـة ... ولا بكـاي بشـافٍ مـس ضـرائي
أبيـت أنـدب عهـدًا مـر طيبـةُ ... كلمحـة البـرق فـي أعطـاف ظلمـاء
وأرسـل الزفـرة الحـراء لافحـة ... كوقـدة الجمـر فـي آجـامِ قَصْـباءِ

●

يـا مـن يعـز علينـا أن نجـازيهم ... صـدًّا بصـدٍّ وأغضـاءً بإغضـاءِ
لـو ترحمـون وصـلتم شـيقًا كلِفًـا ... ألقـي جفـاكم عليـه ألـفَ بأسـاءِ

---

[1] الحمراء : حي جميل من أحياء أسيوط.

ثورة الوجد

نذكر هنا طرفًا من الشعر الموجع ، الذي يمثل ثورة الوجد ، ولوعة الأسى ، فمن ذلك قول أبي تمام:

سقيمٌ لا يموتُ ولا يُفيقُ ... قد اقرح جفنه الدمعُ الطليقُ
شديد الحزن يحزن من يراهُ ... أسير الصبر ناظرهُ أريقُ
ضَجيع صبابةٍ وحليفُ شوقٍ ... تحمّل قلبُه مالا يُطيقُ
يظل كأنه مما احتواه ... يُسَعر في جوانبه الحريق

وأي حال أدعى للرحمة ، وأوجب للإشفاق ، من حال هذا المحب السقيم ، الذي لا يموت ولا يفيق. والذي يحزن من يراه: لصبره الأسير ، ونظاهره الأريق والذي حالف في ضعفه الشوق، وضاجع الصبابة، حتى لكأنه مما به ، تُسعر النار في ضلوعه ! ؟

ويقرب من هذا قول ابن الرومي في فراق اثنين من خُلانه:

لم يَسترح من لهُ عينٌ مُؤرقة ... وكيف يعرف طعم الراحة الأرقُ
محمدٌ وعلي فتتا كبدي ... إذا ذكرتهما والعيسُ تنطلقُ
خلان حل بقلبي منفراقهما ... ما كنت أحذر منه قبلَ نفترقُ
قلب رقيق تلظت في جوانبه ... نار الصبابة حتى كاد يحترقُ
وددت لو تم لي حجي بقربهما ... ما كل ما تشتهيه النفس يتفق

ومما يمثل ثورة الوجد في الصدر ، مع الغيظ مما جنت يد الليالي ، قول المتنبي:

أكيدًا لنا يا بينُ واصلت وصلنا ... فلا دارنا تدنو ولا عيشنا يصفو
أردد ويلي ، لو قضى الويل حاجةً ... وأكثر لهفي ، لو شغفا غُلةً لهفً
ضنى في الهوى كالسم في الشهد ... لذذت به جهلا وفي اللذة الحتف
كامنً

وكان الأبيوردي يمثل وجده بوجد الظبية تترك ولدها في طلب الكلا ثم تعود سريعة إلى لقائه فتجده مات ! وإليك من شعره هذه اللؤلؤة الفتانة:

وما ام ساحبي الطرف مال به الكرى ... على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تُراعي بإحدى مُقلتيها كناسها ... وترمي بأخرى نحوهُ نظرًا غربا
فلاح لها من جانب الرمل مرتع ... كأن الربيع الطلق ألبسه عُصبا
فمالت إليه والحريص إذا غدت ... به سورة الأطماع لم يحمد العقبى
وآنسها المرعى الخصيب فصادفت ... مدى العين في أرجائه بلدًا خصبا
فلما قضت منه اللبانة راجعت ... طلاها فألفته قضى بعدها نحبا
أتيح له عاري السواعد لم يزل ... يخوض إلى أوطاره مطلبًا صعبا
فولت على ذُعرٍ وبالنفس ما بها ... من الكرب لا لقيت في حادث كربا
بأوجد مني يوم عجت ركابها ... لبينٍ فلم تترك لذي صبوةٍ لُبا

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الأمثال في الآداب القديمة ، وإنما نسبناها إلى الأبيوردي لأنه يرددها في شعره ، فمن ذلك قوله في كلمة ثانية:

وما مُغزلٌ تعطو الأراد يهزه ... نسيم تناجيه الخمائل وانِ[1]
وتزجى بروقيها أغن كأنه ... من الضعف يطوي الأرض بالرسفان[2]
فمال إلى الظل الأراكي دونها ... وكانا به من قبل يرتديان
وصبت عليه الطلس وهي سواغب ... تجوب إليه البيد بالنسلان[3]
فعادت إليه أمه وفؤادها ... هفًا كجناح الصقر في الخفقان
وظلت على الجرعاء ولهى كئيبةً ... وقد سال واديها بأحمر قان
تسوف الثرى طورًا ويعبث تارةً ... بها أولقٌ من شدة الولهان[4]

---

[1] المغزل: أم الغزال ، الخمائل جمع خميلة وهي ألفاف الشجر.

[2] الرسفان ، المشي في القيد.

[3] الطلس ، الذئاب ، ولواغب ، الجياع ، والنسلان ، مشي الذئب إذا أسرع.

[4] نسوف ، تشم ، الأولق ، الجنوب.

بأوجد مني يوم سرتُ إلى الحمى وقد نزلت سمراءُ سَفلح ابان[1]

ونحب أن نلفت القاريء إلى ما في أمثال هذه الصورة الشعرية من الكلف بتصوير الطبيعة ، وما فيها من حياة الحيوان ، فقد أغرم شعراء الغرب بهذا الأسلوب ، فزاد شعرهم جمالاً إلى جمال. ولولا الرغبة في الإيجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دي ميسيه) تماثل شعر الأبيوردي في هذا الجانب من البيان. والناس هم الناس ، في كل قطر ، وفي كل جيل ، والتباين قليل في الميول ، وفي تذوق ألوان الحياة ، وأن عظم الفرق حينًا في التعبير عن نزعات النفوس ، وشهوات العقول:

ومن خالد الشعر في ثورة الوجد نونية الوزير ابن زيدون ، وقد رأينا أن نثبتها هنا كاملة – كما فعل المقري صاحب نفح الطيب – لأنها ذكرت مفرقة في أكثر المؤلفات:

اضحى التنائي بديلا من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم جزنًا مع الدهر لا يبلى ويلينا
إن الزمان الذي قد كان يضحكنا انسًا بقربهم قد عاد يُبكينا
غيظ العدل من تساقينا الهوى فدعوا بأن تغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقودًا بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا
بالأمس كنا وما يُخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
يا ليت شعري ولم نُعتب اعاديكم هل نال حظًا من العتبي أعادينا[2]
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأيًا ولم نتقلد غيره دينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه وقد يئسنا ، فما لليأس يُغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقًا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين نُناجيكم ضمائرُنا يقضي علينا الأسى ، لولا تأسينا[3]
حالت لبعدكم أيامنا فغدت سودًا وكانت بكم بيضًا لياليا

---

[1] أبان ، جبل شرقي الحاجر فيه تحل.

[2] اعتبه ، ارضاه. والعتبي ، الترضية.

[3] التأسي ، التعزي.

إذ جانب العيش طلقٌ من تألفنا ... ومورد اللهو ضافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً ... قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليُسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... إذ طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

●

يا ساري البرق غاد القصر فاسق ... به من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا ... إلفًا تذكره أمسى يعنينا[1]
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيًا كان يحيينا
وبيت ملك كأن الله أنشأه ... مسكًا وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورقًا محضًا وتوجه ... من ناصع التبر إبداعًا وتحسينا[2]
إذا تأود آدته رفاهية ... تُدمي العقول وأدمته البُرى لينا[3]
كانت له الشمس ظئرًا في تكلله ... بل ما تجلي بها إلا أحايينا[4]
كأنما نبتت في صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذًا وتزيينا
ما ضر أن لم نكن اكفاءه شرفًا ... وفي المودة كافٍ من تكافينا[5]
يا روضة طالما اجنت لواحظنا ... وردًا جناه الصبا غضًا ونسرينا
ويا حياةً تملأنا بزهرتها ... سُنى ضروبًا ولذاتٍ أفانينا[6]
ويا نعيما خطرنا من نضارته ... في وشي نُغمي سحبنا ذيلهُ حينا

---

[1] عناه ، أشقاه.

[2] ورق ككتف ، الفضة.

[3] تأود ، تثنى. آدته ، أثقلته. البري، الخلاخيل.

[4] الظئر من معانيه جانب القصر.

[5] متكافي ، التكافؤ والتماثل.

[6] تملأنا ، تمتعنا.

لســنا نســميك إجــلالا وتكرمــةً ... فقــدرك المعتلــي عــن ذاك يُغنينــا
إذا انفردت وما شوركت في صفةٍ ... فحســبنا الوصــف إيضــاحًا وتبيينــا

●

يــا جنــة الخلــد أبــدلنا بسلسـلها ... والكــوثر العــذبِ زقومًــا وغســلينا
كأننــا لــم نبــت والوصــل ثالثنــا ... والسعد قـد غـض مـن أجفـان واشـينا
سـران فـي خـاطر الظلمـاءِ تكتمنـا ... حتــى يكــاد لســان الصــبح يُفشــينا
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت ... عنــه النهــى وتركنــا الصــبر ناســينا
إنـا قرأنـا الأسـى يـوم النـوى سـورًا ... مكتوبــة وأخــذنا الصــبر تلقينــا
أمــا هــواك فلــم نعــدل بمشــربه ... شــربًا وإن كــان يروينــا فيظمينــا[1]
لـم نجـف أفـق جمـالٍ أنـت كوكبـه ... ســالين عنــه ولــم نهجــره قالينــا
ولا اختيــارًا تجنبنــاكِ عــن كثــبٍ ... لكــن عــدتنا علــى كســرهِ عوادينــا[2]
نأسـى عليـك إذا حُـت مشعشـعة ... فينــا الشــمول وغنانــا مغنينــا
لا أكـؤس الـراح تبـدي مـن شـمائلنا ... ســيما ارتيــاحٍ ولا الأوتــار تلهينــا
دومي على العهد ما دمنا محافظة ... فــالحر مــن دان إنصــافًا كمــا دينــا
فما استعضنا خليلا عنك يحسبنا ... ولا اســتفدنا حبيبًــا منــك يُغنينــا
ولـو صـبا نحونـا مـن أفـق مطلعـه ... بـدر الـدجى لـم يكـن حاشـاكِ يصـبينا
أولـى وفـاءً وإن لـم تبـذلي صـلةً ... فــالطيف يقنعنــا والــذكر يكفينــا
وفـي الجـواب شـفاءٌ لـو شـفتِ بـه ... بـيض الأيـادي التـي مـا زلـت تولينـا

وقد أغرم الشعراء بتخميس هذه القصيدة وتسديسها ، وتشطيرها ، وكذلك شغلت الأذهان زمنًا غير قليل. وقد أرسل ابن زيدون هذه القصدة إلى معشوقته ولادة ، وهي سيدة اندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الأمويين ، وقد كانت في جمالها شاعرة مجيدة ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زيدون:

---

[1] الشرب بكسر الشين كالشرب وهو المورد.

[2] عن كثب ، عن قرب.

ترقــب إذا جــن الظــلام زيــارتي فــإني رأيــتُ الليــلَ أكــتمَ للســر
وبي منك ما لو كان بالفجر لم يلح وبالليـل لـم يُظلـم وبـالنجم لـم يسـر

ولابن زيدون في ولادة مقطعات حسان ، كقوله:

واهًــا لعفطــك والزمــان كأنمــا صــبغت نضــارته ببــرد صــباك
والليــل مهمــا طــال قصــر طولــه هــاتي ، وقــد غفــل الرقيــب ، وهــاك
أمــا منــى نفســي فأنــت جميعهــا يــا ليتنــي أصــبحتُ بعــض منــاك
يُدني مثالـك حين شـط بـه النـوى وهــم أكــاد بــه أقبــل فــاك

ومن موجع الشعر قوله:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع ســر إذا ذاعــت الأســرار لــم يــذع
يــا بائعًــا حظــهُ منــي ولــو بــذلت لــي الحيــاة بحظــي فيــه لــم أبــع

ولصديقنا الأستاذ أنيس ميخائيل ولع غريب بإنشاد قول ابن زيدون:

إنــي ذكرتــك بــالزهراء مشــتاقا والافـق طلـق ووجـه الـروض قـد راقـا
وللنســيم اعــتلالٌ فــي اصــائله كأنمــا رق لــي فاعتــل اشــفاقا
والنهـر عـن مائـه الفضـي مبتسـم كمــا حللــت عــن اللبــات أطواقــا
يــوم كأيــام لــذات لنــا انصــرمت يتنــا لهــا حــين نــام الــدهر ســراقا
نلهـو بمـا يسـتميل العين مـن زهـرٍ جـال النـدى فيـه حتـى مـال اعناقـا
كــأن أعينــهُ إذ عاينــت أرقــي بكـت لـي بـي فجـال الـدمع رقراقـا
ورد تــألف فــي ضــاحي منابتــه فـازداد منـه الضـحى فـي العين إشـراقا
ســرى ينافحــه نيلــوفر عبــق وســنان نبــه منــه الصــبح أحــداقا
كــل يهــيج لنــا ذكــرى تشــوقنا إليـك لـم يعـد عنـا الصـدر إن ضـاقا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم لكــان مــن أكــرم الأيــام أخلاقــا
لا ســكن الله قلبًــا عــن ذكــركم فلــم يطــر بجنــاح الشــوق خفاقــا
لـو شـاء حملـي نسـيم الـريح حـين وافــاكم بفتــى أضــناه مــا لاقــى
هفــــــــــــــــا ميــدان أنــسٍ جرينــا فيــه اطلاقــا

كان التجازي بمحض الود مذ زمن سـلوتم وبقينـا نحـن عشـاقا
فـالآن أحمـد مـا كنـا لعهـدكم

واني لمفتون بهذا الشطر الحزين:

سلوتمُ وبقينا نحن عُشاقا

فإنه يمثل المحب ، وقد سلا أحبابه ، وبقي وحده يعاني آلام الوجد ، وأهوال الصدود.

الارق والسهاد

شكا الشعراء قديمًا وحديثًا طول الليل بعد الفراق ، وعند الهجر والصدود. فمنهم من يستنجد محبوبه ، ويستعديه على وحشة الليل، ومضاضة الأرق ، كقول الأبيوردي.

أَمُـيمَ إن خفيت عليك صبابتي فسلي ظلام الليل كيف أكون
واستخبري عني النجوم فقد رأت سهري وأروقة الغياهب جون
ولئن أذلتُ مصون دمعي في الهوى فعلى البكاء يعول المحزون

وهذه الأبيان من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد ، وعبثه بكرائم النفوس. ومنهم من يستعين من حوله ، ويرجوهم أن يحدثوه عن النهار ، أو يصفوه له ، فقد طال ليله ، حتى نسي النهار ، وأوصاف النهار ، كما قال ابن الأحنف:

أيها الراقدون حولي أعينو ني على الليل حسبةً وائتجارا
حدثوني عن النهار قليلا أوصفوه فقد نسبت النهارا

وابن الأحنف يجيد شكوى الليل الطويل ، والسهاد المملول ، فمن ذلك قوله:

نام من أهدى لي الأرقا مستريحًا سامني قلقا
لو يبيت الناس كلهم بسهادي بيض الحدقا
أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا
كان لي قلب أعيش به فاصطلى بالحب فاحترقا

وتوجعني شكواه في قوله:

أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

فقد تكلف النفس بفتنة من فتن الحسن في هذا الوجود ، ثم لا تجد إليها السبيل ، على أن هذا الحسن قد يكون زمامه بيد من لا يشعر بروعة الجمال !

ومن الشعراء من يظعن أحبابه بالليل ، فيظعن بذلك الكرى عن جفونه. كالبحتري حين يقول:

أمولعـــة بـــالبين رب تفـــرقٍ جرحـــت بـــه قلبًـــا بحبـــك مولعـــا
ولي لوعة تستغرق الهجر والنوى جميعًـا وحـب ينفـد الـدمع اجمعـا
علـى أن قلبـي قـد تصـدع شـمله فنونًـا لشـمل البـيض حـين تصـدعا
ظعـائن أظعـن الكـرى عـن جفوننـا وعوضـــننا منـــه ســـهادًا وأدمعـــا
نـوين النـوى ثـم اسـتجبن لهـاتف مـن البـين نـادى بـالفراق فأسـمعا
وحـاولن كتمـان الترحـل بالـدجى فـنم بهـن المسـك حـين تضـوعا

وقد يفزع المحب إلى تحكيم العدجل والحق ، حين تطول لياليه. كقول ابن الرومي:

أيـا شـمس النهـار سـنًا وعـزًا يُقصـــر عنهمـــا نظـــر ولمـــس
أحـل أن تنـامي عـن سـهادي ولـي مـذبان عنـي النـوم خمـس
أميـز كـل شـيء مـن أمـوري سـوى أمـري لـديك فقيـه لـبس
غرسـت هـوى فربيـه بحفـظٍ فلـيس يـرب بالتضـييع غـرس

ومن الشعراء من يتفنن في وصف الليل فيذكر أن نجومه اقسمت لا تزول. كقول أحدهم:

ألا هـل علـى الليـل الطويـل معين إذا نظحـــت دار وحـــن حـــزين
أكـادب هـذا الليـل حتـى كأنمـا علـى نجمـه أن لا يغـور يمـين
ووالله مـا فـارقتكم قاليًـا لكـم ولكـن مـا يقضـى فسـوف يكـون

ومنهم من يزيد على ذلك شوقه إلى تمزيق سرابيل الليل ، وظهور تباشير الصبح ، كقول حندج بن حندج:

في ليل صول تناهي العرض والطول كأنمـا ليلـه بالليـل موصـول
لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به وإن بـدت غـرة منـه وتحجيـل
لسـاهرٍ طـال فـي صـولٍ تململـه كأنـه حيـة بالسـوط مقتـول
متى أرى الصبح قد لاحت مخائله والليـل قـد مزقـت عنـه السـرابيل

ليل تحير ما ينحط في جهةٍ كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه ركد ليست بزائلةٍ كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يدني على شحط من داره الحزن ممن داره صول
الله يطوي بساط الأرض بينهما حتى يرى الربع منه وهو مأهول

نعم وما أقدر الله أن يدني على النوى من داره ينتريس ممن داره أسيوط

لوددت إذ سكنوا هنالك دراهم وعدتهم عنا أمور تشغل
أنا نطاع إذن فتنقل أرضنا أو أن أرضهم إلينا تنقل

وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال:

رب ليلٍ كأنه الدهر طولاً قد تناهي فليس فيه مزيد
ذي نجوم كأنهن نجوم الشيـ ـب ليست تزول لكن تزيد

قال أبو بكر الوليد بن البزار: كان علي بن الجهم يستنشدني كثيرًا شعر خالد الكاتب فأنشده فيقول: ما صنع شيئًا. ثم أنشدته يومًا قوله:

رقدت ولم ترث للساهر وليل المحب بلا آخر
ولم تدر بعد ذهاب الرقا د ما صنع الدمع بالناظر

فقال: قاتله الله ! لقد ادمن الرمية حتى أصاب الغرة ! وجمال هذا الشعر يرجع إلى شكوى المحب ما صنع الدمع بناظره بعد جفوة النوم. ومثله قول أبي العتاهية:

أمسى ببغداد ظبي لست أذكره إلا بكيت إذا ما ذكره خطرا
إن المحب إذا شطت منازله عن الحبيب بكى أوحن أو ذكرا
يا رب ليلٍ طويل بت أرقبه حتى أضاء عمود الصبح فانفجرا
ما كنت أحسب إلا مذ عرفتكم إن المضاجع مما ينبت الإبرا
والليل أطول من يوم الحساب علي عين الشجي إذا ما نومه نفرا

ومن المحبين من يخاطب الليل. فيذكر في خطابه أن بعض ما به كاف لمحو الليل لو عرض له. كقول سعيد بن حميد:

يـــا ليـــل بـــل يـــا أبـــد أنـــــائم عنـــــك غـــــد
يـــا ليـــل لـــو تلقـــى الـــذي ألقـــــى بهـــــا أو تجـــــد
قصـــــر مـــــن طولـــــك أو ضـــــعف منـــــك الجلـــــد
أشـــــكو إلـــــى ظالمـــــةٍ تشـــــكو الـــــذي لا تجـــــد
وقـــــف عليهـــــا نـــــاظري وقـــــف عليهـــــا الســـــهد

وأود لو تنبه القاريء إلى حسن هذا البيت:

أشـــــكو إلـــــى ظالمـــــةٍ تشـــــكو الـــــذي لا تجـــــد

وقد ذكر الفرزدق العلة في طول الليل فقال:

يقولون طال الليل والليل لم يطال ولكـن مـن يبكـي مـن الشـوق يسـهر

وقد تابعه بشار في هذا المعنى فقال:

لـم يطـل ليلـي ولكـن لـم أنـم ونفـى عنـي الكـرى طيـف ألـم
وإذا قلـت لهـا جـودي لنـا خرجـت بالصـمت عـن لا ونعـم
نفسـي يـا عبـد عنـي واعلمـي إننـي يـا عبـد مـن لحـمٍ ودم
إن فـي بـردي جسـما نـاحلا لـو توكـأت عليـه لانهـدم

وقد ردد هذا المعنى في كلمة ثانية فقال:

طـال هـذا الليـل بـل طـال السـهر ولقـد اعـرف ليلـي بالقصـر
لـم يطـل حتـى جفـاني شـادن نـاعم الأطـراف فنـان النظـر
لـي فـي قلبـي منـه لوعـة ملكـت قلبـي وسـمعي والبصـر
وكـأن الهـم شـخص ماثـل كلمـا أبصـره النـوم نفـر

على أن بشارًا يتخطى هذا الحد ، فيجاري الشعراء ، ويحسب أن ليس لليله نهار ، وذلك في قوله:

أقـول وليلتـي تـزداد طـولاً أمـا لليـل بعـدهم نهـار

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

وليس للبيت الثاني قيمة من الوجهة الأدبية ، لأن الغمض لا يجفو العيون ، لقصر الجفون ، كما يقول. وإنما يجفوها لثورة الوجد ، وهجمة الأشجان !

ويقول في كلمة ثانية:

خليلي ما بال الدجى لا تزحزح وما لعمود الصبح لا يتوضح
أضل النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال على الليل حتى كأنه بليلين موصول فما يتزحزح

والبيت الأخير يذكرني بقول صاحب البدائع:

وجن علي الليل حتى حسبته جفاء كريم أو رجاء لئيم

وإن كان هذا في الحديث عن ظلام الليل ، لا عن طوله

وتروقني البساطة في قول سويد بن أبي كاهل:

وإذا ما قلت ليل قد مضى عطف الأول منه فرجع
يسحب الليل نجومًا ظلعا فتواليها بطيئات التبع

والخيال هنا خيال بادية. ولكنه في بداوته بديع. وقول الآخر:

سلو مضجعي هل قر من بعدكم وهل عرفت طعم الرقاد جفوني
سهرنا بنعمانٍ ونمتم ببابل فيا لعيونٍ ما وفت لعيون

وهو يذكرني بقول بعض الأعراب:

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى بكم مثل ما بي إنكم لصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم ولا ساغ لي بين الجوانح ريق
إذا زفرات الحب صعدن في الحشا كررن فلم يُعلم لهن طريق

ومما جمع بين الشكوى من لليل الفراق ، وذكرى ليل الوصال قول عبد الرحمن بن هشام:

طال عمر الليل عندي مذ تولعت بصدي

يـــا غـــرالا نقـــض العهـــ ـــــد ولـــم يـــوفِ بوعـــد
انســـيت العهـــد أذبتـــ ـــــنا علـــى مفـــرش ورد
واجتمعنـــا فـــي وشـــاحٍ وانتظمنـــا نظـــم عقـــد
ونجـــوم الليـــل تحكـــى ذهبًـــا فـــي لازورد

ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب ، كقول ابن زيدون:

يـــا ليـــل طـــل لا اشـــتهي إلا لعهـــدي قصـــرك
لـــو بـــات عنـــدي قمـــري مـــا بـــت أرعـــى قمـــرك

وليالي القمر في سنتريس عذبة المذاق ، شهية الورود ، وما أحسب المصريين عبدوا النيل إلا حين رأوه يداعب القمر في ضواحي سنتريس ، ذات الظلال والأفنان.

ليـالي النيـل واللـذات ذاهبـة وجـدي علـيكن أشـجاني فأضـناني
لـو يرجـع الـدهر لـي مـنكن واحـدة فـي سـنتريس ويـدني بعـض خُلانـي
إذن تبـين دهـري كيـف يرحمنـي مـن ظلـم همـي ومـن عـدوان أحزانـي

وقد أجاد شعراء العصر وصف الأرق في الليل الطويل. فمن ذلك قول شوقي:

بـــدأ الطيـــف بالجميـــل وزادا يـــا رســـول الرضـــا وقيـــت العثـــارا
خـذ مـن الجفـن والفـؤاد سـبيلا وتـــيمم مـــن الســـويداء دارا
أنـت إن بـت فـي الجفـون فأهـل عـــادة النـــور ينـــزل الأبصـــارا
زارو الحـرب بـين جفنـي ونـومي قـــد أعـــد الـــدجي لهـــا أوزارا
ســألتني عـــن النهـــار جفـــوني رحـــم الله يـــا جفـــوني النهـــارا
قلـن نبكيـه قلـت هـاتي دموعًـا قلـن صـبرًا فقلـت هـاتي اصـطبارا
يـا ليـالي لـم أجـدك طـوالاً بعـد ليلـي ولـم أجـدكِ قِصـارا
إن مـن يحمـل الخطـوب كبـارًا لا يبـــالي بحملهـــن صـــغارا
لـم نفـق منـك يـا زمـان فنشـكو مـدمن الخمـر لـيس يشـكو الخمـارا

وقال حافظ:

سكن الظلام وبات قلبك يخفق ... وسطا على جنبيك هم مقلق
حار الفراش وحرت فيه فأنتما ... تحت الظلام معذب مورق
درج الزمان وأنت مفقود المنى ... ومضى الشباب وأنت ساهٍ مطرق

وقال القاياتي:

جن الظلام فما يزاح ... يا ويلتا اين الصباح
ليل كأن نجومه ... يطلعن في كبدي جراح
يا من اتاح لي الأسى ... برد الفؤاد متى يتاح
قلب اساه لاعج ... لولا تحجبه لفاح
ما بال دمعي يستبا ... ح وحاجتي ليست تباح

وقال العقاد يخاطب الليل:

طويت أزمة الأجساد منا ... فدانت وانطون عنك القلوب
فما تدري أتسكن حين مالت ... إلى تلك المضاجع أم تجوب
وما تدري أباتت في جحيم ... أم الجنات مرتعها الخصيب
وما تدري أيسمع في دجاها ... هتاف للبلابل أم نعيب
عقدت من الكرى وطنًا رفيقًا ... وكل مسهدٍ فيه غريب
تضيق به الوسائد والحشايا ... وتلفظه المسالك والدروب
وحيد لا يقاربه بعيد ... ولا يدري بلوعته القريب
فيا وطن النيام بكل فج ... أمن حرج بك السهد المريب
ويا سكن الأحبة والأعادي ... أليس بساحليك لنا نصيب
ويا دار السلام بأي سد ... يصد الطرف مربعك الرحيب
لئن هجعت بساحتك المآقي ... لما هجعت بساحتك الخطوب
كأن جموعهن سباع ليلٍ ... تبيت على فرائها تلوب
فهل عند الظلام لنا حديث ... يحاذر أن يلم به رقيب
أم ادخر الظلام لنا متاعًا ... يضن بلمحه الحلم الكذوب

سـهرنا يـا ظـلام فلـم يصـبنا على طـول المـدى إلا الشـحوب
وإلا حلكـةً فيهـا تلاقـي سـواد القلـب والطـرف الكئيـب

والعقاد يكثر في شعره من شكوى الليل الطويل ، وقد يشجيك حين ينظر إلى نفسه فيحسبها من اليأس أمست وهي خراب ينعب على أطلالها البوم. وانظر كيف يقول:

وناعبـةٍ صـاحت والليـل هجعـة فقـال عـلام البـوم ينبعـه ناعيـا
لقبحت من عمياء تقرأ في الدجى إذا اسـود أسـطار الخـراب الخوافيـا
فقلت على النفس التي تسوف تغتدي طلـولاً بأحنـاءِ الضـلوع حوانيـا
تجـوس أفـاعي الحـزن فـي جنباتهـا ويـا ربمـا تـؤوي الضـلوع الأفاعيـا
فـلا تحسـبن البـوم تنعـى المغانيـا فقـد تنـدب البـوم النفـوس البواليـا
وكم وحشةٍ للنفس يخشى اقتحامها أخـو غمـراتٍ لـيس يخشـى الفيافيـا

وما أجمل قوله في هذه القصيدة:

ولمـا تقضـي الليـل إلا أقلـه وحـان التنـائي جشـتُ بالـدمع باكيـا
فأقبـل يرعـاني ويبكـي وربمـا بكـى الطفـل للبـاكي وإن كـان لاهيـا
وزحزحنـي عنـه بكـف رفيقـةٍ وأسـبل أهـداب الجفـون السـواجيا
يقـول لقـد ران الكـرى وتفرقـت نجـوم الـدجى والـديك أصـبح داعيـا
فقلـت وكـم مـن ليلـةٍ إثـر ليلـةٍ سـهرت وقـد أمسـيت وحـدك غافيـا
فهـب لـو داعـي مـن رقـادك ليلـةً تمـر فـاني وقـد وهبـت حياتيـا
وأسـلمتُ كفـي كفـهُ فأعادهـا وقلبـي ! فهـلا أرجـع القلـب ثانيـا؟

الطبيعة في أنفس الشعراء

لقد أكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعه ، حتى لتحسب أن ذلك سمة من سماتهم ، لا يشاركهم فيها أحد من العالمين.

ونريد أن نبين في هذه الكلمة أن شعراء العرب وردوا هذا المنهل ، ونفعوا صداهم بمائه العذب الفرات ، فإن الطبيعة ملك لجميع العيون ، في جميع الأقطار والشعور بها ، والجنوح إليها ، من حاجات الفطرة ، التي تسوي بين مختلف الشعوب ، والتي تجمع حولها شتى العواطف والأهواء.

ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكروا من وصف السحاب: إذ كانت بلادهم غزيرة المطر ، وإذ كانت آذانهم ، وأبصارهم ، أليفة لدوي الرعد. ولمع البرق. على أن شعراء العرب لم يقصروا في هذا الباب. ويكفي أن نذكر قول البحتري يصف سحابة:

ذات ارتجازٍ بحنين الرعدِ ... مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجدِ ... لها نسيم كنسيم الورد
ورنةٌ مثل زئير الأسد ... ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد ... فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد ... ومن وشي انوار البربى في برد
كأنما غدرانها في الوهد ... يلعبن من حبابها بالنرد

ومن أظهر الدلائل على سكون العرب إلى الطبيعة ، وإخلادهم إلى مواردها الشهية يقرنون الحنين إلى معاهدهم بالدعاء لها بالسقيا وتراوُح النسمات.

وإليك قول الشريف:

أمعاهد الأحباب هل عود إلي ... مغدى نبل به الجوى ومراح
يكفيك من أنفسنا ودموعنا ... أن تمطري من بعدنا وتراحي

فلـرب عـيش فيـك رق نسـيمه كالمـاء رق علـى جنـوب بطـاح
وتغـزل كصـبا الأصـائل أيقظـت ريـا خُزامـي بـاللوى واقـاح
كـم فيـك مـن صـاحي الشـمائل بالـدل أو مرضـى العيـون صـحاح
منـتش وسـقى النـوازل فيـه صـوب الـراح
فسـقى اللـوى صـوب الغمـام ورده

وقد يقوى شعورهم «بشخصية» الطبيعة ، حتى ليخاطبون الفلك الدائر ، وينذرونه بالفناء ! انظر قول البحتري:

أنـاةً أيهـا الفلـك المـدار انهـب مـا تصـرف ام جبـار
سـتفنى مثـل مـا تفنـى وتبلـى كمـا تُبلـى فيـدرك منـك ثـار
تنـاب النائبـات إذا تناهـت ويـدمر فـي تصـرفه الـدمار
ومـا أهـل المنـازل غيـر ركـبٍ مطايـاهم رواحٌ وابتكـار

وانظر قول أبي القاسم ابن هانيء:

تفنـى النجـوم الزهـر طالعـة والنيـران الشـمس والقمـر
ولـئن تبـدت فـي مطالعهـا منظومـة فلسـوف تنتشـر
ولـئن سـعى الفلـك المـدار بهـا فلسـوف يُسـلمها وينفطـر

وانظر قول العتابي في وداع جارية له:

مـا غنـاء الحِـذار والإشـفاق وشـآبيب دمعـك المهـراقِ
ليس يقوى الوجد منك على الوجـ ـد ولا مقلتـا طلـيح المـآقي
غـدرات الأيـام منتزعـات ماجنينـا مـن طـول هـذا العنـاق
إن قضـى الله أن يكـون تـلاقٍ بعـد مـا تنظـرين كـان تـلاقِ
هـوني مـا عليـك واقنـي حيـاءً لسـت تبقـين لـي ولسـت بـاق
أثنـا قـدمت صـروف المنايـا فالـذي أخـرت سـريع اللحـاق
غُـر مـن ظـن أن تفـوت المنايـا وُعراهـا قلائـد الأعنـاق
كـم صـيفين مُتعـا باتفـاقٍ ثـم صـارا لغربـة وافتـراق

قلت للفرقدين والليل مُلقٍ سود اكنافه على الآفاق
أبقيا ما بقيتما سوف يُرمى بين شخصيكما بسهم الفراق

وإنما قلت «شخصية الطبيعة» لأدل القاريء على مبلغ ما سما إليه العرب حين كلفوا بالنظر إلى الوجود... وانظر قول الحسن بن وهب في وصف النار وقد نفرت منها إحدى الجواري الحسان:

بأبي. كرهت النار حتى أبعدت فعلمت ما معناك في إبعادها
هي ضرةٌ لك في التماع ضيائها وهبوب نفحتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك في القلوب صنيعها بسيالها واراكها وعدادها
شركتك في كل الأمور بفعلها وضيائها وصلاحها وفسادها

ولينظر القاريء نظرة خاصة إلى قول علي بن شعيب:

انزعي الوشي فهو يسترحسنًا لم تحزه برقمهن الثياب
ودعيني عسى أقبل ثغرًا لذ فيه اللمى وطاب الرضاب
وعجيب أن تهجريني ظلمًا وشفيعي إلى صباك الشباب

فإنا نجده تخطى كل الأسوار الصناعية التي يحيط بها الشعراء أغراضهم ، ثم هجم على المعنى وأخذ بنواصيه ، حين قال «وشفيعي إلى صباك الشباب» ولم يقل: وشفيعي إلى صباك حبي وهيامي ، ووجدي وغرامي ، وخشوعي وخضوعي. إلى آخر ما يقول المتيمون !

وانظر قول محمد البطليوسي:

غصبوا الصباح تقسموه خدودًا واستنهبوا قضب الأراك قدودا
رأوا حصا الياقوت دون محلهم فاستبدلوا منه النجوم عقودا
واستودعوا حقد المها اجفانهم فسبوا بهن ضراغما وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والضبا حتى استعانوا اعينًا ونهودا
وتضافروا بضفائرٍ أبدت لنا ضوء النهار بليلها معقودا
صاغو الثغور من الأقاحي بينها ماء الحياة لو اغتدى مورودا

ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة ، ولن يغيب على أحد ما فيه من سمو الخيال. وانظر كيف يكون كمون الحتف في الجفون ، وكمون الموت في السيوف. في قول السريّ الرفاء:

بنفسي من أجود له بنفسي ... ويبخل بالتحية السلام
ويلقاني بعزة مستطيلٍ ... وألقاه بذلة مستهام
وحتفي كامن في مقلتيه ... كمون الموت في حد الحسام

ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية فكأنما يريدون أن يشركوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم. وهذا في ذاته ملحظ بديع.

ولننظر قول صردر:

يقول خليلي والظباء سوانح ... أهذي التي تهوى ؟ فقلت نظيرها
لئن اشبهت أجيادها وعيونها ... لقد خالفت اعجازها وصدورها
فيا عجبًا منها يصد انيسها ... ويدنو على ذعر إلينا نفورها
وما ذاك إلا أن غزلان عامرٍ ... يثقن بأن الزائرين صقورها
ووالله ما أدري غداة نظرننا ... أتلك سهام أم كؤس تديرها
فإن كن من نبلٍ فأين حفيفها ... وإن كن من خمر فأين سرورها
أيا صاحبي أستأذنا لي خمرها ... فقد أذنت لي في الوصال خدورها
هباها تجافت عن خليل يروعها ... فهل أنا إلا كالخيال يزورها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنة ... أما هذه فوق الركائب حُورها
فلا تحسبي قلبي طليقًا فإنما ... له الصدر سجن وهو فيه أسيرها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلةٍ ... وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
وإن فروع البان من أرض بيشةٍ ... حبيب إلى ظلها وحرورها
ألذ من الورد الجني عرارها ... وأحلى من الشهد المصفى بريرها
على رسلكم في الحب إنا عصابة ... إذا ظفرت في الحب عف ضميرها

ولسنا بصدد الموازنة بين شعراء الغرب والشرق في النظر إلى الطبيعة ، فإن هذا باب طويل. وإنما نشير فقط إلى أن الناس سواء في الإحساس بمظاهر الوجود. وإنما يختلفون في طرائق التعبير ، وأساليب البيان.

مداراة الرقباء

للعشاق أساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة. فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم. كقول ابن المعتز:

ارد الطرف من حذري عليه ... وامنحه التجنب والصدودا
وارصد غفلة الرقباء عنه ... لتسرق مقلتي نظرًا جديدًا

وكقول السري الرفاء:

ونواظرٍ وجد المحب فتورها ... لما استقل الحي في أغضائه
ما كان هذا البين أول جمرة ... اذكت لهيب الشوق في أحشائه
لولا مساعدة الدموع ودفعها ... خوف الفراق أتى على حوبائه[1]
وأنا الفداءُ لمن مخيلة برقه ... حظي وحظ سواي من أنوائه
قمر إذا ما الوشي صين أذاله ... كيما يصون بهاءه بدهائه[2]
خفر الشمائل لو ملكت عناقه ... يوم الوداع وهبته لحيائه
ضعفت معاقد خصره وعهوده ... فكأن عقد الخصر عقد وفائه
ادنو إلى الرقباء لا من حبهم ... واصد عنه وليس من بغضائه

وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العميري:

أيا نخلة مر أن هل لي اليكما ... علا غفلات الكاشحين سبيل
أمنيكما نفسي إذا كنت خاليًا ... ونفعكما إلا العناء قليل
وما لي شيء منكما غير أنني ... أمني الصدى ظليكما فأطيل

ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة. كقول أحد الشعراء:

---

[1] الحوباء: النفس.

[2] أذاله: أهانه.

تبـدل هـذا السـدر أهـلا وليتنـي أرى السـدر بعـدي كيـف كـان بدائلـه
وعهدي به عذب الجنى ناعم الذرى تطيـب وتنـدى بالعشـي أصـائله
فمـا لـك مـن سـدرٍ ونحـن نحبـه إذا مـا وشـى الواشـي بنـا لا تجادلـه
كمـا لـو وشـى بالسـدر واش ردتـه كثيبًـا ولـم تصـلُح لـدينا شـمائله

وكقول كثير:

فيـا عـز إن واشٍ وشـى بـي عنـدكم فـلا تكرميـه أن تقـولي لـه أهـلا
كمـا لـو وشـى واشٍ بعـزة عنـدنا لقلنـا: تزحـزح لا قريبًـا ولا سـهلا

وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة ، فيما أدعوا من سلوانه ، كقول أبي حية النميري:

وخبـرك الواشـون إن لـن أحـبكم بلـى وسـتور الله ذات المحـارم
وإن دمًـا لـو تعلمـين جنيتـه علـى الحـي جـاني مثلـه غيـر سـالم
اصـدر ومـا الصـد الـذي تعلمينـه عـزاءً بنـاء إلا ابـتلاع العلاقـم
حيـاءً وتقيـا أن تشـيع نميمـة بنـا وبكـم ، أفٍ لأهـل النمـائم

ومن المعذبين من يشجيه أن لا ينفع العذل عنده ، في حين أن من يهواه يأتمر بأمر الوشاة. ويسمع نُصح اللائمين.

فمن ذلك قول الأبيوردي:

رمتني بسهم راشه الكحل بالردى واقتـل ألحـاظ المـلاح كحيلهـا
مريضـة أرجـاء الجفـون وإنمـا أصـح عيـون الغانيـات عليلهـا
فولـت وقـد أبقـت بقلبـي علاقـة تمـر بهـا الأيـام وهـي مقيلهـا
وقلـت لأدنـى صـاحبي وقـد وشـى بسـري دمعـي إذ تـراءت حمولهـا
ذر اللوم أني لست أرعيك مسمعي فتلـك هـوى نفسـي وأنـت خليلهـا
وليـت لسـانًا أرهـف العـذل غربـه علـى الصـب مفلـول الشـباة كليلهـا
أرد عـذر لـي وهـو يحضـني الهـوى بغـيظ ، ويحظـى بـالقبول عـذولها
ويعتـادني ذكـر العقيـق وأهلـه بحيـث الحمـام الـورق شـادٍ هـديلها
تنـوح وتبكـي فـوق أفنـان أيكـةٍ فـداهن مـن أرض العـراق تخيلهـا

ولــولا تبــاريح الصــبابة لــم أبــل بكاهـــا ولا اذرى دمـــوعي عويلهـــا

ومن بديع الشعر في مدافعة الوشاة ، قول الرصافي الأندلسي في غلام حائك:

قـالوا وقـد أكثـروا فـي حبـه عـذلي لـو لـم تهـم بمـذال القـدر مبتـدلِ
فقلت لو كان أمري في الصبابة لي لاختـرت ذاك ولكـن لـيس ذلـك لـي
علقتـــه حبـــي الثغـــر عـــاطره حلـو اللمـى سـاحر الأجفـان والمقـل
غزيـل لـم تـزل مـن الغـزل جائلـةً بنانـــه جـــولان الفكـــر فـــي الغـــزل
جــزلان تلعــبُ بــالمحواك أنملــه علـى السـدى لعـب الأيـام بالأجـل
ضــما بكفيــه أو فصــحًا بأخمصــهِ تخــبط الظبــي فــي أشــراك محتبــل

وأحب لو تأمل القاريء هذه (الصورة الشعرية) التي تمثل هذا الحائك الجميل. بالظبي بتخبط في الأشراك. وأنها لوثبة من وثبات الخيال.

بخل الحسان

نذكر هنا طرفًا مما قال الشعراء في بُخل الحِسان: وكل حسناء بخيلة ، ودل جميل ضنين ! وأشهر الشعر في هذا المعنى قول مهيار:

يا لواة الدين عن ميسرةٍ ... والبخيلات ما كن لئاما
حملوا ريح الصبا نشركم ... قبل أن تحمل شيحًا وخزامي
وابعثوا لي في الكرى طيفكم ... إن أذنتم لجفوني أن تناما

ويجمل بنا أن نذكر قصيدة كثير التائية ، ففيها صورة شعرية لصدق اللوعة ، عند بخل الحبيب. وهي فوق ذلك غُرة من غرر الآداب العربيه. قال:

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم أبكيا حيث حلتِ
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ... ولا موجعات القلب حتى تولت
فقد حلفت جهدًا بما نحرت له ... قريش غداة المأزمين وصلت
أناديك ما حج الحجيج وكبرت ... بفيفا غزال رفقة واهلت
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها ... كنا ذرة نذرًا فأوفت وحلت
فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذ أوطنت يومًا لها النفس ذلت[1]
ولم يلق إنسانٌ من الحب ميعةً ... تعم ولا غماءَ إلا تجلت[2]
كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشي بها العصم زلت[3]

---

[1] ذلت هانت.

[2] الميعة والغماء ، الشدة ، وتجلت ، انصرفت.

[3] العصم ، جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر. وزلت: زلقت.

صفوحًا فما تلقاك إلا نجيلة ... فمن مل منها ذلك الوصل ملت[1]

أباحت حميً لم يرعه الناس قبلها ... وحلت تلاعًا لم تكن قبل حُلت[2]

فليت قلوصي عند عزة قيدت ... بحبل ضعيف غُر منها فضلت

وغودر في الحي المقيمين رحلها ... وكان لها باغٍ سواي فبلت[3]

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ... ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وكنت كذات الظلع لما تحاملت ... على ظلعها بعد العثار استقلت[4]

أريد الثواء عندها وأظنها ... إذا ما أطلنا عندها المكث ملت

فما أنصفت أما النساء فبغضت ... إلي وأما بالنوال فضنت

يكلفها الغيران شتمي وما بها ... هو أني ولكن للمليك استدلت

هنيئًا مريئًا غير داءٍ مخامرٍ ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

فوالله ما قاربت إلا تباعدت ... بصرمٍ ولا أكثرتُ إلا أقلت

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبًا ... وحقت لها العتبى لدينا وقلت[5]

وإن تكن الأخرى فإن وراءنا ... منادح لو سارت بها العيس كلت[6]

فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت ... بعافية أسبابه قد تولتِ

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلتِ[7]

ولكن أنيلي واذكري من مودةٍ ... لنا خُلة كانت لديكم فطلت

فإني وإن صدت لمئنٍ وصادق ... عليها بما كانت إلينا أزلت[8]

---

[1] صفوح ، معرضة.

[2] التلاع ، جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض.

[3] بلت المطية: ضلت.

[4] ضلع البعير: غمز في مشيه. واستقل: نهض من عثرته.

[5] العتبي والاعتاب: الترضية.

[6] المنادح: جمع مندوحة وهي ما اتسع من الأرض.

[7] تقلت: ظهرت بالقلى وهو البغض. ومقلية: مغبوضة.

[8] أزلت: أسدت.

فما أنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامت إن نعل عزة زلت
فلا يسحب الواشون أن صبابتي بعزة كانت غمرة فتجلت
فأصبحت قد أبللت من دنفٍ بها كما ادفنت هيماء ثم استبلت[1]
فوالله ثم الله ما حل قبلها ولا بعدها من خُلة حيث حلت
وما مر من يوم علي كيومها وإن عظمت أيام أخرى وجلت
واضحت بأعلى شاهق من فؤاده فلا القلب يسلوها ولا العين ملت
فيا عجبًا للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وطنت كيف ذلت[2]
وإني وتهيامي بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكا لمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت
كأني وإياها سحابة ممحل رجاها فلما جاوزته استهلت[3]
فإن سأل الواشون فيم هجرتها فقل نفسُ حر سليت فتسلت[4]

ومن الشعراء من ينص على أن شح الحسان سماحة ، كالتهامي حين يقول:

ماتت للقد الظاعنين ديارهم فكأنهم كانوا بها أرواحا
ولقد عهدت بها فهل أرينه مغدىً لمنتجع الصبى ومراحا

---

[1] أبل من مرضه بريء منه. والدنف المرض. والهيماء: المريضة بالهيام وهو داء يصيب الإبل فلا تصبر على الماء.

[2] الاعتراف: الاصطبار. وذلت: رضيت.

[3] ممحل: أصابه المحل وهو القحط.

[4] تلك هي تائية كثير. ولقد كان بها جد مفتون. حتى أنه سئل أنت أشعر أم جميل؟ فقال: بل أنا. فقيل له: أتقول هذا وأنت راويته ؟ فقال: جميل يقول:

رمى الله في عيني بنينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح

وأنا أقول:

هنيئًا مريئًا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

بالنافثـــات النافـــذات نـــواظرًا والنافـــذين أســـنة وصـــفاحا
وأرى العيـــون ولا كـــأعين عـــامرٍ قـــدرًا مـــع القـــدر المتـــاح مُتاحـــا
متـــوارثي مـــرض الجفـــون وإنمـــا مـــرض الجفـــون بـــأن يكـــن صـــحاحا
مـــن كـــان يكلـــف بالأهلـــة فليـــزر ولـــدي هـــلال رغبـــة وبراحـــا
لا عيـب فـيهم غيـر شـح نسـائهم ومـــن الســـماحة أن يكـــن شـــحاحا
طرقتـــه فـــي أترابهـــا فجلـــت لـــه وهنـــا مـــن الغـــرر الصـــباح صـــباحا
أبـــرزن مـــن تلـــك العيـــون أســـنةً وهـــززن مـــن تلـــك القـــدود رماحـــا
يـــا حبـــذا ذاك الســـلاح وحبـــذا وقـــت يكـــون الحســـن فيـــه ســـلاحا

ويأسى ابن التعاويذي على أن يرجو عطف البخيلة ، وهو جواد الكف. وذلك قوله:

نأيت فحرمت الجفون على الكرى وأغريـــت دمـــع العـــين بـــالهملان
وأعهـد قبـل البـين قلبـي يطيعنـي ولكنـــه يـــوم الـــدواع عصـــاني
ومـا زال مطبوعًـا علـى الصـبر قلبًـا ســـواء بعـــاد عنـــده وتـــداني
فمـا بالـه يـوم النـوى سـار منجـدًا مـع الركـب فـي أسـر الصـبابة عـان
فليـــت طبيبًـــا امرضـــتني جفونـــه وفـــي يـــده منهـــا الشـــفاء شـــفاني
وليت غريمي في الهوى وهو واجد تحـــرج مـــن ليانـــه فقضـــاني[1]
ولولا الهوى يا آل خنساء لم يكن ليملكنـــي مـــنكم خضـــيب بنـــان
ولا بـت فـي أبياتكم سـائلا قـرى بغيـــر قنًـــا أو طالبًـــا لأمـــان
أرجـي جـواد الكـف عطـف بخيلـة وأخشـى حديـد القلـب فتـك جبـان
وقبلـك مـا انهضـتُ عزمـي لحاجـةٍ فأدركتهـــا إلا بحـــد ســـنان
وأولـى بمثلـي أن يكـون مهـادهُ ســـرير حصـــانٍ لا ســـرير حصـــان
وبي أنف أن أقتضي بسوى الظبي ديـوني إذا غيـر الحبيـب لـو أنـي

[1] الليان: مصدر لوى. يقال: لوى غريمه إذا مطله.

الأمر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب ، ثم يجعل الأمر كله للحب. كما أنشد أحمد بن يحيى:

من كان يزعم أن سيكتم حبه ... حتى يَشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للفؤاد بقهره ... من أن يُرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه ... لم يبدُ إلا والفتى مغلوب
إني لأبغض عاشقًا متسترًا ... لم تتهمه أعين وقلوب

وفي هذا المعنى يقول الأقرع بن معاذ القشيري في حبيبة غلبته على قلبه ، واستأثرت به من بين النساء:

يقر بعيني إن أرى ضوء مزنةٍ ... يمانيةٍ أو أن تهب جنوب
لقد شغفتني أم بكر وبغضت ... إلى نساءً ما لهن ذنوب
أراك من الضرب الذي يجمع ... ودونك نسوان لهن ضروب
الهوى ... ذلول بأيام الفراق أديب
وقد كنت قبل اليوم أحسب أنني

وقد وضح هذا المعنى كلا لوضوح في قول الضحاك:

يقولون مجنون بسمراء مولع ... ألا حبذا جن بنا وولوع
وأني لأخفي حب سمراء منهم ... ويعلم قلبي أنه سيشبع
ولا خير في حب يكن كأنه ... شغاف أجنته حشًا وضلوع

ومن العشاق من يخلع العذار ، لروعة الحسن في محبوبه ، وصولة الحب في قلبه. كقول عمارة اليمني:

ظبي اعار الليل طرة شعره ... وأمد ضوء الصبح بالاشراق

وسـنان ذاب السـحر فـي آماقـه وأذاب مـاء الـروح مـن آمـاقي
كتب الجمال على صحيفة خده عـذر المحـب وحجـة المشـتاق
مـا كنـت أدرى يـوم رؤيـة وجهـه إن الخـدود مصـارع العشـاقِ

وأحب أن يتأمل القاريء جمال التصوير في قوله:

وسـنان ذاب السـحر فـي آماقـه شـهي وأذاب مـاء الـروح مـن آمـاقي

فقد جعل الدمع ذوب الروح ، وهو خيال بديع[1]. وعذر المحب الذي كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء:

يـا مليـح الـدل والغـنج لـك سـلطان علـى المهـج
إن بيتًـا أنـت سـاكنه غيـر محتـاجٍ إلـى السـرج
وجهـك المعشـوق حجتنـا يـوم يـأتي النـاس بـالحجج

[1] في كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمال ، كتبها المؤلف في وصف ليلة من ليالي الرقص في مصر الجديدة ، فليراجعها القاريء إن شاء.

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد. فمنهم من يقصد إلى غرس الرفق في قلوب أحبابه ، بوصف ما هو عليه من الخطر ، كقول الطغرائي:

ويا أيها الغادي تحمل رسالة على ما بها إن الحديث طويل
وقل للأولى حلوا الحمى سقي الحمى عزاءكم فالعامري قتيل

ومنهم من يوصي الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه. وأطرف ما قيل من الشعر في هذا المعنى قول الوأواء الدمشقي:

بالله ربكما عوجا على سكنى وعاتباه لعل العتب يعطفه
وحدثاه وقولا في حديثكما ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولا في ملاطفة ما ضر لو بوصال منك تعسفه
وإن بدا لكما في وجهه غضب فغالطاه وقولا ليس نعرفه

وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في وصف قوادة:

فأتتها طبة عالمة تمزج الجد مرارًا باللعب
تُغلظ القول إذا لانت لها وتراخى عند سورات الغضب

قيل أن ابن أبي عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر: ما أحوج المسلمين إلى خليفة يدير أمورهم مثل قوادتك هذه[1]. ولعله تذكر قول معاوية: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل وكيف ذاك ؟ فقال إذا شدوا تراخيت وإن تراخوا شددت:

وقد تلطف البها زهير في وصية الرسول بقوله:

فيا رسولي إلى من لا أبوح به إن المهمات فيها يعرف الرجل

---

[1] في كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء.

بلغ سلامي وبالغ في الخطاب له وقبل الأرض عني حينما تصل
بالله عرفه حالي إن خلوت به ولا تطل فحبيبي عنده ملل

وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله:

إن المهمات فيها يُعرف الرجل

فكأنما هي قيادة حربية ، لا قيادة غرامية !

ومنهم من يحمل النسيم تحياته إلى من يهوى. كمتا قال بعض الظرفاء:

فيا نسيم الصبا أنت الرسول له والله يعلم أني منك غيرانُ
بلغ سلامي إلى من لا أكلمه إني على ذلك الغضبان غضبان
لا يا رسولي لأتذكر له غضبي فذاك مني تمويه وبهتان
وكيف أغضب لا والله لأغضب إني لما رام من قتلي لفرحان
أكل يوم لنا رسل مرددة وكل يوم لنا في العتب ألوان
أستخدم الريح في حمل السلام لكم كأنما أنا في عصري سليمان

وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب في اختيار النسيم لحمل الرسالة حين قال:

أنا أهوى غصن النقا وهولاهٍ وفؤادي بحبه في التيه
يا نسيم الصبا ترفق عليه وتلطف به ولا تؤذيه
وتحمل رسالة ليس إلا ك أمينًا في حملها أرتضيه
وإذا لم يكن رسولي نسيما نحو غصن النقا فمن يثنيه

وأظهر من ذلك ما حُكي أن ابن سعيد المغربي مشى مع جماعة من أدباء المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار. فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، فهبت الريح فكشفت ثيابه عنه. فقال الجزار: قفوا ! لينظم كل منا شيئًا في هذا ! فقال ابن سعيد:

الريح أقودُ ما تكونُ لأنها تُبدي خفايا الردف والاعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل أوجه الغدران

ولـــذلك الأحبـــاب يتخـــذونها رســـلا إلـــى الأحبـــاب والأوطـــان

وهو شعر حسن. غير أنه لا وجه لذكر الأوطان في هذا الموطن إذ لا علاقة لها بالقيادة. ولو قال الخلان أو الأخدان لكان انسب وأقرب إلى المراه. وقال ابن الخياط:

يـا نسـيم الصـبا الولـوع بوجـدي حبـــذا أنـــت لـــو مـــررت بهنـــدِ
ولقـــد رابنـــي شـــذاك فبالله ـــه متـــى عهـــده بـــأظلال نجـــد

ومنهم من يوصي الركبان بحمل سلامه ، وتبليغ شكواه ، كقول الشريف:

دعـا بالوحـاف السـود مـن جانـب لـديغ هـوى لبيـت حـين دعـاني
الحمـــــــــــــــــى حـــوابي لمـــا لـــم تســـمع الأذنـــان
تعجب صـحبي من بكـائي وأنكـروا بلـــى إن قلبـــي ســـامع وجنـــاني
فقلت نعم لـم تسـمع الأذن دعـوة طليقًـا بـأعلى الخيـف أنـي عـاني
ويـا أيهـا الركـب اليمـانون ختبـروا ألا ربمـــا دانيـــت غيـــر مـــدان
عـدوه لقـائي أو عـدوني لقـاءه

وهذا شعر موجع ، يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، وأشجى منه قول مهيار:

تحرش بأحقاف اللوى عمر ساعةٍ ولـولا مكـان الريـب قلـت لـك ازددِ
وقل صاحب لي ضل بالرمل قلبه لعلـــك أن يلقـــاك هـــادٍ فتهتـــدي
وسـلم علـى مـاءٍ بـه بُـرد غُلتـي وظـــل أراكٍ كـــان للوصـــل موعـــدي
وقُـــل لحمـــام البـــانتينِ مهنئًـــا تغـــن خليًـــا مـــن غرامـــي وغـــردِ
أعنـــدكم يـــا قـــاتلين بقيـــة علـى مهجـةٍ إن لـم تمـت فكـأن قـد
ويـا أهـل نجـدٍ كيـف بـالغور بعـدكم بقـــاء تهـــامي يهـــيم بمنجـــد
ملكـــتم عزيـــزًا رِقُّـــةُ فتعطّفـــوا علـــى منكـــرٍ للـــذل لـــم يتعـــود

وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال: خرجت مع الحسن بن رجاء إلى فارس فلما صرنا إلى موضع يعرض بشعب بوان رأيت على حائط مكتوبًا بخط جليل:

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة علـى شـعب بـوانٍ أفـاق مـن الكـرب

وألهـــاه بطـــن كـــالحريرة مســـه ومطـرد يجـري مـن البـارد العـذاب
وطيـب ثمـار فـي ريـاض أريضـةٍ وأغصـان أشـجار جناهـا علـى قـرب
فبـالله يـا ريـح الجنـوب تحملـي إلـى شـعب بـوانِ سـلام فتـى صـب

وإذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه:

فبـع ليـت شـعري عـن الـذين تركتنـا خلفنـــا بـــالعراق هـــل يـــذكرونا
أم لعـــل المـــدى تطـــاول حتـــى قـــدُم العهـــد بيننـــا فنســـونا

ولا يفوتنا أن نمتع القاريء بقول الشريف:

حـــي بـــين النقـــاوبين المصـــلى وقفـــات الركائـــب الأنضـــاء
ورواح الحجـــيج ليلـــة جمـــع ويجمـــع مجـــامع الأهـــواءِ[1]
وتعهـد ذكـري إذا كنـت بالخيـ ـف لظبـى مـن بعـض تلـك الظبـاء
قـل لـه هـل نـراك تـذكر مـا كـا ن ببـــاب القبيبـــة الحمـــراءِ
قـال لـي صـاحبي غـداة التقينـا نتشـاكى حـر القلـوب الظمـاء
كنـت خبرتنـي بأنـك فـي الوجـ ـد عقيـدي وأن داءك دائـي
مـا تـرى النفـر والترحـل للبيـ ـن فمـاذا انتظارنـا بالبكـاءِ
لـم يقلهـا حتـى انثنيـت لمـا بـي أتلقـى دمعـي بفضـل ردائـي

[1] ترد كلمة «جمع» كثيرًا في شعر الشريف ، وهو من مناسك الحج ، ويوم جمع يوم عرفة ، وأيام جمع أيام منى.

دموع الغانيات

لا نريد هنا الدمع يسفحه الندم ، بل الدمع يرسله الوفاء. لأن عبرة النادم رفق بنفسه التي أفسدها الإسراف. أما عبرة المودع فهي رفق بمحبه الذي أشجاه الفراق !

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع:

إن الـذين غـدوا بلبـك غـادروا وشـلاً بعينـك مـا يـزال مَعِينـا
غيضـن مـن عبـراتهن وقلـن لـي مـاذا لقيـت مـن الهـوى ولقينـا

وهو كلام فطري لا كلفة فيه. وما أبدع قول الظاعنات:

ما لقيت من الهوى ولقينا !

ومثله قول ابن التعاويذي:

لمـا وقفنـا للـودا شـه ع وقـد دعـا داعـي الرحيـل
وتخاذلـت أنصـار دمعـي فـي هـوى الظبـي الخـذول
قالـت وأدمعهـا تسيـل أسـىً علـى الخـد الأسـيل
يـا بـين كـم أجليـت يـو م نـوى الأحبـة عـن قتيـل

وهذا شعر خفيف الروح ، لطيف النسيم. ويشبه قول بعض الأعراب:

ومما شـجاني أنهـا ودعـت تولـت وماء العين في الجفن حائرُ
فلمـا أعـادت مـن بعيـد نظـرةٍ إلـي التفاتًـا أسـلمته المحـاجر

وقد أنصف الأبيوردي معشوقته إذ يقول:

وما أنس لا أنس الوداع وقد بدت تُعـيض دمعًـا فـاض وابلـه سـكبا
مهفهفـة لـم تـرض أترابهـا لهـا ببدر الدجى شبهًا وشمس الضحى تربا
تـنفسُ حتـى يُسـلم العقـدَ سـلكهُ وأكظـم وجـدًا كـاد ينتـزع القلبـا

وتـذري شـآبيب الـدموع كأنمـا أذابـت بعينيهـا النـوى لؤلـؤًا رطبـا

ولو سلمت هذه الأبيات من مثل هذا الغزل الطريف لكان أنسب بموقف التوديع. ومثلها في ذلك قول السري الرفاء:

تنـادوا لتفريـق الفريـق فأصـبحت مـدامعنا تنـدى لفـرقتهم دمـا
سـلام علـى مـن سـار قلـب محبـه إليـه فلـم يرجـع صـحيحًا مسـلمًا
يحـلُّ عقـود الـدر دمعًـا ومنطقًـا وينظمهـا حليصـا عليـه ومبسـما
أمـاط عـن الغـذب اللثـاةِ لثامـه فعـاد بـديباج الحيـاء ملثمـا
وكلمنـي جفنـاه بالـدمع خفيـة فهـم غليـل الشـوق إن يتكلمـا

ومن العشاق من ينسب إلى حبيبته التباكي ، وإلى نفسه مر البكاء ، ثم يفرق بين العبرتين ، ويميز بين الزفرتين. كالأرجاني إذ يقول:

سـفرت كـي تـزود الحـب منهـا نظـرة حـين آذنـت بالتنـائي
ورأت أنهـا مـن الوجـد مثلـي ولهـا للفـراق مثـل بكـائي
فتباكـت ودمعهـا كسـقيط الطـل فـي الجلنـارة الحمـراء
فتـرى الـدمعتين فـي حمـرة اللـو نِ سـواء ومـا همـا بسـواء
خـدها يصـبغ الـدموع دمعـي يصـبغ الخـد قانيًـا بالـدماء
خضـب الـدمع خـدها بـاحمرار كاختضـاب الزجـاج بالصـهباء

وما أدري بأن قلب يلح هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته إلى دماء !! وما أرفق المتنبي إذ يقول:

وجلا الوداع من الحبيب محاسنًا حُسـن العـزاء وقـد جلـين قبـيحُ
فيـد مسـلمة وطـرف شـاخص وحشًـا يـذوب ومـدمع مسـفوح

أمل تر إليه وقد انخلع قلبه ، حين رأى حبيبته باكية ، فلم يذكر إلا أنها جميلة ، وأن الصبر على فراقها أعز منالا من نجوم السماء !

وتعجبني هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء:

فبـع زارت على غفلـة مـن الحـرسِ تهـدي إلـيّ السـلام فـي الغلـسِ
أنـي تجشـمت نحـو أرحلنـا الهـو ل ولـم ترهبـي أذى العسـس
قالـت ترامـى بنـا إليـك مـن الشـو ق مُغِـصٌّ بالبـارد السـلس
كـم زفـرة لـي تبيتـت تـنهض أحشـا ئـي ومـع عليـك منـبجس
وأنـت لاهٍ بغيرنـا ولنـا منـك هـوى ممسـك علـى الـنفس
عجبـت مـن ذلتي ومـن قلبـك القا سـي علينـا وخلقـك الشـكسِ
لا تـأمنن الهـوى وسـطوته واخـش رداه ومنـه فـاحترسِ

وهـذا الشـعر جميـل فـي معنـاه ، ولكـن يظهـر أن أُسـلوبه لا يمثـل الرقـة فـي نجـوى الحسناء ، وقد مسها الحب بناره ، وأحرقها بجواه ! ولو تناول ابن أبي ربيعة أو ابن الأحنف هذا المعنى لرأيت له ثيابًا أرق من هذه الثياب ، وأُسلوبًا غير هذا الأسلوب !

ومن بارع الشعر في دموع الحسان قول جميل:

لمـا دنـا البين بين الحي واقتسـموا حبـل النـوى فهـو فـي أيـديهم قطـع
جـادت بأدمعهـا ليلـى وأعجلنـي وشـك الفـراق فمـا أُبقـي ومـا أدعُ
يا قلب ويحك ما عيشي بذي سلم ولا الزمـان الـذي قـد مـر مُرتجـع
أكلمـا بـان حـي لا تلائمهـم ولا يبـالون أن يشـتاق مـن فجعـوا
علقتني بهـوى غـنهم فقـد جعلـت مـن الفـراق حصـاة القلـب تنصـدع

وهذا الشعر يمثل الطبيعة في مواقف الوداع ، فالشاعر هنا شائق ومشوق. ولا كذلك أبيات الرومي التي حصر دمعها في عيون زائرته الحسناء. ومن هذه الناحية بعجبني ما أنشده صاحب الأمالي:

ولمـا رأت أن النـوى أجنبيـة وأن خلـيلاً مـن غـد سـيبينُ
بكت فبكى من لاعج الشوق والأسى وكـل بكـلٍ إن يبـين ضـنينُ
فقلـت ولـم أملـك سـوابق عبـرة علـى الخـد منـي فالـدموع هتـون
لقد كنت أبكي قبل أن تشحط النوى فكيـف إذا مـا غبـت عنـك أكـون

وانظر كيف يصف العرجي خوف محبوبته من فراقه:

وما أنسِ ملأشياء لا أنس موقفًا لنا ولها بالسفح دون ثبير
ولا قولها وهنًا وقد بل جيبها سوابق دمع لا يخف غزير
أأنت الذي خبرت أنك باكر غداة غد أو راحل بهجير
فقلت يسير بعد شهر أغيبه وما بعض يوم غبته بيسير
وقلت لها قول امريء شفه الهوى إليها ولو طال الزمان فقير
فما أنا إن شطت بك الدار أو نأت بي الدار عنكم فاعلمي بصبور

وكنا نحب أن نعلم بقية العتاب في قوله:

أحين عصيت العاذلين إليكم ونازعت حبلي في هواك أميري
وباعدني فيك الأقارب كلهم وباح بما يخفي اللسان ضميري

ولكن الرواة لم يذكروا هذه القصيدة كاملة.

والشعر الذي تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل ، لأنه من أحاديث الرجال. ولو أن المرأة تكلمت لعرفنا منها وكيف تشعر بلوعة الفراق. وإليك ما قالته امرأة من بني أسد في حبيب بنقض العهود:

بنفسي من أهوى وأرعى وصاله وتنقض مني بالمغيب وثائقه
حبيب أبي إلا اطراحي وبغضتي وفضله عندي على الناس خالقه

وانظر قول ابنة الحباب:

محا حب يحيى حب يعلي ليحيى توالي حبنا وأواثله
فاصبحت وحيث التقت من متن يحيى حمائله
ألا بأبي يحيى ومثنى ردائه

فإن هذا الشعر يمثل إحساس النساء بجمال الرجال. وما أوجع الشوق في قول هذه الشاعرة:

أأُضـرب فـي يحيـى وبينـي وبينـه تنـائف لـو تسـري بهـا الرحـي كلـتِ
الا ليـت يحيـى يـوم عـيهم زارنـا وإن نهلـت منـي السـياط وعلـت

وفي الآداب العربية قطع منثورة تمثل ما تشتهي المرأة من الرجل ، ولكنها من القلة بحيث لا تصور تمامًا نفوس النساء ، ولا تزال لغزًا من الألغاز ، ولو أنها تحدث عن عواطفها كما تحدثت الرجل عن عواطفه ، لعرفنا بعض ما ستره هذا الصمت البليغ !

ندم المفارق

أشهر الشعر في ندم المحب ، على فراق من يحب ، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبني. قال محمد بن زياد الاعرابي: لما ألحّ ذُرَيح على ابنه قيس في طلاق لبني ، فأبي ذلك قيس ، طرح ذريح نفسه في الرمضاء وقال: لا والله. لا أريم هذا الموضع حتى أموت. أو يخليها. فجاءه قومه من كل ناحية ، فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا: أتفعل هذا بأبيك وأمك ، وإن مات شيخك على هذه الحال كنت معينًا عليه وشريكًا في قتله ، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلة صبره. وبكى حتى بكى لهما من حضرهما. وانشأ يقول:

أقول لُخلتي في غير جرمٍ ... ألا بيني بنفسك أنت بيني
فوالله العظيم لنزع نفسي ... وقطع الرجل مني واليمين
أحب إلي يا لبنى فِراقًا ... فبكى للفراق واسعديني
ظلمتك بالطلاق بغير جرمٍ ... لقد أذهبت آخرتي ودِيني

قال: فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديدًا وأنشأت تقول:

رحلت إليه من بلدي وأهلي ... فجازاني جزاء الخائنينا
فمن يرني فلا يغتر بعدي ... بحلول القول أو يبلو الدفينا

فلما انقضت عدتها وأرادت الشخوص إلى أهلها أُتيت براحلة لتحمل عليها. فلما رأى ذلك قيس داخله منه أمر عظيم ، واشتد لهفه ، وأنشأ يقول:

يا بنت لبنى فأنت اليوم متبول ... وأنك اليوم بعد الحزم مخبول
فأصبحت عنك لبنى اليوم نازحة ... ودل لبنى ، لها الخيرات ، معسول
هل ترجعن نوى لبنى بعافية ... كما عهدت ليالي العشق مقبول
وقد أراني بلبنى حق مقتنع ... والشمل مجتمع والحبل موصول

فصرت من حب لبنى حين أذكرها القلب مرتهن والعقل مدخول
أصبحت من حب لبنى حين أذكرها في كربة ففؤادي اليوم مشغول
والجسم مني منهوك لفرقتها أخو هُيام مصاب القلب مسلول
استودع الله لبنى إذ تفارقني عن غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبنى فجعل قيس يقبل موضع رجليها من الأرض وحول خبائها فلما رأى ذلك قومه اقبلوا على أبيه بالعذل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله: قج جنيت عليك يا بُني ! فقال له قيس: قد كنت أخبرك أني مجنون بها فلم ترض إلا بقتلي. فالله حسبك وحسب أمي !! واقبل قومه يعذلونه بتقبيله التراب ، فأنشأ يقول:

فما حبي لطيب تراب أرضٍ ولكن حب من وطيء الترابا
فهذا فعل شيخنا جميعًا أرادا لي البلية والعذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم ، وأدل على لوعته وأسفه لفراق لبنى كقوله:

تُبكي على لبنى وأنت تركتها وكنت كآتٍ غيهُ وهو طائعُ
فلا تبكين في إثر شيء ندامة إذا نزعته من يديك النوازع
فليس لأمر حاول الله جمعه مُشِتٌ ولا ما فرق الله جامع
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها وإن تلقها فالقلب راض وقانع
فيا قلب خبرني إذا شطت النوى بلبنى وصدت عنك ما أنت صانع
اتصبر للبين المشت مع الجوى أم أنت امرؤٌ ناسي الحياء فجازع
فما أنت إن بانت لبينى بهاجع إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
وكيف ينام المرء مستشعر الجوى ضجيج الأسى فيه نكاس روادع
ولا خير في الدنيا إذا لم تُواتنا لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامع
ولولا رجاء القلب إن تعطف النوى لما حملته بينهن الأضالع
له وجبات إثر لبنى كأنها شقائق برق في السحاب لوامع
نهاري نهار الناس حتى إذا دجا لي الليل هزتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني بالليل والهم جامع

ألا إنمـا أبكـي لمـا هـو واقـع ... وهـل جـزع مـن وشـك بينـك نـافع

ومن جيد شعره أيضًا هذه القصيدة:

سأصرم لبنى حبل وصلك مجملا ... وإن كان صرم الحبل منك يروعُ
وسوف أسلي النفس عنك كما سلا ... عـن البلـد النـائي البعيـد نزيـع
وإن مسـني للضـر منـك كآبـة ... وإن نـال جسـمي للفـراق خشـوع
سقى طلل الدار التي أنتم بها ... بشـرقيٍّ لبنـى صـيف وربيـع
يقولـون صـب بالنسـاء مُوكـل ... ومـا ذاك مـن فعـل الرجـل بـديع
مضى زمن والناس يستشفعونني ... فهـل لـي إلـى لبنـى الغـداة شـفيع
أيا حرجات الحي حيث تحملوا ... بـذي سـلمٍ لاجـادكن ربيـع
وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى ... بلـين بلـى لـم تـبلهن ربـوع
إلى الله أشكونية شقت العصا ... هـي اليـوم شـتى وهـي أمـس جميـع
وإن انهمال العين بالدمع كلما ... ذكرتـك وحـدي خاليًـا لسـريع
فلو لم يهجني الظاعنون لها جنى ... حمـائم ورق فـي الـديار وقـوع
تجاوبن فاستبكين من كان ذاهوى ... نـوائح مـا تجـري لهـن دمـوع
لعمرك أني يوم جرعاء مالكٍ ... لعـاص لأمـر المرشـدين مُضـيع
ندمت على ما كان مني ، فقدتني ... كمـا ينـدم المغبـون حـين يبيـع
إذا ما لحانوي العاذلات بحبها ... أبـت كبـد ممـا أجـن صـديع
وكيف أطيع العاذلات بحبها ... يـؤرقني والعـاذلات هجـوع
عدمتك من نفس شعاع فإنني ... نهيتـك عـن هـذا وأنـت جميـع
فقربتِ لي غير القريب وأشرقت ... هنـاك ثنايـا مـا لهـن طلـوع
وضعفني حبيكِ حتى كأنني ... مـن الأهـل والمـال الـتلاد خليـع
وحتى دعاني الناس أحمق مائقًا ... وقـالوا مطيـع للضـلال تبـوع

ويعجبني قوله:

ندمت على ما كان مني ، فقدتني! ... كمـا ينـدم المغبـون حـين يبيـع

وهو في شعره يمثل الفطرة الخالصة من شوائب التكلف ، فإنه فُجع بفر جليلته ، والحلية المعشوقة متاع عزيز.

وفي وصف اثر الطلاق يقول أحد الأعراب:

نـدمت ومـا تغنـي الندامـة بعـدما جـرجن ثـلاث مـا لهـن رجـوع
ثلاث يُحرّ من الحلال على الفتى ويصـدعن شـعب الـدار وهـو جميـع

والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق ، ما كان يغنى عنه أن يقول: (ويصد شعب القلب) لأن فراق الحليلة هدم للبيت من أساسه.

ومن شجى الشعر في ندامة المفارق عينية ابن زريق ، وقد ترك ابنة عمه بغداد ورحل إلى الأندلس في سبيل الرزق ، ثم حيل بينه وبين ما يريد ، فأرسل هذه الزفرة الباقية:

استودع الله في بغداد لي قمرًا يالكرخ من فلك الأزرار مطلعهُ
ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق مني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته كذلك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسًا ثوب النعيم بلا شكر عليه فعنه الله ينزعه
أعتضت من وجه خلي بعد فرقته كأسًا يُجرّع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذنب البين قلت له الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلا أقمت فكان الرشد أجمعه لو أنني حين بات الرشد أتبعه
لو أنني لم تقع عيني على بلد في سفرتي هذه إلا واقطعه
يا من أقطع أيامي وأنفدها حزنًا عليه وليلى لست أهجعه
لا يطمئن بقلبي مضجع وكذا لا يطمئن به مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفعجني به ولا إن بي الأيام تفجعه

حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حقي وتمنعه
وكنت من ريب دهري جازعًا فرقًا ... فلم أوق الذي قد كنت أجزعه
بالله يا منزل القصف الذي درست ... آثاره وعفت مذ بعت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ... أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيث على مغناك يُمرعه
من عنده لي عهد لا يضيع كما ... عندي له عهدي صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لاصبرن لدهر لا يمتعني ... به ولا بي في حال يمتعه
علمًا بأن اصطباري معقب فرجًا ... فأضيق الأمر لو فكرت أوسعه
على الليالي التي اضنت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يومًا وتجمعه
وإن تغل أحدًا منا منيته ... لابد في غده الثاني سيتبعه
وإن يدم أبدًا هذا الفراق لنا ... فما الذي بقضاء الله نصنعه

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومي في فرصة ضاعت منه فعض من بعدها البنان. فلنذكرها على سبيل الفكاهة ، لما فيها من ظرف المجنون:

أستغفر الله من تركي علانية ... ذنبًا هممت به في شادن خنث[1]
ظبي دعتني عيناه ومنطقه ... بنية صدقت عن ظاهر عبث
فلم أجبه وحظي في إجابته ... لكن سكت كأني غير مكترث
لا بل فررت وظل الصيد يطلبني ... والله ما كنت فيها بالفتى الدمث
أقسمت بالله لما كنت محتجزًا ... أني انبعثت بقلب غير منبعث

[1] الشادن: الغزال. والخنث: المتثني.

غربة المحب

نتكلم قليلاً عن غربة المحب ، وكل مهجور غريب ، لأنه الأمر كما قال الشريف

ليس الغريب الذي تنأى الديار به ... إن الغريب قريب غير مودود

فمن الشعراء من يغترب في سبيل حبه. كما قال حذيفة الغنوي:

يقولون من هذا الغريب بأرضنا ... أما والهدايا إنني والغريب
غريب دعاه الشوق واقتاده الهوى ... كما قيد عوم بالزمام أديب[1]
وماذا عليكم إن أطاف بأرضكم ... مطالب دين أو نفته حروب
أمشي بأعطان المياه وأبتغي ... قلائص منها صعبة وركوب

ومن شجي الشعر في غربة المحب قول بعض الأعراب:

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة ... غزال كحيل المقلتين ربيب
فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ... ولكن من تنأين عنه غريب

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يذكر اختصاصه بالبلوى في اغتراب محبوبته:

أرى كل أرض دمنتها وإن مضت ... لها حجج يزداد طيبًا ترابها[2]
ألم تعلمن يا رب أن رُب دعوة ... دعوتك فيها مخلصًا لو أجابها
واقسم لو أني أرى نسبًا لها ... ذئاب الفلا حُبت إلي ذئابها
لعمر أبي ليلى لئن هي أصبحت ... بوادي القرى ما ضر غيري اغترابها

---

[1] العود الجمل ، وأديب ذلول.

[2] دمنتها: مشت عليها.

وغربة المحب تتمثل في حرمانه. وكيف لا يكون غريبًا من يقول:

أيا منشر الموتى أقدني من التي ... بها نهلت نفسي سقامًا وعلتِ
لقد بخلت حتى لو أني سألتها ... قذى العين من سافي التراب لضنت
وما أم بوٍ هالك بتنوفة ... إذا ذكرته آخر الليل حنتِ
بأكثر من لوعةٍ غير أنني ... اطامن أحشائي على ما أجنت

ويظهر أن قذى العين كان في أنفس العرب مثلاً لما لا يضن به ، فقد رددوا ذكره في أشعارهم ، كما قال بعض بني أسد:

وكيف طلابي وصل من لو سألته ... قذى العين لم يطلب وذاك زهيد[1]
ومن لو رأى نفسي تسيل لقال لي ... أراك صحيحًا والفؤاد جليدُ

[1] اطلبه: أعطاه ما طلب.

الأمل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع ، ونقلها إلى الفرنسية حضرة الأديب عبد المجيد عيسى البيه. وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر بعد قسوة الإخفاق.

• • •

تأيمت حتى لا مني كل صاحب رجاء سُليمي إن تئيم كما إمتُ
لئن بعت حظي منك يومًا بغيره لبئس إذًا يوم التغابن ما بعت

كنت أصبر على بأساء الحياة ، واحتمل ما فيها من غم وغم ، لو أن عندي بقية من الأمل أرفه بها أحزائي ، وادفن فيها آلامي ! ولكن حال القنوط دون الرجاء ، وأتى اليأس دون الطمع ، فلم يبق غير الجزع من مُسعد ، ولا سوى النوح من شفاء !

فيا جيرة ما كان أهنأ وردهم ، وأطيب عيشهم ، ويا أحبابًا ذقت الفرح بقربهم ، وعرفت الهمّ لبعدهم ، ويا من أفناني فراقهم ، وكان أحياني لقاؤهم ، وبربكم ما الذي لقيتم بعدي ، فقد لقيت بعدهم ذلا وهوانًا ، وظلمًا وعدوانًا ، ومن عسى أنت يكون قد ظفر بودكم ، ونعِم بحسنكم ، فأصفاكم من الحب أجمله ، ومن الانس أكمله ، فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتي ، وانكر خلتي ، ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب ، وأوليته القرب فأولاني القطيعة ؟ !

فيا ليت شعري من ألوم ؟

أألوم نفسي على أن لم أعق في بركم أهلي وإخواني ، فأسير حيث سرتم ، وأقيم حيث أقمتم.

تفرق أهلي من مقيم وظاعن فيا ليت شعري أي أهلي أتبع
أقام الذين لا أبالي فراقهم وشط الذين بينهم أتوقع

أم ألومكم على أن تركتموني وحيدًا وآثرتم وطنكم ، وأهلكم ، ولم تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه ، وأسير همه ؟

أم ألوم قومًا جعلتهم منكم بدلاً فكانوا شر بدل ، واتخذتهم من بعدكم ذخرًا فكانوا كالهباء ، ورجوتهم حصنًا اتقي به الدهر الخائن ، والزمن الجائر ، فإذا هم أذل من قراد بمنسم ، وإذا المتفيء ظلهم ، والراجي برهم ، يطمع في غير مطمع ، ويلجأ إلى شر وزر ؟ !

أم ألوم دهرًا اضطركم إلى الرحلة فرحلتم ، وحكم علي بالمقام فأقمت ، ثم أمدنا من اليأس لبعد الدار ، وشطا لمزار ، ما جعل الأمر في التلاقي خائبًا ، ورجاء التداني كاذبًا:

وقلما أبقى على ما أرى ... يوشك أن ينعاني الناعي

ما أقتل اليأس لأهل الهوى ... لاسيما من بعد إطماعِ

ما هذا الذي صنعتم ؟ أخضعتم لليأس ، وأذعنتم للقنوط ، ولو ترهبوا العتاب إذ لم تأملوا اللقاء ، فزففتم تلك الشمس إلى غيري ، وآثرتم بها سواي ؟ !

يا عز إن ضاعت عهودي عندكم ... فأنا الذي استودعت غير أمين

أو عدت مغبونًا فما أنا في الهوى ... لكم بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فمللتم – ولا وفاء لملول – فكان منكم ما أقض المضجع ، وأورث الجفن السهاد ، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا ، ونال القنوط منا ؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء.

هي الغاية القصوى فإن فات نيلها ... فكل مُنى الدنيا علي حرام

• • •

وقد نظرت ما قال الشعراء في الأمل الضائع ، ووجدت لهم فيه أفانين ، فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق ، كالذي يقول:

جارية أعجبها حسنها ... فمثلها في الناس لم يُخلق

خبرتها أني محب لها ... فأقبلت تضحك من منطقي

والتفتت نحو فتاة لها كالرشأ الوسنان في قرطق
قالت لها قولي لهذا الفتى انظر إلى وجهك ثم اعشق[1]

ومن جيد الشعر في ضياع الأمل قول عمر بن أبي ربيعة في سُكنية بنت الحسين:

قالت سكينة والدموع ذوارف تجري على الخدين والجلباب
ليت المغيري الذي لم أجزه فيما أطال تصيدي وطلابي
كانت تردُّ لنا المنى أيامنا إذ لا نُلام على هوى وتصابي
خبرت ما قالت فبت كأنما يُرى الحشا بنوافذ النشاب
أسكين ما ماء الفرات وبرده مني على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وإن نأيت وقلما يرعى النساء أمانة الغياب
إن تبذلي لي نائلا أشفى به سقم الفؤاد فقد اطلت عذابي
وعصيت فيك أقاربي فتقطعت بيني وبينهمُ عرى الأسبابِ
فتركتني لا بالوصال مُمسكًا منهم ولا أسعفتني بثواب
فقعدت كالمهريق فضلة مائه في حر هاجرة للمع سراب

ولم أر من الشعراء من بكى الأمل الضائع كما بكاه كثير في قوله:

وادنيتني حتى إذا ما استبيتني بقول يُحل العصم سهل الاباطح
توليت عني حين لالي مذهبٌ وغادرتِ ما غادرت بين الجوانح

وهي صورة شعرية تمثل المحب ، وقد استدرجه محبوبه ، حتى أخذ الطمع بنواصي آماله ، ثم تركه في اللحة الأخيرة ، يتعثر في أذيال الخيبة والقنوط !

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

كم قصد نصبت لك الحبائل طامعًا فنجوت بعد تعرض لوقوعِ
وتركتني ظمآن أشرب غُلتي أسفًا على ذاك اللمى الممنوع

[1] رواية صديقنا الدكتور إبراهيم زكي الساعي لهذا البيت هكذا (انظر لأسنانك ثم اعشق) لأن بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند أطباء الأسنان.

ومن الأمل الذاهب أن يكون من تحبه ، من بلد غير بلدك ، وقوم غير قومك ، كما قال نُصيب:

أرق المحـــب وعـــاده سُـــهده لطـــوارق الهـــم التـــي تـــرده
وذكـرت مـن رقـت لـه كبـدي وقسـا فلـيس تـرق لـي كبـده
لا قومـــه قـــومي ، ولا بلـــدي فنكـــون حينًـــا جيـــرةً بلـــده
ووجـدت وجـدًا لـم يكـن أحـدٌ مـــن أجلـــه بصـــبابة يجيـــده

ونصيب يتحدث كثيرًا عن عقم الأماني ، حتى ليقول:

ألا هل على البين المفرق من بد وهـل مثـل أيـام بمنقطـع السـد
تمنيـت أيـامي أولئـك والمنـى على عهـد عـادٍ مـا تعيـد ومـا تبـدي

الكتمان

من الشعراء من لا يهمه من الكتمان غير ستر تفاصيل الود. وأسرار القرب ، ولا يرى بعد ذلك حرجًا في ذكر اسم من يحب ، كما قال جميل:

لا لا أبـــوح بحـــب بثينـــة أنهـــا أخـــذت علـــيِّ مواثقًـــا وعهـــودا

وأنه لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده ، تضليلاً للوشاة ، لكان هذا البيت من سخف القول ، وهذره. وإليك ما يقول من كلمة ثانية:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا ســوى أن يقولــوا أننــي لــك عاشــق
نعـم صـدق الواشـون أنـت حبيبـة إلـي وإن لـم تصـفُ منـكِ الخلائـقُ

فإنه يدل على أنه لا يبالي أن يُعرف بحبها. حتى قال الناس: جميل بثينة كما قالوا مجنون ليلى. ويذكر أبو علي القالي أن البيت السالف لكثير ، وأنه ذكر بثينة تورية عن حبيبته ، وهذا فيما أرى غير حتم ، لأن كثير ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر. كقوله:

كفـى حزنًـا للعـين أن رد طرفهـا لعـــزة عِيـــرٌ آذنـــت برحيـــل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلـــت البكـــا أشـــفى إذن لغليلـــي
توليـت محزونًـا وقلـت لصـاحبي أقـــاتلتي ليلـــى بغيـــر قتيـــلِ

فقد ذكر عزة عند مواتاة الشعر ، وليلى عنده مُعاصاته ، وهو نوع من التلاعب بالأسماء الذي كثر في شعر العرب. وقال كثير من قصيدة أخرى:

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم إذا غالـه مـن حـادث الـدهر غائلـه
ويخفـي لكـم حبًـا شـديدًا ورهبـة وللنـــاس أشـــغال وحبـــك شـــاغله
كـريم يميـت السـر حتـى كأنـه إذا حـــدثوه عـــن حـــديثك جاهلـــه

يـود بـأن يمسـي سـقيما لعلهـا إذا سـمعت عنـه بشـكوى تراسـله
ويجهد للمعروف في طلب العلا لتُحمـد يومًـا عنـد عـز شـمائله

وهو في هذا الشعر لا يكتم اسم من يهوى ، وإنما يكتم أحاديث الحب ، وأسرار الصبابة ، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي:

ومسـتخبرٍ عـن سـر ريـا رددتـه بعميـاء مـن ريـا بغيـر يقـينِ
فقـال انتصـحني إنني لـك ناصـح ومـا أنـا إن خبرتـه بـأمين

وهذا العباس بن الأحنف كان من أكثر المحبين كتمانًا ، ولكنه صرح باسم محبوبته فوز ، ولقد بلغ من حسد إحدى جارته له أن سمت جاريتها «فوز» وقد قال في ذلك:

ما ينقضي عجبي من جهل حاسدة كانت بذي الأثل من خدني وأنصاري
سـمت وليـدتها فـوزًا مغايظـة عـذرت لـو لطمتنـي ذات أسـوار
ومـا يـزال نسـاء مـن قرابتهـا فـي كـل ناحيـة يهـتكن أسـتاري

ومسلم بن الوليد يتغنى بكتم تباريح الصبابة في قوله:

ومـا نلـت منهـا نـائلا غيـر أننـي بشـجو المحبـين إلا لـي سـلفوا قلبـي
بلـى ربمـا وكلـت نفسـي بنظـرة إليهـا تزيـد القلـب خـبلا علـى خبـل
كتمـت تبـاريح الصـبابة عـاذلي فلـم يـدر مـا بـي فاسترحت من العذل

وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله:

بنفسـي التـي ضـنت علـي بوصـلها ولـو سـألت قتلـي وهبـت لـي قتلـي
وإن حكمـت جـارت علـى بحكمهـا ولكـن ذاك الجـور أحلـى مـن العـدل
وأحببـت فيهـا العـذل حبًـا لـذكرها فـلا شـيء أحلى في فؤادي من العذل

وهو يذكرنا بقول أبي الشيص الخزاعي:

أجـد الملامـة فـي هـواكِ لذيـذة حبًـا لـذكرك فليلمنـي اللـوم
أشـبهت أعـدائي فصـرت أحـبهم إذ كـان حظـي منـك حظـي مـنهم

وقول ابن نُباتة المصري:

لثمت ثغر عذولي حين سماكِ فلذ حتى كأني لاثمٌ فداكِ

ومن العشاق من يكتم الهوى جملة واحدة كقول ابن قلاقس:

كتمت الهوى عند العواذل ضنة عليهم بمن أصبو إليه وأهواه

ولو قلت أني عاشق فطنوا له لعلهم أن ليس يُعشق إلا هو

وهو مذهب غريب ، وأغرب منه مذهب من يقول:

وقائله ما بال جسمك لا يُرى سقيما وأجسام المحبين تسقمُ

فقلت لها قلبي بحبك لم يبح لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم

وللعباس بن الأحنف شجنون من الحديث عن الكتمان ، فتارة يذكر أنه باح بحبه حين طال بلاؤه. كقوله:

هذا كتاب بدمع عيني أملاه قلبي على لساني

إلى حبيب كنيت عنه أجل ذكر أسمهِ لساني

قد كنت أطوي هواه عنه مذ كنت في سالف الزمان

فبحت إذ طال بي بلائي ولم يكن لي به يدانِ

وهو هنا يكتم حبه عن محبوبه ، فضلاً عن الناس. وتارة يذكر أنه سيموت مكتوم السر إلا عمن يحب. فيقول:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا ايقظوني في الهوى رقدوا

واستنهضوني فلما قمت منتصبًا بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا

جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا

لأخرجن من الدنيا وحبكم بين الجوانح لم يشعر به أحد

حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم قلبي وإن تسمعوا صوت الذي أجد

وحينًا يذكر أنه سلا ، لينصرف الناس عن التحدث بحبه رفقًا بمحبوبته فيقول:

كذبت على نفسي فحدثت أنني سلوت لكيما ينكروا حين أصدق
ولا من قلى مني ولا عن ملالةٍ ولكنني أبقى عليك وأشفق
عطفت على أسراركم فكسوتها قميصًا من الكتمان لا يتخرق

وقد يعتذر عن هجره فيقول:

فب الله يعلم ما أردت بهجركم إلا مصانعة العدو الكاشح
وعلمت أن تباعدي وتستري أدنى لوصلك من دنو فاضح

وأحلى من هذا قوله في تعيين الغرض من الصدود:

سأهجر إلفي وهجرانها إذا ما التقينا صدود الخدود
كلانا محب ولكننا ندافع عن حبنا بالصدود

وتأمل قوله «صدود الخدود» يريد بذلك أن كلا منهما يصدف بخده عن صاحبه ، أما القلوب فهي في ائتلاف. وطورا يكتفي بحديث العيون ، كقوله:

كلانا مُظهر للناس بغضًا وكل عند صاحبه مكينُ
تخبرنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوى دفين

وقد يسر الحزن ، ويبدي السرور ، مبالغة في التستر ، كقوله:

عيون العائدات تراك دوني فيا جسدي لعيني من يراك
أريدك بالكلام فأتقيهم وأعمد بالكلام إلى سواك
وأكثر فيهم ضحكي ليخفى فسني ضاحك والقلب باك

وقد أفصح عن ضرورة الكتمان بقوله:

سأستر والستر من شيمتي هوى من أحب بمن لا أحب
ولابد من كذب في الهوى إذا كان دفع الأذى بالكذب

وربما تمنى لو استطاع أن يكاتم قلبه الحب. فيقول:

إذا لم يكن للمرء بد من الردى فأكرم أسباب الردى سبب الحب
ولو أن خلقًا كاتم الحب قلبه لمت ولم يعلم بحبكم قلبي
إذا قيل تقريك السلام تماسكت حشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب

وقد ييأس من كتم الحب فيقول:

أما الهوى فهو شيء لا خفاء به شتان بين سبيل الغي والرشد
إن المحبين قوم بين أعينهم وسم من الحب لا يخفى على أحد

وقد يبالغ بالكتمان حتى يضل الناس من أجل حبه في بيداء من الظنون ، ليس لليل نهار ، كما يقول:

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فجاهل قد رمى بالظن غيركم وصادق ليس يدري أنه صدقا

وقد ذكروا أن العباس بن الأحنف مات هو وإبراهيم الموصلي والكسائي في يوم واحد. فرفع ذلك إلى الرشيد. فأمر المأمون أن يصلي عليهم. فصفوا بين يديه. ثم سأل عنهم واحدًا واحدًا وأمر بتقديم ابن الأحنف فصلى عليه. فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال: يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقدسة على من حضر ؟ فأنشده المأمون هذين البيتين:

سماك لي ناس وقالوا أنها لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم أني ليعجبني المحب الجاحد

ثم قال أتحفظهما ؟ فقال نعم. فقال: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة فقال بلى يا سيدي ! [1]

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول قيس بن ذريح:

---

[1] وضح صاحب البدائع كتابًا خاصًا سماه «صبابة ابن الأحنف» تناول فيه بالتفصيل حاية هذا الشاعر الوجدانية ، ووازن بينه وبين ابن أبي ربيعة وأبي نواس.

لو أن أمرًا اخفى الهوى عن ضميره لمت ولم يعلم بذاك ضمير
ولكن سألقى الله والنفس لم تبح بسرك والمستخبرون كثير

ومن الشعر الموجع في الكتمان قول جماهر بن عبد الحكيم الكلبي:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه ودينك عند الزاهرية ما يُقضى
أكاتم في حبي ظريفة بالتي إذا استبصر الواشون ظنوا به بغضا
صدودًا عن الحي الذين أودهم كأني عدو لا يزور لهم أرضا
ولم يدعُ باسم الزاهرية ذاكرٌ على آلةٍ إلا ظللنا لها مرضى
وما نقع الهيمان بالشرب بعدهم ولا ذاقت العينان مذ فارقوا غضما

وقد يهتم المرء بحب من لا يحب ، فيتمنى لو تصدق التهمة ، كما قال صاحب البدائع:

عجبت لهم أني رموني بحبها ولا مهجتي رهن لديها ولا قلبي
فيا رب صدق في هواها عواذلي فإن عناءً إن أُلام بلا ذنب
وإلا فلا تقطع عليّ ملامهم فإن ملام المرء فاتحة الحب

طرفة أدبية

قال بعضهم لمحبوبته:

ســري وســرك لا يعلــم بــه أحــد إلا الإلـــه وإلا أنـــتِ ثـــم أنـــا

فقالت له لا تنس القوادة ، فعندنا الخبر اليقين !

قسوة التجني

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود. وأكثروا القول كذلك عن قسوة التجني، فمن ذلك قول ابن نُباتة السعدي:

فبعض يا دهر لا غفلات العيش عائدة ... ولا الشباب الذي أبليته فيها
إن كنت تمنع سُعدى من مطالبها ... فلست تمنع سعدي من تمنيها
لله نغمة أوتارٍ ومسمعة ... باتت تدل على شوقي أغانيها
وقهوة كشعاع الشمس طالعة ... أفنيت بالمزج فيها ريق ساقيها
لو كنت أخضع في الدنيا لنائبة ... خضعت من هجرها أو من تجنيها
تستعذب الدمع عيني في محبتها ... كأن ما تمتريه العين من فيها

وما أجمل قول ابن الرومي:

يا عليلا جعل العلـ ... ـة مفتاحًا لظلمي
ليس في الأرض عليل ... غير جفنيك وجسمي

وقد كتبت الآنسة حياة فهمي كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها في الصباح: فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتي بقوله:

تلوم حياة على العاشقين ... رويدًا ورفقًا بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلمت المحب ... هنيئًا لعينيك في الناعسات

ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه في تجني هذه الفتاة. فأجابه بما نصه:

«يرى سيدي الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب ، فلامت المحبين. ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب. لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء. يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون. فإذا قال السياسي (لا) فاعلم أنه يريد (نعم) وإذا قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) وإذا قالت المرأة (لا أحب) فاعلم أنها

(تحب) وإذا زعمت أنها (كارهة) فاعلم أنها (راضية) فإن كنت في ريب من ذلك يا صديقي الأديب فإني أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الأفكار سنة ١٩١٩:

عهـــــد السياســـــة كـــــاذب لله دركِ يـــــــا ســـــــجاح !

وقد قال (تاسو) أحد شعراء إيطاليا: أن المرأة تفر ، وتود أن تلحق وهي فارة: وتأبى ، وتود في أبائها أن تُسرق. وتناضل ، وترغب أن يُظفر بها في النضال !!

فقول الآنسة حياة «لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» معناه أن الحب صيرها باكية العين ، دامية الفؤاد ! وقولها «الحب عدو لدود للإنسان ، فيجب أن يُبعد عن القلوب» معناه أن الحب مادة الحياة. فيجب أن تزود به القلوب !

وقولها «تباعدوا عن الحب» معناه أقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم ، أيها الشباب !

هذا يا صديقي ما تريده الآنسة حياة فهمي ! فهي حين تقول «لعن الله الحب» إنما تريد «حيا الله الحب» وأنت بما تريد عليم !

ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة هذا السؤال:

إنك تأمروننا بأن لا نحب (سمعًا وطاعة !) ولو أني سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عامًا لنجوت من الحب. ولاسترحت الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكني يا مولاتي لسوء الحظ قد أحببت ، وقد ضُربت بمحبتي الأمثال ، وأريد أن أسلم من الحب على يدك الطاهرة ، جعل الله في يمناك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك أن تصفي لي طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن اسماء الحب الضلال ؟

أنا في انتظار الجواب !

ملحوظة – أرجو أن تحترس الآنسة حياة ، وهي تكتب أنواع العقاقير ، من أن تنهاني عن التطلع إلى العيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ، والنهود ، فإنه لا سبيل إلى مثل هذا المتاب !! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال ، كما يرد الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساقي الجميل !!

وقد رد السيد حسن القاياتي على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة في الإيجاز لأمتعنا به القاريء ، ومن السهل الرجوع إليه في كتاب البدائع.

وقد حسن التجني في قول أحد الشعراء:

صـــد عنـــي محمـــد بـــن ســـعيد ش أجمـــل العـــالمين ثـــانيَ جِيـــدِ

لـــيس مـــن بغضـــةٍ يصـــد ولكـــن يتجنـــى لحســـنه فـــي الصـــدود

ظلم الحبيب

وفي الحب وحده يحلو الظلم ، حتى لتحكم علية بنت المهدي بأن الحب نبني عليه. وتقول:

وضع الحب على الجور فلو ... أنصف المعشوق فيه لمسج
ليس يستحسن في شرع الهوى ... عاشق يحسن تأليف الحجج

وقال النميري:

راحتي في مقالة العذال ... وشفائي في قيلهم بعد قال
لا يطيب الهوى ولا يحسن الحـ ... ـب لصبٍ إلا بخمس خصال
بسماع الأذى وعذل نصيحٍ ... وعتابٍ وهجرةٍ وتقال

ويعلل بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله:

لولا اطراد الصيد لم تك لذة ... فتطاردي لي في الوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وماله ... من لذة حتى يصيب غليلا

ومثله قول الآخر:

دع الصب يصلى بالأذى من حبيبه ... فإن الأذى ممن تُحب سرور
غبار قطيع الشاءِ في عين ذائبها ... إذا ما تلا آثارهن ذرور

وأنشد الأصمعي:

لا خير في الحب وقفًا لا تحركه ... عوامل اليأس او يقتاده الطمع
لو كان لي صبرها أو عندها جزعي ... لكنت أملك ما آتي وما أدع
إذا دعا باسمها داعٍ ليحزنني ... كادت له شعبة من مهجتي تقع
لا احمل اللوم فيها والغرام بها ... ما كلف الله نفسًا فوق ما تسع

ومن جيد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النميري:

رمتني وستر الله بيني وبينها ... ونحن بأكناف الحجاز رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يومٍ لو رمتني رميتها ... ولكن عهدي بالنضال قديم
فيا عجبًا من قاتلٍ لي أوده ... أشاط دمي شخص علي كريم
يرى الناس أني قد سلوت وأنني ... لمدنف أحشاء الضلوع سقيم

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ.

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي:

أصبحت مملوكًا لأحسن مالك ... لو كان كمل حسنه إسجاحه
لم يعنه أرقي وفيه لقيته ... حتى أضر بمقلتي إلحاحهُ
كلا ولا دمعي وفيه سفحته ... حتى أضر بوجنتي تسفاحه
لامسه بعقوبةٍ من ربهِ ... إقلاقه قلبي ولا إتراحه
يا ليت شعري هل يبيتُ معانقي ... ويداي من دون الوشاح وشاحه
هل أنت مُنصف عاشقٍ متظلمٍ ... طول النحيب شكاته وصياحه
قسما لقد خيمت منك بمنزلٍ ... لي حرنه ولمن سواي بطاحهُ
ما بال ثغرك مشربًا لي سكره ... ولمن سواي فدتك نفسي راحه
نفسي معذبة به من دونه ... ويباحه دوني ولست أباحهُ

وأحب لو تأمل القاريء قول الشريف:

ولي ناظر بعد بين الخليـ ... ـط مات من الدمع إنسانه
رواء من الماء آماقه ... ظماء من النوم أجفانه
فأين من الداء إفراقه[1] ... وأين من القلب سُلوانه

[1] أفرق من دائه أبريء منه.

فيـــا ظالمًـــا طيبًـــا ظلمـــهُ كثيـــرًا علـــى القلـــب أعوانـــه
يبـــاع بســـومك حـــب القلـــوب وتفلـــــق عنـــــدك أثمانـــــهُ[1]
وشـــر الإســـاءة مـــن مالـــك أســـاء ومـــا نيـــل إحســـانه

وقال نويب:

أيـا ثـار ات مـن قتلتـه سُـعدى دمـــي لا تطلبـــوه لهـــا حـــلال
أرق لهـــا وأشـــفق بعـــد قتلـــي علـــى ســـعدى وإن قـــل النـــوال
ومـــا جـــادت لنـــا يومًـــا ببـــذل يمـــين مـــن ســـعاد ولا شـــمال

ونويب هذا هو الذي يقول:

ألا فـي سـبيل الله نفـس تقسـمت شـــعاعًا وقلـــب للحســـان صـــديقُ
أفاقـت قلـوب كـن عـذبن بـالهوى زمانًـــا وقلبـــي مـــا أراه يُفيـــق
عصيت بك الناهين حتى لو أنني أمـــوت لمـــا أرعـــى علـــي شـــفيق

[1] غلق الثمن: ضاع.

قساة القلوب

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب ، وغلظ الكبد ، ويحسب ابن الأحنف أن قلوب الحسان قدت من الصخر. فيقول:

أظن وما جربت مثلك إنما ... قلوب نساءِ العالمين صخور
ذريني أنم إن لم أنل منك زورةً ... لعل خيالا في المنام يزور
بكيت إلى سرب القطاحين مر بي ... فقلت ومثلي بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه ... لعلي إلى من قد هويت أطير

وقد نظر المرحوم إسماعيل باشا صبري إلى استعارة الجناح فقال:

يا سرحة بجوار الماء ناضرة ... سقاك دمعي أن لم يوفِ ساقيكِ
عار عليك وهذا الظل منتشر ... فتك الهجير بمثلي في نواحيك
هل من معيري جناحي طائرٍ غردٍ ... كي أقطع العمر شدوًا في أعاليك
فلا أنفر عن أرض غُرستِ بها ... ولا يرن بسمعي غير واديك

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينة والهدوء ، في حين أن قلبه يتلظى على جمر الصدود. كما قال بشار[1]:

أيها الساقيان صبا شرابي ... واسقياني من ريق بيضاء ورد
إن دائي الصدى وإن دوائي ... شربة من رضاب ثغرٍ برود
ولها مبسم كفر الأقاحي ... وحديث كالوشي وشي البرود
نزلت في السواد من حبة القلـ ... ـب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ ... والليالي يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقاي وعندي ... زفرات يأكلن قلب الحديد

[1] في كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف ، فارجع إليه لترى ما صنع الدهر بشعر بشار.

وما أظرف قول أبي نواس في معشوقته جنان:

جنـــان تســـبني ذكـــرت بخيـــرٍ وتـــزعم أننـــي رجـــل خبيـــث
وأن مـــودتي كـــذب ومـــين وأنـــي للـــذي أهـــوى نثـــوث
ولـــيس كـــذا ولا رد عليهـــا ولكـــن الملـــول هـــو النكـــوث
ولـــي قلـــب ينـــازعني إليهـــا وشـــوق بـــين أضـــلاعي حثيـــث
رأت كلفـــي بهـــا ودوام عهـــدي فملننـــي كـــذا كـــان الحـــديث

وأبدع ما قيل في قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب:

ليـــت مـــا اصـــبح مِـــن رفـــة خـــديك بقلبـــك

ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع:

فـبعض لقـد صـددنا كمـا صـددتم فهـــل نـــدمتم كمـــا نـــدمنا
وشـــفنا الوجـــد مـــذ جفـــوتم فـــأظهر الـــدمع مـــا كتمنـــا
وهبـــت روحـــي وقلـــت عطفًـــا فمـــا عطفـــتم ومـــا رجعنـــا
ملكتموهـــا ومـــا وصـــلتم لقـــد غنمـــتم ومـــا غنمنـــا
ومـــا ازددت خوفًـــا علـــى فـــؤادي إلا وزدتـــم رضـــى وأمنـــا
ومـــا رجـــائي وقـــد قـــويتم علـــى جفـــائي وزدت وهنـــا
قتلـــت نفســـي علـــى جفـــاكم ومـــا قـــرعتم علـــي ســـنا
لهفـــي علـــى الســـالف المفـــدى لـــو كـــان يجـــدي الفِـــدا لُجـــدنا
فمـــا ذكرنـــا الـــذي تقضـــى إلا علـــى حســـنه انتحبنـــا

●

لـو كنـت أشـكو الهـوى لصـخر لحـــن وجـــدًا وأن حزنـــا
وذاب مـــن هـــول مـــا أراه فقـــد برانـــا الهـــوى وذبنـــا
إن كـــان ذنـــب فســـامحونا ويشـــهد الله مـــا أســـأنا

وصاحب البدائع هو الذي يقول:

أيهـــا الظـــالم الجميـــل ســـلام ... مـــن أســـير قيدتـــه بجفاكـــا
كيـف اصـليتني مـن الهجـر نـارًا ... وحرمـــت العيـــون مـــن أن تراكـــا
ليـت مـن شـاء أن يطـول أسـانا ... فـي سـبيل الهـوى أطـال أسـاكا
سـوف أنجـو مـن الغـرام وأغـدو ... مُطلـق الـنفس مـن قيـود هواكـا
فاسقني المر من صدودك واحكم ... جـائر الحكـم فـي ظـلال صِـباكا

وقد حسب بعض الناقدين أن في هذا الشعر نذيرًا بنقض العهد ، وجحود الود وليس الأمر كما يحسبون ، وإنما هي صورة لحالة من حالات النفس ، حين يثور الوجد ، ويتمنى المحب ليأسه لو أفلت من إشراك هواه ، وهيهات هيهات !

سيف الفراق

نتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب ، فمنهم من يذكر تعثره في الطريق ، وضلاله عن القصد ، بعد فراق من يحب ، كما قال بعض الأعراب:

وما وجد مغلوبٍ بصنعاء موثقٍ بساقيه من ثقل الحديد كبول
ضعيف الموالي مسلم بجريرةٍ له بعد نومات العيون عويل
يقول له الجلاد أنت معذب غداة غدٍ أو مسلم فقتيل
بأوجع مني لوعةً يوم راعني فراق حبيبٍ ما إليه سبيل
غداة أسير القصد ثم تردني عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غرر الشعر ، وهي آية في وصف الحيرة يرمى بها المحب المشوق ، بعد فراق لا يُرجى أن يعقبه لقاء. وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كبل بالحديد ، في جريرة لا يغني في دفعها ضعف مواليه ، وقد أصبح موضع النذير من الجلاد في كل صباح ومساء ، وحسب الفراق أن يرمي المحب في مثل هذا الحال !

وانشد الجاحظ:

أزف البين المبين قطع الشك اليقين
حنت العيش فأبكا ني من العيش الحنين
لم أكن لا كنت أدري إن ذا البيت يكون
علموني كيف اشتا قُ إذا خفت القطين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول:

وأنا بكيت من الفراق فهل بكيت كما بكيت
ولطمت خدي خاليًا ومرسته حتى اشتفيت
وعواذلي ينهينني عمن هويت فما انتهيت

وأنا أحسب أن البكاء ولطم الخدود أهون ما يجرى بعد الفراق ، ويا ويلتاه من الفراق !

وما أصدق من يقول:

أزمعة ليلى ببينٍ ولم تمت كأنك عما قد اظلك غافل
ستعلم إن شطت بهم غربة النوى وزالوا بليلى إن قلبك زائل

ومن المتيمين من يشجيه أن يقاسي أحبابه متاعب السفر ، ومشاق السرى ، ومصاعب الادلاج. ثم يرجع إلى نفسه فيتوجع لحاله بعد الفراق. كقول أبي تمام:

لو كان في البين إذ بانوا لهم دعة لكان بينهم من أعظم الضررِ
فكيف والبين موصول به تعب تكلف البيد في الادلاج والبكر
لو أن ما يبتليني الحادثات به يكون بالماء لم يُشرب من الكدر
أو كان بالعيس ما بي يوم رحلتهم أعيت على السائق الحادي فلم تسر
كأن ايدي مطاياهم إذا وخدت يقعن في حر وجهي أو على بصري

وهذا شعر يذيب لفائق القلوب... وقال بعض المعذبين

وقد قلت والعبرات تسـ ـفحها على الخد المآقي
حين انحدرت إلى الجزيـ ـرة وانقطعت عن العراقِ
يا بؤس من سل الزما نُ عليه سيفًا للفراق

إي والله:

يا بؤس من سل الزما نُ عليه سيفًا للفراق

إنه لا محالة مقتول !

وقد يلوم المحب نفسه على فراق أحبابه ، كالذي يقول:

أتظعن عن حبيبك ثم تبكي شهي عليه فمن دعاك إلى الفراقِ
كأنك لم تذق للبين طمعا فتعلم أنه مر المذاق
أقم وانعم بطول القرب منه ولا تظعن فتكبت باشتياق

فما اعتاض المفارق من حبيبٍ ولو يعطى الشآم مع العراق

ومثله من يقول:

تطوى المراحل عن حبيبك دائبًا وتظل تبكيه بدمع ساجمِ
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم
هلا أقمت ولو على جمر الغضى قُلِّبتَ أو حدّ الحُسام الصارم

وما أوجع ما قالته إحدى النساء:

وكنا كغصني بانةٍ وسط روضةٍ نشم شذا الأزهار في عيشةِ رغدِ
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ فيا فردة بانت تحن إلى فَرد

ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق ، فليس ببدع أن يهرب البحتري من منظر الوداع ، وأن يظرف حين يقول:

الله جـــارك فـــي انطلاقـــك تلقـــاء شـــامك أو عراقـــك
لا تعـــذلني فـــي مسيـــ ـــرك يـــوم ســـرت ولـــم ألاقِـــك
انـــي خشـــيت مواقفًـــا للبـــين تســـفح غـــرب ماقِـــك
وعلمـــت مـــا يلقـــى المتيـــ ـــم عنـــد ضـــمك واعتناقـــك
وعلمـــــت أن لقاءنـــــا ســـبب اشـــتياقي واشـــتياقك
فتركـــــت ذاك تعمـــــدًا وخرجـــت أهـــرب مـــن فِراقـــك

وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الأحنف وقد حُرم توديع من يحب:

كفى حزنًا إني بقيت وليس لي ســبيل إلـــى تـــوديعكم فـــأودع
تلفت خلفي حيث لم تبق حيلة وذودت عينـــي نظـــرةً وهـــي تـــدمع

غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغراب ، والتشاؤم من منظره ، حتى ليقولون:

رأيت غرابًا ساقطًا فوق بانةٍ ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أني أشاء زجرته بنفسي للنهدي هل أنت زاجره
فقال غراب لاغترابٍ من النوى وفي البان بين من حبيب تجاوره
فما اعيف النهدي لا در دره وازجره للطير لا عز ناصره

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة ، وسخر من المتطيرين ورأى أن الإبل هي التي تفرق الأحباب. كقول أبي الشيص:

ما فرق الأحباب بعد الله إلا الإبل
والناس يلحون غرا ب البين لما جهلوا
وما على ظهر غرا ب البين تطوى الرحل
ولا إذا صاح غرا ب في الديار احتملوا
وما غراب البين إلا ناقة أو جمل

ومنهم من لا يجيز ذم المطي ، لأن لها صلة بمن يحب. كالذي يقول:

زعموا بأن مطيهم عون النوى والمؤذنات بفرقة الأحباب
ولو أنها حتفي لما أبغضتها ولها بهم سبب من الأسباب

فقد العزاء

وقد يعنف الهوى ويقسو ، حتى يذهب بجميل الصبر ، وحميد العزاء ، فمن العشاق من يفقد اصطباره عند الوداع. كقول ابن نباتة السعدي:

فبع كيف العزاء وأين بابه ... والحي قد خفت ركابه
بأغر منتقبٍ ينم ... على محاسنه نقابُه
متأود حلو الشمائلِ ... من أساوره حقابه[1]
زعم المخبر أنه ... ضربت على سلعٍ قبابه
فطلبته كالأيم أو ... كالسيل في الليل انسيابه
فإذا أحم المقلتين ... ن يشين أنمله خضابه
يهتز مثل المسهري ... تدافعت فيه كعابه
وقف الولائد دونه ... كالقلب يستره حجابه
أقبلت أسأله وأعـ ... ـلم أن حرماني جوابه
ويلي على متلون الـ ... ـأخلاق يعجبه شبابه
لا رُسلهُ تترى إلينـ ... ـا بالسلام ولا كتابه

وأحب أن يتأمل القاريء هذه القصيدة البديعة ، وأن ينتبه إلى دقة الوصف في جميع ما عرض الشاعر له. وعلى الأخص تلون الأخلاق ، والزهو بالشباب ، في أرباب الجمال !! وقال الشريف:

ورامين وهنًا بالجمار وإنما ... شهي رموا بين أحشاء المحبين
رموا لا يبالوا الحشا وتروحوا ... بالجمر

---

[1] الحقاب ما تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلى.

وقالوا غدًا ميعادنا النفر عن مِنى خليين والرامي يصيبُ ولا يدري
ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه وما سرني أن اللقاء مع النفرِ
فيا صاحبي أن تُعط صبرًا فإنني سوى ساعةٍ ثم البعاد مدى الدهر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه نزعتُ يدي اليوم من طاعة الصبر
فميعاد دمع العين مُنقلبُ السفرِ

وقد يستولى الحزن على القلب ، ويتغلغل في سويدائه ، حتى ييأس المحب من صلاحية فؤاده للسرور ، لو رجعت أسبابه ، كما قال بعض الشعراء:

كما استراح إلى صبرٍ فلم يُرَحِ صب إليكم من الأشواق في تَرحِ
تركتمُ قلبهُ من حزن فرقتكم لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرح

وقال خالد الكاتب يفضل اللوعة على الغراء:

فبعض عاتبت نفسي في هوا كَ فلم أجدها تقبل
واطعت داعيها اليـ ـك فلم أطع من يعذل
لا والذي جعل الوجـ ـه لحسن وجهك تمثل
لا قلتُ إن الصبر عنـ ـك من التصابي أجمل

وقال اسحق الموصلي في ذهاب الوداع بالصبر الجميل:

تقضت لبانات وجد رحيل ولم يُشفَ من أهل الصفاء غليل
ومدت أكف للوداع فصافحت وفاضت عيون للفراق تسيل
ولابد للالاف من فيض عبرةٍ إذا ما خليل بان عنهُ خليل
فكم من دمٍ قد طُل يوم تحملت أو انسُ لا يودي لهن قتيل
غداة جعلت الصبر شيئًا نسيتهُ وأعولت لو أجدى علي عويل
ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها هوى منه بادٍ ظاهر ودخيل
كما نظرت حوراءُ في ظل سدرةٍ دعاها إلى ظل الكناس مقيل

وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبه كصبر الظماء عن الماء ، فيقول:

إليــك مــن الأنــام غــدا ارتيــاحي وأنــت مــن الزمــان مــدى اقتراحــي
ومــا اعترضــت همــوم الــنفس إلا ومــن ذكــراك ريحــاني وراحــي
فــديتك إن صــبري عنــك صــبري لــدى عطشــي عــن المــاء القــراحِ
ولــي أمــل لــو الواشــون كفــوا لأطلــع غرســهُ ثمــر النجــاح
واعجــب كيــف يغلبنــي عــدو رضــاك عليــه مــن أمضــى ســلاحي
فــؤادي مــن أســى بــك غيــر خــالٍ وقلبــي مــن هــوى لــك غيــر صــاحي
فلــو أســطيع طــرت إليــك شــوقًا وكيــف يطيــر مقصــص الجنــاح

ويأسى ابن الدمينة على أن لم يُغنه القرب ، ولم يسله البعد ، فيقول:

فبعض وقد زعموا أن المحب إذا يمــل وإن النــأي يشــفي مــن الوجــد
دنــــــــــــــــــــــا على ذاك قرب الدار خير من البعد
بكــل تــداوينا فلــم يشــف مــا بنــا إذا كــان مــن تهــواه لــيس بــذي عهــدِ
علــى أن قــرب الــدار لــيس بنــافعٍ

وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الأعراب:

فيــا رب إن أهلــك ولــم تروهــامتي بليلــى أمــت لا قبــراعطشُ مــن قبــري
وإن أكُ عــن ليلــى ســلوت فإنمــا تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وإن يــكُ عــن ليلــى غنــى وتجلــد فــرب غنــى نفــس قريــب مــن الفقــر

بكاء الشباب

ولعل أشجى ما يمر بخاطر المرء أن يهجره الغيد بعد انصرام الشباب ، والشباب هو شفيع الفتى إلى قلوب الحسان ، فإذا مضى فقد أصبح بلا شفيع ، والويل للمفرد المغلوب !

من أجل ذلك تفنن الشعراء ، في بكاء الشباب ، والتنكر للمشيب. فمنهم من تبيض في رأسه شعرة واحدة ، فلا يراها قليلة ، لأن قذى العين غير قليل ، كما قال ابن الرومي:

طرفت عيون الغانيات وربما ... شهي أمالت إلي الطرف كل مميل
وما شبت إلا شيبة غير أنه ... قليل قذاه العين غير قليل

وابن الرومي يكثير البكاء على شبابه ، ويعلل نفسه أحيانًا بأن الشيب في الرأس كالنور على الغصن. ويأسى كثيرًا لاحتياجه إلى الخطاب ، الذي يراه أشبه بسواد الحداد ، ويكاد يصرخ من خروجه إلى الحسان في شعر ميت ، وقلب حي ، والمحب يتفجر قلبه دائمًا بالحياة ! وانظر كيف يقول:

شاب رأسي ولات حين مشيب ... وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبًا ... أن يُرى النور في القضيب الرطيب
ساءها إن رأت حبيبًا إليها ... ضاحك الرأس عن مفارق شيب
يا حليف الخضاب لا تخدع النف ... س فما أنت للصبي ينسيب
ليس يُجدى الخضاب شيئًا من النف ... ع سوى أنه حدادُ كئيب
لهف نفسي على القناع الذي مح ... وأعقبت منه شر عقيب[1]
منع العين أن تقر وقرت ... عين واشٍ بنا وعين رقيب

[1] مح القناع بلى. والعقيب البديل.

شعر ميت لذي وطرٍ حيٍ كنار الحريق ذات اللهيبِ
ظلمتني الخطوب حتى كأني ليس بيني وبينها من حسيبِ

وما أروع قوله في السخر من الخضاب:

رأيت خضاب المرء عند مشيبه حدادًا على شرخ الشبيبة يُلبس
وإلا فما يغزو امرء بخضابه أيطمع أن يخفى شباب مدلس
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضبٍ وكل ثلاثٍ صبحهُ يتنفس
وهبه يواري شيبه أين ماؤه وأين أديم للشبيبة أملس

وقال أشجع السلمي يوصي بانتهاب اللذات ، قبل أن يقف في سبيلها الهرم والمشيب:

فبع وما لي لا أعطي الشباب وغصناه يهتزان في عوده الرطب
نصيبه فأسرعت باللذات في ذلك النهب
رأيت الليالي ينتهبن شبيبتي لقد حزن سلمى وانتهين إلى حربي
رأيت بنات الدهر يخلسن لذتي على الرأس أمثال الفتيل من العطب
وقد حولت حالي الليالي وأسرجت إذا كان ذا حالين يصبو ولا يُصبي
وموت الفتى خير له من حياته

وقال آخر في صدوف النساء عن صَرعى المشيبِ:

هل الأدم كالآرام والدهر كالدمى مُعاودتي أيامهن الصوالح
زمان سلاحي بينهن شبيبتي لها سائق من حسنهن ورامح
وأقسمن لا يسقينني قطر مُذنةٍ لشيبي ولو سألت بهن الأباطح

وكان أستاذنا المرحوم فقيد اللغة والأدب الشيخ محمد المهدي بك كثير الإعجاب بقول أبي منصور النميري في الجزع على شبابه المفقود:

فبعما تنقضي حسرة مني ولا جزع إذا ذكرت شبابًا ليس يرتجع
بأن الشباب ونابتني بفرقته خُطوب دهرٍ وأيام لها خدع

ما كنت أوفي شبابي كنه قيمته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع
تعجبت أن رأت أسراب دمعتهِ في حلبة الخد أجراها حشًا وجع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم تشجي بغصتهِ والعذر لا يقع
لا ألحين فتاتي غير كاذبةٍ عين الكذوب فما في ودكم طمع
ما بالشبيبة من وانٍ وإن رفعت إلا لها نبوة عنه ومرتدع
إني لمعترف ما في من أربٍ عند الحسان فما في النفس منخدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسى لولا أعزيك إن الأمر منقطع

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر، وبكى له ، وأنشد:

أتأمل رجعة الدنيا سِفاهًا وقد صار الشباب إلى ذهابِ
فليت الباكيات بكل أرضٍ جمعن لنا فنحن على الشبابِ

ومن التعليل الكاذب قول البحتري في مدح المشيب:

عذلتنا في عشقها أم عمروٍ هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمةً ألم بها الشيـ ـب فريعت من ظلمة في شروق
ولعمري لولا الأقاحي لأبصر ت أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يجاور هـ بياض ما كان بالموموق
ومزاج الصبهاء بالمايء أملى بصبوح مُستحسنٍ وغبوق
أي ليلٍ يبهى بغير نجومٍ أو سحاب يندى بغير بروق

لكن ماذا يصنع الأشيب ، إن لم يغالط الحسان بهذه المعاذير ؟ !

بلايا الغيرة

نذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع. ونتقدم ذلك بقول بعض الأندلسيين وقد قبل من يهواه:

يـــا رب إن قدرتـــه لمقبـــل غيـــري فللمســـواك أو للاكـــؤسِ
وإذا قضـيت لنـا بصـحبة ثالـثٍ يـا رب فليـك شـمعة فـي المجلـس
وإذا حكمـت لنـا بعـين مراقـبٍ يـا رب فليـك مـن عيـون النـرجس

ألست ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من أن ينعم بحبيبه سواه ، فجعل بتمنى ، ولو تنفع الأماني ، إن لا يراقبهم غير النرجس ، وإن لا يصحبهم غير الشمعة ، وأن لا يقبل محبوبه غير الكأس أو المسواك ؟ !

وقد جُن العرب بالغيرة جنونًا: فتخيلوا غسان بن جهضم ينشد زوجه من عالم الأرواح ، وقد زُفت إلى غيره بعد موته بقليل:

فبعض غدرت ولم ترعي لبعلك حرمةً ولـم تعرفـي حقًـا ولـم تحفظـي عهـدا
ولـم تصـبري حولاً حفاظًـا لصـاحب حلفـت لـه يومًـا ولـم تنجـزي وعـدا
غـدرت بـه لمـا ثـوى فـي ضـريحه كـذلك ينسـى كـل مـن سـكن اللحـدا

وتخيل رواة العرب أن موسى الهادي جاء إلى جاريته (غادر) وقد اقبلت من بعده على أخيه هرون فأنشدها وهي نائمة هذه الأبيات:

أخلفـــت عهـــدي بعـــد مـــا جـــاورتُ ســـكان المقـــابر
ونكحـــت غـــادرةً أخـــي صـــدق الـــذي ســـماك غـــادر
لا يهنـــك الإلـــف الجديـــ ـــد ولا تـــنم عنـــك الـــدوائر
ولحقـــت بـــي قبـــل الصـــبا ح وصـــرت حيـــث غـــدوت صـــائر

بعد هذا التمهيد يستطيع القاريء أن يدرك لِمَ حملت الغيرة عبد السلام بن رغبان على قتل غلامه وجاريته !! وحديث هذا الشاعر عجيب: فقد ذكروا أنه اشترى غلامًا

وجارية ، ثم شغفاه حبًا ، فكان يجلس للشراب والجارية عن يمينه والغلام عن شماله !! ثم خشي أن يموت قبلهما فينعم غيره بما لهما من روعة وجمال: فذحبهما وأحرقهما وصنع من ترابهما آنيتين للشراب !!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الغلام هذه القطعة الباكية:

اشفقت أن يرد الزمان بغدره ... أو أُبتلى بعد الوصال بهجره
قمر قد استخرجته من دجنه ... لبليتي وأثرتهُ من خِدرهِ
فقتلته ولهُ علي كرامة ... فله الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتًا كأحسن نائمٍ ... والحزن يسفح مدمعي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده ... بالحي منهُ بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه ... ويكاد يخرج قلبه من صدره

ثم ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الجارية هذه القطعة التي يندر أن نجد أحر منها في الرثاء:

يا طلعةً طلع الحمام عليها ... فجنى لها ثَمرَ الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقها ... ومدامعي تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما ... روى الهوى شفتي من شفتيها
فوحق نعليها وما وطيء الثرى ... شيء أعز علي من نعليها
ما كان قبليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقطع الذباب عليها
لكن بخلت على الوجود بحسنها ... وأنفت من نظر العيون إليها

ولعل الظلم لم يرزق حجةً أقوى من هذه الحجة ، ولا برهانًا أسطع من هذا البرهان!!

وكانت السيدة سكينة تعيب على جرير قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

وكانت تقول: قاتله الله ما أقساه: هلا قال: ادخلي بسلام !

فلو سمعت السيدة سكينة بهذا المحب السفاح لطال بكاؤها على صرعى الغيرة، وقتلى الإشفاق !! ولئن كان الجنون فنونًا كما يقولون ، فهذا ورب الكعبة أغرب فنون

الجنون ! وكنا نود لو حدثنا التاريخ عن أثر هذه الأعجوبة في أنفس من عاصروا ابن رغبان لنعرف رأيهم في الجناية على الجمال ! ألم يكفهم أن الحسن حال تحول ، ودولة تدول ، حتى تسوق غيرتهم إليه الفناء ؟ وبعد فقد سمي عبد السلام بن رغبان هذا «ديك الجن» وأنه في فعلته هذه لشيطان مريد !!

هذا ، ومن الشعراء من يغار من عود البشام حين ستاك به الحبيب ، ومن العقد يطوق به الجيد ، ومن النقاب يحجب به الوجه الجميل ، كما قال الشريف:

يا غزال الجزع لو كا ... ن علي الجزع لمام
أحسد الطوق على جيـ ... ـدك والطوق لِزامُ
وأعض الكف إن نا ... ل ثناياك البشام
وأغار اليوم إن مر ... على فيك اللثام

ومنهم من يغار من قميص حبيبه ، كما قال خالد الكاتب:

محبك شفةُ ألمه ... وخامر جسمه سقمه
وباح بما يُجمجمهُ ... من الأسرار مكتتمه
أما ترثي لمكتئبٍ ... يحبك لحمه ودمه
يغار على قميصك حيـ ... ـن تلبسهُ ويتهمه

وكما قال بعض الأعراب:

أرى القميص على ليلى فأحسده ... إن القميص على ما ضم محسود

ومنهم من يغار على اسم محبوبه ، وفيكني عنه ، لئلا تتمتع به الآذان ، كما قال البها زهير:

وأنزه اسمك أن تمر حروفه ... من غيرتي بمسامع الجُلاسِ
فأقول بعض الناس عنك كناية ... خوف الوشاةِ وأنت كل الناس

وقد يغار المحب على حبيبه من نفسه ، كما قال أبو تمام:

بنفسي من أغار عليه مني ... وتحسد مقلتي نظري إليه

ولـو أنـي قَـدَرت طمسـت عنـه عيـون النـاس مـن حـذري عليـه
حبيـبٌ بـث فـي قليبـي هـواهُ وأمسـك مهجتـي رهنًـا لديـه
فروحـي عنـده والجسـم خـالٍ بـلا روحٍ وقلبـي فـي يديـه

الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق في لفت أنظار الأحباب إليهم ، وتوجيه أفكارهم نحوهم ، حتى ينالوا طلبتهم من القرب ، وبغيتهم من الوصل ، ولذلك حالات: فمن العشاق من يقبح لحبيبه المطل واخللف ، حتى يبر بوعده ، ويفي بعهده. كقول ابن الأحنف:

كأن لم يكن بيني وبينكم هوى ولم يك موصولاً بحبلكم حبلي
وإني لأستحيي لكم من محدثٍ يحدث عنكم بالملالة والمطلِ

وكقول الطغرائي:

ويا جيرتي بالجزع جسمي بعدكم شهي نحيل وطرفي بالسهاد كليلُ
عهدت بكم غصن الشبيبة مورقًا فخان وخنتم والوفاء قليل
وأودعتكم قلبي فلما طلبته مطلتم وشر الغارمين مطول
فإن عدتمُ يومًا تريدون مهجتي تمنعت إلا أن يقام كفيل

ومن المتيمين من يُحرم كل شيء حتى الوعد فتراه لا يطلب الوفاء ولا يقبح الإخلاف ، وإنما يرجو وعدًا يجلو به كربة قلبه ، ويطفيء به نار جواه ، لو تغنى الوعود !

وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر ، وقد صادف في توحشه حي ليلى ، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته ، فصعق وخر مغشيًا عليه ، وأقبل فتيان من حي ليلى فأخذوه ، ومسحوا التراب عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم ، وسألوا أن تقف له وقفة ! فرقت لما رأته وقالت أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به ثم قالت لجاريتها: اذهبي إلى قيس فقولي له: ليلى تقرأ عليك السلام ، وتقول لك أعزز علي بما أنت فيه ! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسي ! فمضت الوليدة إليه وأخبرته بقولها فأفاق وجلس ، وقال: أبلغيها السلام ، وقولي لها هيهات هيهات ! إن دائي ودوائي

أنت ، وإن حياتي ووفاتي لفي يديك ، ولقد وكلت بي شقاءً لازمًا وبلاءً طويلا ، ثم بكى ، وأنشأ يقول:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤها ... قريب ولكن في تناولها بُعدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحةٍ ... على كبدي من طيب أرواحها برد
فما زلت مغشيًا علي وقد مضت ... أناة وما عندي جواب ولا رد
أقلب بالأيدي وأهلي بودهم ... يُفدونني لو يستطيعون أن يفدوا
ولم يبق إلا الجلد والعظم عاريًا ... ولا عظم لي إن دام ما بي ولا جلد
أدناي ما لي في انقطاعي ورغبتي ... إليك ثواب منك دين ولا نقد
عديني بنفسي أنت وعدًا فربما ... جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزتني جنود الحب من كل جانب ... إذا حان من جُند قفول أتى جند

والبيت الأخير أعجوبة من أعاجيب الخيال ، فما زال المحبون صرعى مساكين ، إن قفلت عنهم جنود الخدود ،غزتهم جنود العيون ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعًا حتى ذهبت بلبه ، ولم يبق إلا أن تنكسر النصال على النصال !

وقد يستعطف المتيم المحزون ولكنه لا يطلب وعدًا يطارد به جيوش الأحزان ، ولا يرجو الوفاء بوعد كأن يهتدي به في ظلمات الشجون ، وإنما يُلمح وقد يكون التلميح ، أبلغ من التصريح. فيذكر أن الحسن يحدق به من كل جانب ، ولكنه لا يصبو ولا يميل لأنه بمن يحب مشغول. وانظر قول الأبيوردي في هذا المعنى البديع:

وقتك الردى بيض حسان وجوهها ... ومثريةٍ من نضرة وجمال
طلعن بدورًا في دجى من ذوائب ... ومسن غصونًا في متون رمالِ
أرى نظرات الصب يعثرن دونها ... بأعراف حودٍ أو رءوس عوال
عرضن علي الوصل والقلب كله ... لديك فأنى يبتغين وصالي
ولولاك ما بعت العراق وأهله ... بوادي الحمى والمندلي بضال
فما لنساء الحي يضمرن غيرة ... سبتها العوالي ما لهن وما لي
ولو خالفتني في متابعة الهوى ... يميني ما واصلتها بشمالي

وفيــك صــدود مــن دلالٍ أظنــه على ما حكى الواشي صدود ملال

وقد يتمنى المحب أن يمرض ليعوده الحبيب. وإليك قول ابن الخياط:

احن إلى سقمي لعلك عائدي ومن كلفٍ أني أحن إلى السقم
وحتام أستشفي من الداء ما به سقامي واستروي من الدمع ما يظمي
فراق أتى في إثر هجرٍ وما أذىً بأوجع من كلم أصاب على كِمِ

مسكين هذا المحب ، يتمنى المرض ليعاد ، فهل يعلم أن من المحبين من أشقاه المرض ، فلم يسعده العواد. وهل أتاه حديث ابن الأحنف وقد لج به المرض فأخذ يهذي بهذا الشعر الباكي الحزين:

فبعض أهابك أن أشكو إليك وليس لي يد بالذي ألقى وأخفى من الوجد
وإني لصادي الجوف والماء حاضر أراه ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيتي بكف أخص الناس كلهم عندي

وهل وصلت إليه تلك الوصية البديعة التي بعث بها ابن الأحنف إلى حُجاج البيت الحرام وقد توقع أن يمروا بدار هواه ؟

انظر إلى ذلك العليل ، وقد خفي الداء ، وتعذر الشفاء ، وكلما عُصر الماء في فيه مجه، كما يفعل الطفل الغرير ، وقد ذهبت العلة بجمال نظراته ، وسحر بسماته ، وإن نودي لم يجب بغير الأنين ، انظر إليه وقد تمنى جرعة مزجت بريق حبيبته يحملها إليه الحجاج في زجاجة ! ولو أمكن أن تنقل إليه النظرة ، لرجاهم أن يحملوا إليه نظرة ، ولو خلق الفنوغراف في ذلك الحين لرجالهم أن ينقلوا إليه نغمة من نغماتها العِذاب ! ولو مهر المصورون إذ ذاك لكلفهم أن يصوروا مشيتها الفتانة في الضحى والأصيل ! انظر إليه وهو يروجوهم أن يتعللوا عند أهله فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما هي من ماء زمزم ! ويحك ، وأين ماء زمزم الملح الاجاج ، من ماء ذلك الثغر العذب الفرات ؟ انظر إليه وقد أوصاهم أن يرشوا ريق من يهوى على وجهه ، فإن صادفوه ميتًا فليرشوه على قبره ! انظر كيف يقول:

ازوار بيـــت الله مـــروا بيثـــرب لحاجـــة متبـــول الفـــؤاد كئيـــب
وقولـو لهـم يـا أهـل يثـرب أسـعدوا علـــى جلـــب للحادثـــات جليـــبِ
فإنـــا تركنـــا بـــالعراق أخـــا هـــوى تنشـــب رهنـــا فـــي حبـــال شـــعوب
بـــه ســـقم أعيـــا المـــداوين علمـــه ســـوى ظـــنهم مـــن مخطـــيءٍ ومصـــيب
إذا مـا عصـرنا المـاء فـي فيـه مجـه وإن نحـــن نادينـــا فغيـــر مجيـــب
خـذو إلـي منهـا جرعـة فـي زجاجـة الا أنهـــا لـــو تعلمـــون طبيبـــي
وسـيروا فـإن أدركـتم بـي حشاشـةً لهـا فـي نـواحي الصـدر وجـس دبيـب
فرشـوا علـى وجهـي أفـق مـن بليتـي يثيـــبكم ذو العـــرش خيـــر مثيـــب
فـإن قـال أهلـي مـا الـذي جئـتم بـه وقـــد يحســـن التعليـــل كـــل أريـــب
فقولـوا لهـم جئنـاه مـن مـاء زمـزم لنشـــفيه مـــن دائـــه بـــذنوب
وإن أنـتم جئـتم وقـد حيـل بينكم وبينـــي بيـــومٍ للمنـــون عصـــيب
وصـرت مـن الـدنيا إلـى قعـر حفـرةٍ حليـــف صـــفيحٍ مطبـــق وكثيـــب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا قتيـــل كعـــاب لا قتيـــل حـــروب

وكان ابن الأحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئًا ، ولا يخاف شيئًا ، وكل مناه أن يعلم فاتنوه أنه يحبهم ، وإن يسمعوا صوت ما يجد ، وأنه لمطلب زهيد ، ولكنه قد يصبح صعب المنال ، وانظر هذه الأبيات التي يندر أن نجد مثلها في تصوير المحب وقد خلاه من اذكوا نار جواه ، وتركوه يتلوى ويتململ ، فوق جمر الهوى وجمر الصدود:

أبكـــي الـــذين أذاقـــوني مـــودتهم حتـــى إذا أيقظـــوني للهـــوى رقـــدوا
واستنهضـوني فلمـا قمـت منتصـبًا بثقـل مـا حملـوني فـي الهـوى قعـدوا
جـاروا علـي ولـم يوفـوا بعهـدهم قـد كنـت أحسـبهم يوفـون إن وعـدوا
لأخـــرجن مـــن الـــدنيا وحـــبكم بـــين الجـــوانح لـــم يشـــعر بـــه أحـــد
حسـبي بـأن تعلمـوا أن قـد أحـبكم قلبـي وإن تسـمعوا صـوت الـذي أجـد

ومن حسن الإشارة قول إبراهيم بن المهدي:

يـــا غـــزالاً لـــي إليـــه شـــافع مـــن مُقلتيـــه

والـــــذي أجللـــــت خذيـــــــــه فقبلـــــــت يديـــــــه
بـــــأني وجهـــــك مـــــا أكـــــــثر حســـــــادي عليـــــــه
أنـــــا ضـــــيف وجـــــزاء الضيـــــــف إحســـــــان إليـــــــه

والإحسان الذي يرجوه هذا الشارع يذكرنا بقول بعض الأعراب:

آل ليلـــــــى أن ضـــــــيفهم واجـــــد بـــــالحي مـــــذ نـــــزلا
أمكنـــــــوه مـــــــن ثنيتهـــــــا لـــــم يـــــرد خمـــــرًا ولا عســـــلا

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون:

يـــــــا هـــــــلالاً تتـــــــراءا هـ نفـــــــوس لا عيـــــــون
عجبًـــــا للقلـــــب يقســـــو منـــــك والعطـــــف يلـــــين
مـــا الـــذي ضـــرك لـــو ســـر بمـــــرآك الحـــــزين
وتلطفـــــــــت بصـــــــــبٍ حينـــــــه فيـــــك يحـــــين
فوجـــــوه اللطـــــف شـــــتى والمعـــــاذير فنـــــون

وما أوجع الأسى في قول ابن هانيء:

يـا بنـت ذي البـرد الطويـل نجـاده أكـذا يجـور الحكـم فـي ناديـك
عينـاك أم مغنـاك موعـدنا وفـي وادي الكـرى ألقـاك أم واديـك
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو عثـروا بطيـفٍ طـارقٍ ظنـوك
ودعـوك نشـوى مـا سـقوكِ مدامـة لمـا تمايـل عطفـك اتهمـوك
حسبوا التكحل في جفونك حلية تـاالله مـا بـأكفهم كحلـول
وجلـوك لـي إذ نحـن غصـنا بانـةٍ حتـى إذا احتفـل الهـوى حجبـوا

ويندر أن تجد بين الأدباء من لا يحفظ قول ابن الطثرية:

عقيليـة أمـا مـلاث إزارهـا فـدعص وأمـا صـخرها فبتيـل
تقـيظ أكنـاف الحمـى ويظلهـا بنعمـان مـن وادي الاراك مقيـل
ألـيس قلـيلا نظـرة إن نظرتهـا إليـك ، وكـلا لـيس منـك قليـل

فيا خلة النفس التي ليس دونها ... لنا من إخلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبه لم يطع به ... عدو ولم يؤمن عليه دخيل
أما من مقامٍ اشتكى غربة النوى ... وخوف العدا فيك إليك سبيل
فؤادي أسير لا يفك ومهجتي ... تفيض وأحزاني عليك تطول
ولي مقلة قرحى لطول اشتياقها ... إليك وأجفاني عليك همول
فديتك أعدائي كثير وشقتي ... بعيد وأشياعي لديك قليل
وكنت إذا ما جئت جئت بعلة ... فأفنيت علاتي فكيف أقول
فما كل يومٍ لي بأرضك حاجة ... ولا كل يوم لي إليك رسول
صحائف عندي للعتاب طويتها ... ستنشر يومًا والعتاب طويل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة ... فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع:

اجبني إن تفضلت ... على المسكين بالرد
أأنسى الدهر ما جادت ... به عيناك من وعد ؟
وارسم للمنى حدًا ... وما لجواي من حد ؟
وأقنع بالردي وزدًا ... وغيري سائغ الورد ؟
وأرضى باللظي مثوى ... ووجهك جنة الخلد ؟

—

وفيًا حافظًا أشقى ... ليسعد ناقض العهد
وصبًا والهًا أفنى ... ليبقى جاحد الود
فيا ويلاهُ من حبٍ ... حملت بلاءه وحدي !
أعده لحمله جهدي ... فيصعق بطشه جهدي

الحنين

هل اتاك حديث الصمه بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه ، وكان لها محبًا ، فاشتط عليه عمه في المهر ، فاستعان بأبيه وكان مثريًا فلم يعنه ، فأم عشيرته فأسعفوه ، ثم ساق الإبل إلى عمه ، فقال لا أقبل هذه في مهر ابنتي ، فسل أباك أن يبدلها لك. فسأل أباه ذلك فأبى عليه ، فلما رأى ضن أبيه وإباء عمه قطع عقلها وخلاها فعاد كل بعير إلى أهله... ويروى أن أباه أعطاه تسعة وتسعين بعيرًا فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها. فقال الصمة: والله ما رأيت ألأم منكما ، وإني لألأم منكما جميعًا إن أقمت بينكما. ثم رحل إلى الشام. فقالت ابنة عمه: تالله ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته ببعير !!

تأمل أيها القاريء هذه القصة الوجيزة ، وأكملها بما لديك من وثبات الخيال ، ولا تطالبني بأكثر من هذا الإيجاز ، فإنما أتخذه مقدمة لدرس قصيدة الصمة في الحنين... ألم تر إليه وقد طالت غربته ، فبعث الشوق بقلبه ، واعتادته ذكرى أحبابه وأوطانه. فقال يعاتب نفسه ، ويحاور فؤاده:

أمن ذكر دارٍ يالرقاشين أصبحت ... بها عاصفات الصيف بدءًا ورجعا
حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعًا ... وتجزع أن داعي الصبابة اسمعا

ثم أخذ يخاطب رفيقيه – وقد بالغا في لومه وأطالا في تأنيبه – فقال:

ألا يا خليلي اللذين تواصيا ... بلومي إلا أن أطيع وأتبعا
قفا إنه لابد من رجع نظرة ... يمانيةٍ شتى بها القوم أو معا
لمغتصبٍ قد عزه القوم أمره ... حياءً يكف الدمع أن يتطلعا

ثم شرع في تعجيزهم وتيئيسهم فقال:

فبعض فإن كنتم ترجون أن يذهب الهوى شـهي يقينًـا ونـروى بالشـراب فننقعـا
فردوا هبوب الريح أو غيرو الجوى إذ حـــل ألـــواذ الحشـــا فتمنعـــا

ومن يستطيع ذلك ؟ تالله ما العاذل وإن اشتط في عذله ، وبالغ في لومه ، بقادر على نسيانك، أو سلوانك:

ظـن الهـوى لبسـة تبلـى فيخلعهـا فكان في القلب مثل القلب في البدن

ثم عاد إلى رفيقيه يسألهما الإسعاد والإنجاد:

فبعض قفا ودعا نجدًا ومن حل بالحمى وقـــل لنجـــدٍ عنـــدنا أن يودعـــا

مسكين ! وقل لنجد أن يودع ! إذن فما كنت صانعًا لو أنصفته ؟ أكنت تغرب في البكاء والإعوال حتى يرحمك أعطاؤك ، ويرثي لك حاسدوك ؟ أم كنت تقتل نفسك جوى وحزنًا ؟ ثم قال:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى ومـا أجمـل المصـطاف والمتربعـا
وليسـت عشـيات الحمـى برواجـعٍ إليـك ولكـن خـل عينيـك تـدمعا

اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك

واستبق دمعك لا يودي البكاء به وأكفـف مـدامع مـن عينيـك تسـتبق
فمـا الشـئون وإن جـادت بباقيـةٍ ولا الجفـون علـى هـذا ولا الحـدق

ثم أخذ يصف وقفه وقد حال (البشر) بينه وبين أحبابه وأوطانه. فقال:

ولمـا رأيـت (البشـر) أعـرض دوننـا وحالـت بنـات الشـوق يحـنن نزعـا
بكـت عينـي اليسـرى فلمـا زجرتهـا عـن الجهـل بعـد الحلـم اسـبلتا معـا

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذا الخيال ، وهو عندي من دلائل الوله وعلائم الصبابة المضلة. ثم قال في وصف ما لاقى في تلفته من العنت:

فبع تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتًا واخدعا

وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظه من البيان. وقد تبعه الشريف الرضي فأبدع وأجاد في قوله:

ولقد مررت على ديارهم وربوعها بيد البلى نهب
فوقفت حتى ضج من لغبٍ نضوى ولج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الربوع تلفت القلب

ويمتاز بيت الصمة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه المواقف من ظاهر التعب. فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد الشوق وعانى الصبابة. ثم قال الصمة في تتمة الحديث عن جواه:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشيةٍ أن تصدعا

ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة. وقد أكمله ابن نباتة السعدي بقوله:

أضم على قلبي يدي مخافة إذا لاح لي برق من الشرق لامع
وهل ينفع القلب الذي بان إلفه إذا طار شوقًا أن تضم الأضالع

ومن الحنين قول ابن عبد ربه:

وعدتني بزفرة واعتناقٍ ثم نادت متى يكون التلاقي
وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ليتني مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرتحل فيأخذ في ذكر المعاهد والعهود ، وقد يظعن حبيبه ويقيم ، فيأخذ في الإعوال عليه ، والحنين إليه ، وهناك من غرائب الهوى وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست أقل من سابقتيها جوى وحزنًا ، بل ربما كانت أكثر حيرة: وهي أن يلتقي الركبان وفيهما محب ومحبوب ، ثم يفترقان قبل أن يتلاقى الصبان: ويجتمع الخلان ، فلا يدري العاشق أي عهد يبكي ، وأي حظ يندب ، كما لا يعرف أيلوم

نفسه لأنه ظعن وترك حبيبه مقيمًا ، أم يشكو دهره لأن حبيبه سار وخلفه ، أم يعول إعوالاً مبهما لا يعرف مصدره ، ولا يفهم مبعثه ، والشعر في هذا المعنى أقرب إلى الذكرى منه إلى الحنين ، ومن الجيد فيه قول الأرجاني:

استودع الله قومًا كيف أبعدنا ... تقلب الدهر منهم حين أدنانا
زموا الغداة مطاياهم لفرقتنا ... لما أنخنا للقياهم مطايانا
لم تشتبك بعد أطناب الخيام لنا ... ولا المنازل ضمتهم وإيانا
لكنهم عاجلونا بالنوى ومضوا ... وخلفوا الطرب المشتاق حيرانا
لم يملأ العين من أحبابه نظرًا ... إذ غادر الدمع منه الجفن ملآنا

وإني موافيك ببديع الشعر وشجيه ، فيما يمثل حال المحب نأى عنه حبيبه ، أو خلف أحبابه وسار ، فمن الأول قول سبط التعاويذي:

أتعود أيامي برامة بعد ما ... سكنت بجرعاء الحمى آرامها
وأحلها البين المشت محلةً ... بعدت مراميها وعز مرامها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت ... نفس يزيد على الورود هيامها
يا غادرين وغادروا بجوانحي ... لبعادهم نارًا يشب ضرامها
بنتم فلا عيني تجف غروبها ... أسفًا ولا كبدي يبل أوامها
جودوا لعين المستهام بهجعة ... فعسى تمثلكم لها أحلامها
لا تتلفوا بالبين مهجة عاشق ... سيان بين حميمها وحمامها
أعداه من هيف الخصور نحولها ... يوم النوى ومن العيون سقامها

ولم أد في هذا المعنى أشجى وأوجع من قول بعض المتيمين:

لبكاء هذا اليوم صنت مدامعي ... وكذا العزيز لكل خطب يُذخرُ
يا ساكني وادي العقيق فدتكم ... عين مدامعها عقيق أحمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم ... لفظًا ولم يحسن لعيني منظر

والبيت الأخير مأخوذ من قول ابن أبي ربيعة:

لم يجب القلب شيئًا مثل حبكم ... ش ولم تر العين شيئًا بعدكم حسنًا

فأما شعر من نأوا عن أحبابهم ، وخلوا معاهد انسهم ، فهو كثير ، ومن جيده قول الأبيوردي يتشوق إلى أحبابه وقد خلاهم ببغداد:

ألاليت شعري هل أراني بغيضةٍ أبيت على أرجائها وأقيلُ
هواء كأيام الهوى لا يغبه نسيم كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت على صفحتيه نضرة وقبول
وأرض حصاها لؤلؤ وترابها تضوع مسكًا والمياه شمول
بها العيش غص والحياة شهية وليلي قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائي بغداد هل بكم سلو فعندي رنة وعويل
ترنحني ذكراكم فكأنما تميل بي الصهباء حيث أميل
لئت قصرت أيام أنسي بقربكم فليلي على نأي المزار طويل

وقال اعرابي من بني عقيل:

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري نحو الحجاز بنافعي بشيء ولكني على ذاك انظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة لعينيك يجري ماؤها يتحدر
متى يستريح القلب إما مجاور حزين وإما نازح يتذكر

وقال آخر في الحنين إلى أيامه السوالف:

فبع سقى الله أيامًا لنا قد تتابعت وسقيًا لعصر العامرية من عصر
ليالي أعطيت البطالة مقودي تمر الليالي والشهور ولا أدري

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينة:

ألا لا أرى وادي المياه بثيب ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وأنني لمشتهر بالواديين غريب
أحقًا عباد الله إن لست واردًا ولا صادرًا إلا علي رقيب
ولا زائرًا فردًا ولا في جماعةٍ من الناس إلا قيل أنت مريب

وهــل ريبــة فــي أن تحــن نجيبــة إلــى إلفهــا أو أن يحــن نجيــب
وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى إلــي وإن لــم آتــهِ لحبيــب
لــك الله أنــي واصــل مــا وصــلتني ومــئنٍ بمــا أوليتنــي ومثيــب
وآخــذ مــا أعطيــتِ عفــوًا وإننــي لأزور عمــا تكــرهين هيــوب
فــلا تتركــي نفســي شــعاعًا فإنهــا مــن الوجــد قــد كــادت عليــك تــذوب
وإنــي لأســتحييك حتــى كأنمــا علــي بظهــر الغيــب منــك رقيــب

وفي هذا المعنى يقول صاحب البدائع:

تجمــل بالســماح ودع ملامــي وكــن عــون المحــب المســتهام
ففــي أســيوط لــو تــدري حبيــب هجــرت لبعــده طيــب المنــام
أســيت لــه يحــن إلــى لقــائي ودون مرامــه كيــد اللئــام
إذا مــا الليــل جــن ونــام صــحى مشــت نــار التــذكر فــي عظــامي
ســلام أيهــا النــائي ســلام وهــل يغنــي عــن اللقيــا ســلامي

الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رقة القلوب ، فمن ذلك قول خالد الكاتب:

بجسمي لا بجسمك يا عليلُ ... ويكفيني من الأمل القليل
تعداك السقام إلى إني ... على ما بي لشدته حمول
إذا ما كنت يا أملي صحيحًا ... فحالفني وسالمك النحول

وهذه أبيات ضعيفة ، لا تتناسب مع شاعرية من يقول:

وحسبك حسرة لك من حبيبٍ ... رأيت زمامه بيدي عدوه

وقد يتمنى المحب لو أعفى المرض محبوبه ، ورتع كيف شاء في الأجسام الدميمة ، كما قال سُحيم:

ماذا يريد السقام من قمرٍ ... كل جمالٍ لوجهه تبع
ما يرتجى ، خاب من محاسنها ... أماله في القباح مُتسع
لو كان يبغي الفداء قلت لهُ ... ها أنا دون الحبيب يا وجع

وما أرق ما يقول ابن الأحنف:

فب إن التي هامت بها النفس ... عاودها من سقمها نكس
كانت إذا ما جاءها المبتلي ... أبرأه من راحها اللمس
وا بأبي الوجه المليح الذي ... قد عشقته الجن والإنس
إن تكن الحمى أضرت به ... فربما تنكسف الشمس

وانظر جمال الرفق في قوله:

أما والله لو تجدين وجدي ... لقلقل ما وجدت إذًا حشاك
وقال الله كل أذى بنفسي ... وعجل يا ظلوم لنا شفاك

وأنشد أبو الحسن بن البراء:

فـديتك ليلـى مـذ مرضـت طويـل ودمعـي لمـا لاقيـت فيـك همـول
أأشـرب كأسًـا أم أسـر بلـذةٍ ويعجبنـي ظبـي أغـن كحيـل
وتضـحك سـني أو تجـف مـدامعي وأصـبو إلـى لهـوٍ وأنـت عليـل
ثكلـت إذًا نفسـي وقامـت قيـامتي وغالـت حيـاتي عنـد ذلـك غـول

وقال يوسف بن إبراهيم الغرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم وقد أصابته حمى تركت على شفته بثورًا:

حاشـاك أن تمـرض حاشـاكا قـد اشـتكى قلبـي لشـكواكا
إن كنـت محمومًـا ضـعيف القـوى فـإنني أحسـد حماكـا
مـا رضـيت حمـاك إذ باشـرت جسـمك حتـى قبلـت فاكـا

وهذا الشعر وإن كان خطابًا لوزير إلا أن فيه سمات التشبيب !

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب ، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم ، كما قال المؤمل:

حلمت بكم في نومتي فغضبتم ... ولا ذنب لي إن كنت في النوم أحلم
سأطرد عني النوم كيلا أراكم ... إذا ما أتاني النوم والناس نوم
تصارمني والله يعلم أنني ... أبر بها من والديها وأرحم
وقد زعموا لي أنها نذرت دمي ... وما لي بحمد الله لحم ولا دم
برى حبها لحمي ولم يبق لي دمًا ... وإن زعموا أني صحيح مسلم
فلم أر مثل الحب صح سقيمه ... ولا مثل من لم يعرف الحب يسقم
ستقتل جلدًا باليًا فوق أعظمٍ ... وليس يبالي القتل جلد وأعظم

ومنهم من يبلى جسمه ، ولا يبلى شوقه ، كما قال أبو تمام:

يا جفونًا سواهرًا أعدمتها ... لذة النوم والرقاد جفون
بلي الجسم لكن الشوق حي ... ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن لله في العباد منايا ... سلطتها على القلوب العيون

ويقرب من هذا المعنى قول السري الرفاء:

فداؤك من أوردته منهل الردى ... وورد الردى للعاشقين يطيب
وما مات حتى أنحل الحب جسمه ... فلم يبق فيه للتراب نصيب

والأرجاني يذكر أن طيفه لو زار حبيبه لحمل شخصه إليه لنحوله ويقول:

يروي ضاحي الوجنات دمعي ... ويعدل عن لهيب جوى دخيل
وما نفعي وإن هطلت غيوث ... إذا أخطأن أمكنة المحول
هم نقضوا عهودي يوم بانوا ... وأبدوا صفحة الطرف الملول

وفـــوا بـــالهجر لمـــا أوعـــدوني وكـم وعـدوا الوصـال ولـم يفـوا لـي
وفـي الركـب الهلاليـين خشـف تعـــرض يـــوم تشـــييع الحمـــول
أصـــاب بطرفـــه الفتـــان قلبـــي وكيـــف يصـــاب مـــاضٍ مـــن كليـــل
بخلـت وقـد حظيـت بصـفوودي وإن مـــن العنـــاء هـــوى البخيـــل
وبـت لـو اسـتزرت اليـوم طيفـي لجـر إليـك شخصـي مـن نحـولي
ولكـــن لا ســـبيل إلـــى شـــفاءٍ إذا مـــال الطبيـــب علـــى العليـــل

ومنهم من يذكر أنه ضنى حتى لو تعلق بعود تمامٍ ما تأود ، كما قال الحسين بن مطير الأسدي:

خليلـي هـل ليلـى مؤديـة دمـي إذا قتلتنـــي أو أميـــر يقيـــدها
وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقل قتلـت ولـم يشـهد عليهـا شـهودها
ولـن يلبـث الواشـون أن يصـدعوا العصـا إذا لـم يكـن صـلبًا على البري عودها
نظـرت إليهـا نظـرةً مـا يسـرني بهـا خمـر انعـام الـبلاد وسـودها
ولي نظرة بعد الصدود من الجوى كنظـرة ثكلـى قـد أصـيب وحيـدها
فحتا متى هـذا الصـودود إلى متى لقـد شـف نفسـي هجرهـا وصـدودها
فلـو أن مـا أبقيـت منـي معلـق بعـــود تُمـــامٍ مـــا تـــأود عودهـــا

وقال الحارثي في وصف آصار النحول:

سـلبت عظـامي لحمهـا فتركتهـا مجـردة تضـحى لـديك وتخصـر
وأخليتهـــا مـــن مخهـــا فكأنهـــا أنابيـب فـي أجوافهـا الـريح تصـفر
إذا سـمعت باسـم الفـراق تقعقعـت مفاصـلها مـن هـول مـا تتنظـر
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنطري بـــي الضـــر إلا أننـــي أتســـتر
فما حيلتي إن لـم تكـن لـك رحمـة علـي ولا لـي عنـك صـبر فأصـبر

ويقول ابن الأحنف:

فبع انظر إلى جسدٍ اضر به الهوى لـــولا تقلـــب طرفـــه دفنـــوه

وتابعه المتنبي فقال:

كفى بجسمي نحولاً لأنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته إلى بعض أحبابه:

سكنت إلى النوى ونسيت صبًا ... شهي نحيلا كاد يقتله الحنين

فلما لم يجد في الحب صبرًا ... ولم ترحم جوانحه الشجون

تفانى في النحول فلو تبدى ... لما فطنت لخطرته العيون

وها هو كالخيال أتاك يسرى ... مخافة أن تظن به الظنون

فأكرم نزله وأرحم ضناه ... فإن فؤادك الحرم الأمين

وقال بعض الشعراء:

إن الذي أبقيت من جسمه ... يا متلف الصب ولم يشعر

صبابة لو أنها دمعة ... تجول في عينيك لم تقطر[1]

[1] الصبابة بالضم هي البقية الطفيفة من الشيء.

أماني المحبين

وللمحبين أمانٍ كثيرة ، لو تنفع الأماني ، فمنهم من يتمنى الكأس من يد جميل ، بين ندمان يعاطونه أطايب الحديث ، كما قال العطوي:

وكم قالوا تمن فقلت كأس يطوف بها قضيب من كثيب
ونـدمان تساقطني حديثًا كلحظ الحب أو غض الرقيب

وإنها لأمنية عزيزة المنال !

ومنهم من يسامر الأماني حتى ليحسب محبوبه بين يديه ، كما قال ابن الزيات:

يا داني الدار في الأماني ونازح الدار في العيان
ذكرك دانٍ وأنت ناءٍ فأنت ناءٍ وأنت دانِ
نفسك موصولة بنفسي وأنت كالنجم من سكاني
لي فكر فيك معجبات في اللفظ صفر من المعاني
تجري ضرب من التمني في كل يوم على لساني
أقول حتى كأن عيني تراك من حيث لا تراني

ويتمنى ابن الأحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته ، ويقول:

مجلس ينسب السرور إليه بمحبٍ ريحانه ذكراكِ
كلما دارت الزجاجة زادته اشتياقًا وحُرقةً فبكاكِ
لم ينلك الرجاء أن تحضريني وتجافت أمنيتي عن سواكِ
فتمنيت أن يغشيني الله نُعاسًا لعل عيني تراك

وربما تمنى المحب لو أُعير سلوة من قلب حبيبه ، كما قال البحتري:

وددت وهل نفس أمريءٍ بملومةٍ إذا هي لم تعط الهوى من ودادها
لو أن سليمي أسجحت أو لو أنه أعير فؤادي سلوة من فؤادها

وما أظرف النشوة التي تمناها البحتري حين قال:

هل لي سبيل إلى الظهران من حلب ... ونشوةٍ بين ذاك الورد والآسِ
أمد كفي لأخذ الكأس من رشأٍ بغرب أنفاسه أشفي الغليل إذا ... وحاجتي كلها في حامل الكاس
دنا فقربها من حر أنفاسي

ومن غريب التمني ما جاء في رائية أبي صخر الهُذلي ، فقد تمنى أن يجتمع بحبيبته فوق أمواج البحر ، ومن دونها اللجج الخضر والأهوال ، وإليك أروع هذه القصيدة البديعة:

لليلى بذات الجيش دار عرفتها ... وأخرى بذات البين آياتها سطر
كأنما ملآن لم يتغيرا ... وقد مر للدارين من بعدنا عصر
وقفت برسميها فعي جوابها ... فقلت وعيني دمعها سرب همر
ألا أيها الركب المخبون هل لكم ... بساكن أجزاع الحمى بعدنا خبر
فقالوا طوينا ذاك ليلا فإن يكن ... به بعض من تهوى فما شعر السفر

●

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات واحيا والذي أمرهُ الأمرُ
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها ... بتاتًا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فُجاءة ... فأبهت لا عُرفٌ لدي ولا نُكرُ
وانسى الذي قد كنت فيه هجرتها ... كما قد تنسي لب شاربها الخمر
وما تركت لي من شذًا أهتدي به ... ولا ضلعٍ إلا وفي عظمها وقر
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... اليفين منها لا يروعهما الذعر
ويمنعني من بعض إنكار ظلمها ... إذا ظلمت يومًا وإن كان لي عذر
مخافةُ إني قد علمت لئن بدا ... لي الهجر منهاما على هجرها صبر
وإني لا أدري إذا النفس أشرفت ... على هجرها ما يبلغن بي الهجر
تكاد يدي تندى إذا ما لمستها ... وينبت في أطرافها الورق النضر

وأنـــي لتعرونـــي لـــذكراك هِـــزةٌ ... كمـا انـتفض العصـفور بـالله القطـر
تمنيـــت مـــن حبـــي عليـــة أننـــا ... على رمـثٍ فـي البحـر لـيس لنـا وفـر
علـى دائـمٍ لا يعبـر الفلـك موجـه ... ومـن دوننـا الأهـوال واللجـج الخضـر
فتقضـي هـم الـنفس فـي غيـر رقبـةٍ ... ويغـرق مـن نخشـى نميمتـه البحـر
عجبـت لسـعي الـدهر بيني وبينهـا ... فلمـا انقضـى مـا بيننـا سـكن الـدهر
فيـا حبهـا زدنـي جـوى كـل ليلـة ... ويـا سـلوة الأيـام موعـدك الحشـر
هجرتك حتى قلت لا يعرف القلى ... وزرتـك حتـى قلـت لـيس لـه صـبر
صـدقت أنا الصب المصاب الذي ... تبـاريح حـب خـامر القلـب أو سـحر
بـــــــــــــــــــــــــــه ... ويـا حبـذا الأمـوات مـا ضـمك القبـر
فيـا حبـذا الأحيـاء مـا دمـت فـيهم

وإليك شتى الأماني في قول جميل:

جزتـكِ الجـوازي يـا بثـين ملامـة ... إذا مـا خليـل بـأن وهـو حميـد
ألا ليـت شـعري هـل أبيـتن ليلـةً ... بـوادي القـرى ؟ إنـي إذًا لسـعيد
فقـد تلتقـي الأهـواء مـن بعـد يأسـه ... وقـد تطلـب الحاجـات وهـي بعيـد
ويحسـب نسـوان مـن الجهـل أننـي ... إذا جئـت إيـاهن كنـت أريـد
فأقسـم طرفـي بيـنهن سـوية ... وفـي الصـدر بـون بيـنهن بعيـد
فليـت وشـاة النـاس بينـي وبينهـا ... يـدوف لهـم سـما طمـاطم سـود
وليـتهم فـي كـل ممسـى وشـارقٍ ... تضـاعف أكبـال لهـم وقيـود
إذا جئتهـا يومًـا مـن الـدهر زائـرًا ... تعـرض منقـوص اليـدين صـدود
يصـد ويغضـني عـن هـواي ويحتنـي ... ذنوبًـا علينـا إنـه لعنـود
فأصـرمها خوفًـا كـأني مجانـب ... ويغفـل عنـا مـرةً فنعـود
يقولـون جاهـد يـا جميـل بغـزوةٍ ... وأي جهـاد غيـرهن أريـد
لكـل حـديثٍ بيـنهن بشاشـة ... وكـل قتيـلٍ بيـنهن شـهيد

وغاية الغايات في هذا الباب قول أبي بكر بن عبد الرحمن الزهري:

ولمـــا نزلنـــا منـــزلاً طلـــه النـــدى أنيقًـــا وبســـتانًا مـــن النـــور حاليـــا
أجـد لنـا طيـب المكـان وحسـنُهُ منـــى فتمنينـــا فكنـــتِ الأمانيـــا

الهيبة والخضوع

والشعراء بهابون الحسن ، ويضلون سبيل الرشد حين يراجعون أرباب وانظر قول أبي فراس:

أراميتي كل السهام مصيبة ... ش وأنت لي الرامي فكلي مقاتل
وإني لمقدام وعندك هائب ... وفي الحي سبحان وعندِ باقل
يضل علي القول إن زرت دارها ... ويعزب عني وجه ما أنا فاعل
وحجتها العليا على كل حالةٍ ... فباطلها حق وحقي باطل

وما أرق قوله في عكس هذا المعنى:

ومُغضٍ للمهابة عن جوابي ... وإن لسانه العضب الصقيل
أطلت عتابهُ عنتًا وظلمًا ... فدمع ثم قال: كما تقول !

ومن جيد الشعر في هيبة الحسن ، قول الحسن بن وهب:

أقول وقد حاولت تقبيل كفها ... وبي رعدة أهتز منها وأسكن
ليهنك أني أشجع الناس كلهم ... لدى الحرب إلا أنني عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة ... علي ولكن ملء عين حَبيبُها
وما هجرتك النفس أنك عندها ... قليل ولكن قل منك نَصيبُها

وفي الخضوع للحبيب يقول الشريف:

كم ذميلٍ إليكم ووجيف ... وصدودٍ عنا لكم وصدوفِ[1]
وغرامٍ بكم لو أن غرامًا ... جر نفعًا للواجد المشغوف

[1] الذميل والوجيف من ضروب السير.

صبوة ثم عفة ما أضر الحـ ـب في كل خلوةٍ بالعفيف
هجرونا ولم يلاموا وواصلـ ـنا على مؤلم من التعنيف
وطلبنا الوفاء حتى إذا عز رضينا بالمطل والتسويف
كيف يرجو الكثير من راضه الشو ق إلى أن رضي ببذل الطفيف

وانظر قول ابن الرومي:

أضعتني فرعيت وخنتني فوفيت
أطعت في الأعادي وكلهم قد عصيت
فكيف أصبحت غضبي لما رضاكِ أتيت

الرضى بالقليل

وقد يقنع المحب وهو راغم ، فيرضى بالوعد ، ويفرح بالأماني ، وهي كواذب لأن الوصل عزيز المنال ، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف:

كفى حزنًا أني وفوزًا ببلدةٍ ... مقيمان في غير اجتماعٍ من الشملِ
أما والذي ناجي من الطور عبده ... وأنزل فرقانًا وأوحى إلى النحل
لقد ولدت حواءُ منك بليةً ... علي اقاسيها وخبلا من الخبل
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم ... بشيءٍ سوى حُسن المواتاةِ والبذل
وأني ليرضيني الذي ليس بالرضى ... وتقنع نفسي بالمواعيدِ والمطل

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

لك الله هل بعد الصدود تعطف ... وهل بعد ريعان البعاد تدانِ
وما غرضي أني أسومك خطةً ... كفاني قليل من رضاك كفاني

وقال بعض الظرفاء:

أنا راضٍ منكم بأيسر شيءٍ ... يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلام على الطريق إذا ما ... جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميري في ليلى الأخيلية:

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها ... وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها ... جاد لها دمع من العين سافح
وأغبط من ليلى بما لا أناله ... بلى كل ما قرت به العين صالح

وقد كثر القليل في قول ابن الطثرية:

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها ... إليك ؟ وكلا ليس منكِ قليلُ

وجاراه في هذا المعنى من قال:

إن مـا قـل منـك يكثـر عنـدي وكثيـر ممـن تحـب القليـل

وأبرع الشعر في هذا المعنى قول جميل:

وأنـي لأرضـى مـن بثينـة بالـذي شـهي لـو أبصـره الواشي لقرت بلابلـه
بـلا ، وبـأن لا أسـتطيع ، وبـالمنى ، وبالأمـل المرجـو قـد خـاب آملـه
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضي أواخـرُ لا نلتقـي وأوائلـه

وفي مقابل هذا يقول ابن الفارض:

وإذا اكتفـى غيـري بطيـف خيالـه فأنـا الـذي بوصـاله لا أكتفـي

وأبدع منه قول ابن الرومي:

أعانقـه والـنفس بعـد مشـوقة إليـه وهـل بعـد العنـاق تـدان
وألـثم فـاه كـي تـزول حرارتـي فيشـتد مـا ألقـى مـن الهيمـان
ولم يك مقدار الذي بي من الجوى ليرويـه مـا تلـثم الشـفتان
كـأن فـؤادي لـيس يشـفي غليلـه سـوى أن يـرى الـروحين يمتزجـان

شفاء المحب

وقد يمرض المحب ، فيفتن الناس في وصف دوائه ، على أنه لا يبرأ إلا بقرب من يحب. وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء:

وما هي إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأصدف عن رأيي الذي كنت أرتئي ... وأنسى الذي أزمعت حين تغيب
ويظهر قلبي عذرها ويعينها ... علي فمالي في الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسي مكان شفاءها ... قريبًا وهل مالا ينال قريب
فواكبدي أمست رفاتًا كأنما ... يلذعها بالموقدات طبيب
عشية لا عفراء منك بعيدة ... فتسلو ولا عفراء منك قريب
لئن كان برد الماء حر إن صاديًا ... إلى حبيبًا إنها لحبيب

وفي هذا المعنى يقول بعض الأعراب:

يا زينة الدنيا التي لا ينالها ... مُناي ولا يبدو لقلبي صريمها
بعيني قذاة من هواك لو أنها ... تُداوى بمن أهوى لصحّ صقيمها
وبرء قذاة العين إن لم يكن لها ... طبيب يداوي نظرة تستديمها
فما صبر عن ذكرك النفس ساعة ... وإن كنت أحيانًا كثيرًا ألومها

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول أبي العتاهية:

قل لمن لست أسمي ... بأبي أنت وأمي
بأبي أنت لقد أصبحـ ... ـت من أكبر همي
ولقد قلت لأهلي ... إذا أذاب الحب لحمي
وأرادوا لي طبيبًا ... فاكتفوا مني بعلمي
من يكن يجهل ما ألـ ... ـقى فإن الحب سقمي
إن روحي لبغدا ... د وفي الكوفة جسمي

القلب الخافق

نذكر هنا ألوانًا من تصور الشعراء لخفوق القلب ، فمنهم من يشبه بتنزي الكرة ، كما قال بشار:

يروعه السرار بكل شيء ... مخافة أن يكون به السرار
كأن فؤاده كره تنزي ... حِذار البين لو نفع الحذارُ

ومنهن من يشبهه بالوشاح القلق ، فوق الخصر الدقيق ، كقول مسلم بن الوليد:

أزكى من المسلك أنفاسًا وبهجتها ... أرق ديباجة من رقة النفس
كأن قلبي وشاحاها إذا خطرت ... وقلبها قُلبها في الصمت والخرس[1]
تجري محبتها في قلب عاشقها ... جرى السلامة في أعضاء منتكس

وابن الأحنف يشبه القلب الخافق بين القينة الهوجاء تضرب بالدف ، ويقول:

يبين لساني عن فؤادي وربما ... أسر لساني ما يبوح به طرفي
أعيذك أن تشقى بقتلي فإنني ... أخاف عليك الله أن سمتني حتفي
إذا القلب أوما أن يطير صبابة ... ضربت له صدري وألزمته كفي
كأن جناحية إذ هاج شوقه ... يداقينةٍ هوجاء تضرب بالدف

ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين ينتفض ، كقول أحد الأعراب:

ألا بأبي من ليس والله نافعي ... بنيل ومن قلبي على النأي ذاكره
ومن كبدي تهفو إذا ذكر اسمه ... كهفو جناح ينفض الطل طائره

وقد وضح هذا المعنى في قول نُصيب:

كأن القلب ليلة قيل يُغدى ... بليلى العامرية أو يراحُ
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

---

[1] القلب بضم القاف هو السوار.

لهـــا فرخـــان قـــد تُركـــا بـــوكرٍ فعشـــــهما تُصـــــفقه الريـــــاح
إذا ســـمعا هبـــوب الـــريح نصًـــا وقـــد أودى بـــه القـــدر المتـــاح[1]
فـــلا فـــي الليـــل نالـــت مـــا ترجـــي ولا فـــي الصـــبح كـــان لهـــا بـــراح

وابن ميادة يذكر أن قلبه أمسى وكأن يدًا خبثت به ، أي قبضت عليه وسامته العذاب ، ويقول:

كـأن فـؤادي فـي يـدٍ ضـبثت بـه محـاذرة أن يقضـب الحبـل قاضـبه
وأشـفق مـن وشـك الفـراق وإننـي أظـــن لمحمـــول عليـــه فراكبـــه
فـــوالله مـــا أدري أيغلبنـــي الهـــوى إذا جـــد جـــد البـــين أم أنـــا غالبـــه
فإن أستطيع أغلب وإن يغلب الهوى فمثـل الـذي لاقيـت يغلـب صـاحبه

[1] نص الطائر بالنهوض.

مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كلما هب من نومه ، أو أوى إلى فراشه كالذي يقول:

أآخر شيء أنت في كل هجعة ... وأول شيء أنت عند هبوبي
مزيدك عندي أن أقيك من الردى ... وود كماء المزن غير مشوبِ

والمنى تمثل الحبيب في قول راشد بن أرشد:

تحيرت في أمري وأني لواقف ... أجيل وجوه الرأي فيك وما أدري
أأعزم عزم اليأس فالموت راحة ... أو أقنع بالأعراض والنظر الشزر
وإني وإن أعرضت عنك لنطوٍ ... على حرقٍ بين الجوانب والصدر
إذا هاج شوقي مثلتك لي المنى ... فألقاكِ ما بيني وبينك في السر
فمن ذاك لم أصبر ولي فيك حيلة ... ولكن دعاني اليأس منكِ إلى الصبر
تصبرت مغلوبًا وأني لموجع ... كما يصبر الظمآن في البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذي يقول:

ضحكت ولو تدرين ما بي من الهوى ... بكيت لمحزون الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرح عيناه من فيض عبرة ... ولا قلبه من زفرة ونجيب
لمستأنس بالهم في دار وحشة ... غريب الهوى باكٍ لكل غريب
ألا بأبي العيش الذي بان وانقضى ... وما كان من حسن هناك وطيب
وترداد مستور الأحاديث بيننا ... على غفلة من كاشح ورقيب
ليالي يدعونا الصبا فنجيبه ... ونأخذ من لذاته نصيب
إلى أن جرى صرف الحوادث في الهوى ... فبدل منا مشهد بمغيبِ

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد ، وحرمنا منه صاحب زهر الآداب حين قال "وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره ، وصنت الكتاب عن ذكره" وبهذه الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر ، وكم نتمنى أن لا يخلط المؤلفون بين الأدب والأخلاق !

وأجود ما قيل في مثال الحبيب قول كثير:

أريـــد لأنســـى ذكرهـــا فكأنمـــا تُمثـــلُ لـــي ليلـــى بكـــل ســـبيلِ

أهوال الصدود

ولقد أطال الشعراء في شكوى الصد ، وما يقاسون فيه من أهوال ، فمن ذلك قول الشريف:

وبين ذوائب العقدات ظبي ... قصر الخطو في المرط المذال
ربيب إن أريغ إلى حديث ... نوار إن أريد إلى وصال
فهل لي والمطامع مرديات ... دنو من لمى ذاك الغزال
لقد سلبت ظباء الدار لبي ... ألا ما للظباء بها ومالي
تنغصني بأيام التلاقي ... معالجتي بأيام الزيال
تحيفني الصدود وكنت دهرًا ... أروع بالصدود فلا أبالي على البلوى
وكيف أُفيق لا جسدي بناءٍ ... ولا قلبي بسالي
يرنجني إليك الشوق حتى ... أميل من اليمين إلى الشمال
كما مال المعاقر عاودته ... حُميا الكأس حالا بعد حال
ويأخذني لذكركم ارتياح ... كما نشط الأسير من العقال

وعبد الله بن مصعب يأسى على أن لم يعده أحبابه في مرضه ، مع أنه يعود كلبهم إذا مرض ! ولهذا لقلب (عائد الكلب) حين قال:

مالي مرضت فلم يعدني عائد ... منكم ويمرض كلبكم فأعود
وأشد من مرضى علي صدودكم ... وصدود عبدكم علي شديد

ويرى أبو النواس أن قرب الدار لا ينفع مع الصدود ، ويقول:

لقد عاجلت قلبي جنان بهجرها ... وقد كان يكفيني بذاك وعيد
رأيت تداني الدار ليس بنافع ... إذا كان ما بين القلوب بعيد

وابن الأحنف يترك العتب على الصدأ ، لئلا يرز بصدٍ جديد ، ويقول:

تركت صدودها وصبرت نفسي بطول تجرع الغيظ الشديد
مخافة أن تجدد لي صدودًا وكنت حديث عهد بالصدود

وقد وضح هذا المعنى من قبل في قول أبي صخر الهذلي:

ويمنعني من بعض إنكاري ظلمها شهي إذا ظلمت يومًا وإن كان لي عذرُ
مخافة أني قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر

والبحتري يمزج الشكوى بالعتاب في قوله:

ظلمتني تجنبًا وصدودًا غير مرتاعة الجنان لظلمي
ويسير عند القتول إذا ما أثمت في أن تبوء بإثمي
أجد النار تستعار من النا روينشو[1] من سقم عينيك سقمي
لعب ما أتيت من ذلك الصد فنرضاه أم حقيقة عزمِ
وبحقٍ أن السيوف لتنبو تارة والعيون باللحظ تُدمي

ويروقني الندم على الصدود في قول صاحب البدائع:

لقد صددناكم كما صددتم فهل ندمتم كما ندمنا

[1] يقال: نشأ ينشأ وشنؤ ينشؤ: أي قوي وزاد.

التفت إلى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون ، تلفتهم إلى معاهد الحب: عند الوداع ، وبعد الفراق.

قال بعض الرواة: مررت بحمى الربذة فإذا صبيان يتقاسمون[1] في الماء ، وشاب جميل الوجه ملوح الجسم قاعد ، فسلمت عليه فرد علي السلام. وقال: من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى ! قال ومتى عهدك به ؟ قلت رائحًا. قال وأين كان مبيتك ؟ قلت: أدنى هذه المشاقر[2]. فألقى نفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء. فقلت تفسأ[3] حجاب قلبه ، وأنشأ يقول:

سقى بلدًا أمست سُليمي تحلهُ ... من المزن ما تُروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه ... يحل به شخص علي كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدي وان شط المزار نعيم
ومن لا مني فيه حبيب وصاحبٌ ... فرد بغيظٍ صاحب وحميمُ

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه ، فصحت بالأصبية ، فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول:

إذا الصب الغريب رأى خشوعي ... وأنفاسي تزين بالخشوعِ
ولي عين أضر بها التفاني ... إلى الأجزاع مطلقة الدموع
إلى الخلوات تأنس فيك نفسي ... كما أِنس الوحيد إلى الجميع

---

[1] يتقاسمون: يتغاطون. يقال قسمته في الماء غططه فيه.

[2] المشاقر منابت العرفج.

[3] تفسأ: تشقق وانصدع.

والشاهد في الأبيات الأخيرة

وما أوجع تلفت القلب بعد العين في قول الشريف:

تلفت حتى لم يبن من بلادكم ... دخان ولا من نارهن وقود

وإن التفات القلب من بعد طرفه ... طوال الليالي نحوكم ليزيد

ولما تداني البين قال لي الهوى ... رويدًا وقال القلب أين تريد

أتطمع أن تسلو على البعد والنوى ... وأنت على قرب المزار عميد

ولو قال لي الغادون ما أنت مُشتهٍ ... غداة جزعنا الرمل قلت أعود[1]

أأصبر والوعساء بيني وبينكم ... وأعلام خبتٍ ، أنني الجليد!

وانظر قوله من كلمة ثانية:

ترحلت عنكم لي أمامي نظرة ... وعشر وعشر نحوكم من روائيا

ومن حذرٍ لا أسأل الركب عنكم ... واعلاق وجدي باقيات كما هيا

ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلابد أن يلقى بشيرًا وناعيا

[1] جزع من باب منع: تقال جزع الأرض قطعها.

الصدى والنوى

يأسى العشاق للصد ، حتى إذا راعتهم مرارة النوى ، علموا أن الصد كان حلو المذاق. وفي هذا المعنى يقول ابن الخياط:

كفى حزنًا أني أبيت معذبًا ... بنار هموم ليس يخبو سعيرها
وإن عدوي لا يُراع وإنني ... أبيت سخين العين وهو قريرها
وإني لرهن الشوق والشمل جامع ... فكيف إذا حث الحداة أميرها
ومازلت من أسر القطيعة باكيًا ... فمن لي غداة البين أني أسيرها
وكنت أرى أن الصدود منية ... يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد بيننا ... وجدت الليالي كان حلوًا مريرها
هوى ونوى يستقبح الصبر فيهما ... وحسبك من حال يُذم صبورها

وقد أصاب في تشبيه النوى بعد الهجر ، بالجرح بعد الجرح حين قال:

أحن إلى قسمي لعلك عائدي ... شه ومن كلفٍ أني أحن إلى السقمِ
وحتامَ استشفي من الداء ما به ... سقامي وأستروي من الدمع ما يُظمي
فراق أتى في إثر هجر وما أذى ... بأوجع من كلمٍ أصاب على كلمٍ

وحنين المحب إلى سقمه ، أملا في أن يعود حبيبه ، يذكرنا بقول كثير:

يود بأن يُمسي سقيما لعلها ... إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

القريب والبعيد

هو الحبيب الذي يجاورك ، أو يساكنك ، ثم لا تملك وصله ، ولا حديثه. وقد تزوره بملح العين. كما قال ابن الدمينة:

ألا حب بالبيت الذي أنت هاجره وأنت بتلماحٍ من الطرف زائره
فيا لك من بيتٍ لعيني معجبٍ وأحسنُ في عيني من البيت عامره
أصد حياءً أن يلج بي الهوى وفيك المنى لولا عدو أحاذره

وفي هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

تدانت بقومٍ عن ثناءٍ زيارة وشط بليلى عن دنوٍ مزارها
وإن مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع في قربه ، بالماء يُمنع من وروده الظمآن ، فنجد منهم من يقول:

إني وإياك كالصادي رأى نهلا ودونه هوة يخشى بها التفا
رأى بعينيه ماءً عز مورده وليس يملك دون الماء منصرفا

ومن يقول:

وإني على هجران بيتك كالذي رأى نهلا ريا وليس بناهل
يرى برد ماءٍ ذيد عنه وروضةً برود الضحى فينانةً بالأصائل

وقد صور جميل هذا المعنى حين قال:

وما صاديات حمن يومًا وليلةً على الماء يخشين العصي حواني
حوائم لم صدرن عنه لوجهةٍ ولا هن من برد الحياض دواني
يرين حباب الماء والموت دونهُ فهن لأصوات الشقاة الرواني
بأكثر مني غُلةً وصبابةً إليك ولكن العدو عراني

وقال أبو حية النميري أو العباس بن الأحنف:

كفى حزنًا أني أرى الماء باديًا لعيني ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيتي بكف أعز الناس كلهم عندي

حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم ، لذكر الحبيب ، كما قال أبو نواس:

أحب اللوم فيها ليس إلا لترداد اسمها فيما أُلام
ويدخل حبها في كل قلب مداخل لا تغلغلها المدامُ

وفي هذا المعنى يقول محمد بن أبي أمية:

وحدثني عن مجلس كنت زينه رسول أمين والنساء شهود
فقلت له رد الحديث الذي مضى وذكرك من بين الحديث أريد

وقد ظرف البهازير حين قدم رضى الحبيب على رضا العذول ، وقال:

يا من يهدد بالصدو د نعم تقول وتفعل
قد صح عذرك في الهوى لكنني أتعلل
قل للعذول لقد أطلـ ـت لمن تلوم وتعذل
عاتبت من لا يرعوي وعذلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من غضبت الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبي فراس:

أساء فزادته الإساءة حظوةً حبيب على ما كان منه حبيب
يعد علي العاذلون ذنوبه ومن أين للوجه المليح ذنوب ؟

والرقيب أخو اللائم في تنغيص حياة العشاق ، ومن طيريف الشعر في الألم لقرب الرقيب قول ابن المعتز:

فبعض وآبلائي في محضرٍ ومغيبِ من حبيب مني بعيدٍ قريبِ
لم ترد ماء وجهه العين إلا شرقت قبل ريها برقيب

وقوله:

قـد دنـت الشـمس للمغيـب وحـان شـوقي إلـى الحبيـبِ
طـوبي لمـن عـاش عشـر يـومٍ لـه حبيـب بـلا رقيـبِ

وما أظرف من يقول:

لسـهم الحـب جـرح فـي فـؤادي وذاك الجـرح مـن عـين الرقيـبِ
يوكـل ناظريـه بنـا ويحكـي مكـان الكـاتبين مـن الـذنوب
فلـو سـقط الرقيـب مـن الثريـا لصـب علـى محـبٍ أو حبيـب

وانظر كيف ضُرب المثل بغفلة الرقيب في قول أحد الظرفاء:

يسـقيك مـن كفـهِ مُـدامًا ألـذ مـن غفلـة الرقيـبِ
كأنهـا إذ صَـفَت ورقـت شـكوى محـبٍ إلـى حبيـب

وقد كلف سعيد الوراق بغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم رقباء ، وفيهم يقول:

بربـك يـا حمامـة ديـر زكـى وبالإنجيـل عنـدكِ والصـليبِ
قفـي وتحملـي منـي سـلامًا إلـى قمـرٍ علـى غُصـنٍ رطيـب
حمـاه جماعـة الرهبـان عنـي فقلبـي مـا يقـر مـن الوجيـب
وقـالوا رابنـا إلمـام سـعدٍ ولا والله مـا أنـا بالمريـب
وقـولي سـعدك المسـكين يشـكو لهيـب جـوى أحـر مـن اللهيـب
فصـله بنظـرةٍ لـك مـن بعيـدٍ إذا مـا كنـت تمنـع مـن قريـب
وإن أنـا مـت فاكتـب حـول قبـري محـب مـات مـن هجـر الحبيـب
رقيـب واحـد تنغـيص عـيشٍ فكيـف بمـن لـه ألفـا رقيـب ؟

إنه لابد مقتول ، كما قتل صاحب هذه الأبيات !!

رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه في ضميره ، كلما اشتاق إليه ، كما قال الحكم بن قنبرة:

إن كنت لست معي فالذكر منك معي ... يرعاك قلبي وإن غُيبت عن بصري
العين تبصر من تهوى وتفقده ... وناظر القلب لا يخلو من النظر

وقال آخر:

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى ... لئن غبت عن عيني ما غبت عن قلبي
تُرينيك عين الوهم حتى كأنني ... أناجيك من قربٍ وإن لم تكن قربي

وقال أبو عثمان الناجم:

لئن كان من عيني أحمد غائبًا ... فما هو عن عين الضمير بغائب
له صورة في القلب لم يقصها ... ولم تتخطفها أكف النوائبِ
النوى ... وضاقت بقلبي في نواه مذاهبي
إذا ساءني يومًا شحوط مزاره ... محلتهُ بين الحشا والثرائب
عطفت على شخصٍ له غير نازحٍ

ويقرب من هذا المعنى قول الآخر في الاستعانة باسم الحبيب:

وليل وصلنا بين قُطريه بالشرى ... وقد جد شوق مطمع في وصالك
أطلت علينا من دجاه حنادس ... أعدن الطريق النهج وعر المسالك
فناديت يا أسماء باسم فانجلت ... واسفر منها كل أسود حالك
بنا أنت من ها نجونا بذكره ... وقد نشبت فينا أكف المهالك
منحتك إخلاصي واصفيتك الهوى ... وإن كنت لم تخطريني ببالك

وفي مثل هذا المعنى يقول اسحق الموصلي:

صـــب يحـــث مطايـــاه بـــذكركم ولـــيس ينســـاكم إن حـــل أو ســـارا
لـو يسـتطيع طـوى الأيـام نحـوكم حتـــى يبيـــع بعمـــر القـــرب أعمـــارا
يرجـو النجـاة مـن البلـوى بقـربكم والقـرب يُلهـب فـي أحشـائه النـارا

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب ، في حديث الشعراء ، وقد أثبت أخيرًا أحد الأطباء الألمان أن موطن الحب هو الكبد ، ونريد أن نذكر هنا طرفًا من حديث العرب عن الكبد ، وقرار الحب فيه ، مما يماثل هذا الرأي الجديد.. قال بعض الأعراب:

فيا كبدًا يُحمى عليها وإنها ... مخافة هيضات النوى لخفوق
أقام فريق من أُناسٍ يودهم ... بذات الغضا قلبي وبان فريق
بحاجة محزونٍ يظل وقلبه ... وهين ببضات الحجال صديق

وجرى ذكر القلب والكبد في كلمة صردر حين قال:

لا الحمى بعدكم مناخ ولا ما ... ءُ اللوى إذ هجرتموه بورِدِ
والفؤاد الذي عهدتم جموحًا ... راضه طول جوركم والتعدي
ما تريدون من دلائل شوقي ... غير هذا الذي أُجن وأُبدي
كبد كلما وضعت عليه ... راحتي قال أنت قادح زندي
وجفون جرين مدًا وماء البـ ... ـحر يرتاح بين جزر ومد

وكذلك جمع بينهما البحتري حين قال:

وما كبدي بالمستطيعة للأذى ... فأسلو ولا قلبي كثير التقلبِ

وابن الأحنف حين قال:

ما للكلوم التي بالقلب من أسى ... فاصبر على اليأس يا مستقبل الياسَ
ما أسمج الناس في عيني وأقبحهم ... إذا نظرت فلم أبصرك في الناس
حتى متى كبدي حرى معطشةً ... ولا يلين لشيء قلبك القاسي
يا موري الزند قد أعيت قوادحهُ ... أقبس إذا شئت من قلبي بمقباس

بكاء الملاح

نذكر للقارئ شذرات من الشعر في بكاء الملاح ، وما أغزر الدمع في بكاء المليح ، حين يظفر بحسنه التراب:

قال ابن عبد ربه: كان لمعلى الطائي جارية يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة ، فأخبر محمد بن وضاح قال: أدركت معلى الطائي بمصر وأعطى بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا معلى ؟ ! قال نعم. فقالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها !! فرد الدنانير واستقال صاحبه ثم أصيب بها إلى ثمانية أيام. فقال يرثيها:

فبعضيا موتُ كيف سلبتني وصفا ... قدمتها وتركتني خلفا
هلا ذهبت بنا معًا فلقد ... ظفرت يداك فسمتني خسفا
وأخذت شق النفس من بدني ... فقبرته وتركت لي النصفا
فعليك بالباقي بلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى
يا موت ما أبقيت لي أحدًا ... لما رفعت إلى البلى وصفا
هلا رحمت شباب غانية ... ريا العظام وشعرها الوحفا[1]
ورحمت عيني ظبيةٍ جعلت ... بين الرياض تناظرُ الخشفا
تقضي إذا انتصفت مرابضه ... وتظل ترعاه إذا أغفى
فإذا مشى اختلفت قوائمه ... وقت الرضاع فينطوي ضعفا
متحيرًا في المشي مُرتعشًا ... يخطو فيضرب ظلفهُ الظلفا
فكأنها (وصف) إذا جعلت ... نحوي تحير محاجرًا وطفا[2]

---

[1] الوحف: الاسود.

[2] وطف جمع أوطف ووطفاء وهو الماء الكثير أو الدمع: توصف به السحب والعيون.

يـا مـوت أنـت كـذا لكـل أخـي ... غلـــفٍ يصـــون ببـــره الإلفـــا
خلفتنـــي فـــردًا وبنـــت بهـــا ... مـــا كنـــت قلبـــك حـــاملا وكفـــا[1]
أســـكنتها فـــي قعـــر مظلمـــةٍ ... بيتًـــا يصـــافح تُربـــه الســـقفا
بيتًـــا إذا مـــا زاره أحـــد ... عصـــفت بـــه أيـــدي البلـــى عصـــفا
لا نلتقـــي أبـــدًا معاينـــةً ... حتـــى نقـــوم لربنـــا صـــفا
لبســـت ثيـــاب الحتـــف جاريـــة ... قـــد كنـــت ألـــبس دونهـــا الحتفـــا
فكأنهـــا والـــنفس زاهقـــة ... غصـــن مـــن الريحـــان قـــد جفـــا
يـا قبـر أبـقِ علـى محاسـنها ... فلقـــد حويـــت البـــر والظرفـــا

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الأبيات:

أقـول لقبـر زرتـه متلمثـا ... سـقى الله بـرد العفـو صـاحبة القبـر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى ... وشمس الضحى بين الصفائح والفقرِ
عجبـت لعـين بعـدها ملـت البكـا ... وقلـبٍ عليهـا يرتجـي راحـة الصـبر

وقال أبو تمام وقد ماتت جارية له:

جفوف البلى أسرعت في الغصنِ الرطب ... وخطب الردى والموت أبرحت من خطب
لقـد شـرقت فـي الشـوق بـالموت ... تبـدلت منهـا غربـة الـدار بـالقرب
غـــــــــــــــادة ... من الكرب روح الموت شر من الكرب
أقول ، وقد قالوا استراحت لموتها ... لهـا منـزل بـين الجـوانح والقلـب
لهـا منـزل تحـت الثـرى وعهـدتها

وما أجمل قبوله من كلمة ثانية:

يقولـون هـل يبكـي الفتـى لخريـدة ... إذا مـا أردت اعتـاض عشـرًا مكانهـا
وهل يستعيض المرء من خمس كفهِ ... ولـو صـاغ مـن حـر اللجـين بنانهـا

وقال ابن الرومي في بستان وكانت من الجيدات في الغناء:

---

[1] الوكف: الظلم.

ما أولع الدهر في تصرفهِ بكل زينٍ لهُ ومفتخر
أطار قمرية الغناء عن الأر ض فأي القلب لم تِطرِ
بستان يا حسرتا على زهرٍ فيك من اللهو بل على ثمرِ
بستان أضحى الفؤاد في ولهٍ يا نزهة السمع منه والبصرِ
بستان ما منك لامريءٍ عوض من البساتين لا ولا البشر
إن لم أكن مت فانقرضت فكم من موتةٍ للفؤاد في الذكر

وما أرق قوله في هذه القصيدة:

يا غصة السن يا صغيرته أمسيت إحدى المصائب الكبر
أني اختصرت الطريق يا سكني إلى لقاء الأكفان والحفر
أبعد ما كنت باب مبتهج للنفس أصبحت باب معتبر
كل ذنوب الزمان مغتفر وذنبه فيك غير مغتفر
لله ما ضمنت حفيرتها من حسن مرأى وطيب مختبر
أضحت من الساكني حفائرهم سكنى الغوالي مداهن السرر
لو علم القبر من أتيح لهُ لا نحفر القبر غير محتفر

وأحب لو تأمل القاريء ما في هذا الشعر من سمو الخيال.

وكان مرة بن عبد الله مغرمًا بفتاة من قومه يقال لها ليلى بنت زهير ، وتزوجت من غيره بالرغم منه ، ثم نقلت مع زوجها إلى راذان وماتت هناك ، فقال مرة فيها كثيرًا من الشعر الموجع. كقوله:

أيا ناعيي ليلى أما كان واحد من الناس ينعاها إلى سواكما
ويا ناعيي ليلى لجلت مصيبةً بنا فقد ليلى لا أُمرت قواكما
ولا عشتما إلا حليفي بليةٍ ولا مت حتى يُشترى كفناكما
فأشمت والأيام فيها بوائق بموتكما أني أحب رداكما

وقوله:

كأنك لم تُفجع بشيءٍ تُعده ولم تصطبر للنائبات من الدهر

ولـم تـر بؤسًـا بعـد طـول غضـارةٍ ولـم ترمـك الأيـام مـن حيـث لا تـدري
سـقى جـانبي راذان والسـاحة التـي بهـا دفنـوا ليلـى مُلـث مـن القطـرِ
ولازال خصب حيث حلت عظامها بـراذان يسـقي الغيـث مـن هطـل غمـر
وإن لـم تكلمنـا عظـام وهامـه هنـاك واصـداء بقـين مـع الصـخر

وكان لإسحق الموصلي غلام جميل يقال له زيد ، وهو الذي يقول فيه:

إذا مـا زيـاد علنـي ثـم علنـي ثـلاث زجاجـات لهـن هـدير
خرجـت أجـر الـذيل زهًـا كـأنني عليـك أميـر المـؤمنين أميـر

ثم مات زياد هذا ، فقال اسحق يبكيه:

فقـدنا زيـادًا بعـد طـول صـحابةٍ فـلازال يسـقي الغيـث قبـر زيـاد
ستبكيك كأس لم تجد من يديرها وظمـآن يسـتبطي الزجاجـة صـادي

وكان محمد بن مناذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي ، وكان عبد المجيد هذا من أجمل الفتيان وآدبهم وأظرفهم ، وله مع ابن مناذر حديث طويل ذكره صاحب الأغاني ، ثم مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو في سن العشرين فقال فيه ابن مناذر قصيدة طويلة نختار منها هذه القطعة الباكية:

كـل حـي لاقـى الحمـام فمـودي مـا لحـيٍ مؤمـل مـن خلـودِ
لا تهـاب المنـون شـيئًا ولا تبـ ـقي علـى والـدٍ ولا مولـود
ولقـد تتـرك الحـوادث والأيـا م وهيًـا فـي الصـخر الصـيخود[1]
ولـو أن الأيـام أخلـدن حيًـا لعـلاءٍ أخلـدن عبـد المجيـد
مـا درى نعشـهُ ولا حـاملوه مـا علـى الـنعش مـن عفـاف وجـود
ويـح أيـدٍ جثـت عليـه وايـدٍ دفنتـه ! مـا غيبـت فـي الصـعيد !
وأرانـا كـالزرع يحصـده الدهـ ـر فمـن بـين قـائمٍ وحصـيد
وكأنـا للمـوت ركـب مخبـو ن سـراعًا لمنهـلٍ مـورود

[1] الصيخود: الشديدة.

إن عبد المجيد يوم تولى ... هد ركنًا ما كان بالمهدود
هد ركني عبد المجيد وقد كنـ ... ـت بركنٍ أنوء منه شديد
وبعبد المجيد تامور نفسي ... عثرت بي بعد انتعاش جدودي[1]
وبعبد المجيد شلت يدي اليمـ ... ـنى وشلت به يمين الجود
حين تمت آدابه وتردى ... برداءٍ من الشباب جديد
فسقاه ماء الشبيبة فاهتز ... اهتزاز الغصن الندي الأملود[2]
وكأني أدعوه وهو قريب ... حين أدعوه من مكان بعيد
فلئن صار لا يجيب لقد كا ... ن سميعًا هشًّا إذا هو نودي
يا فتى كان للمقامات زينًا ... لا أراه في المحفل المشهود
لهف نفسي ! أما أراك وما عنـ ... ـدك لي أن دعوت من مردود
كان عبد المجيد سم الأعادي ... ملء عين الصديق رغم الحسود
عاد بعد المجيد رزءًا وقد كا ... ن رجاءً لريب دهرٍ كنود
خنتك الود لم أمت كمدًا بعـ ... ـدك إني عليك حق جليد
لو فدى الحي ميتًا لفدت نفـ ... ـسك نفسي بطارفي وتليدي
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز ... ن عليه لأبلغن مجهودي
لأقيمن مأتمًا كنجوم الليـ ... ـل زهرًا يلطمن حر الخدود
موجعات يبكين للكبد الحر ... ى عليه وللفؤاد العميد[3]
ولعينٍ مطروفةٍ أبدًا قا ... ل لها الدهر لا تقري وجودي
كلما عزك البكاء فأنفد ... ت لعبد المجيد سجلا فعودي
لفتى يحسن البكاء عليه ... وفتى كان لامتداح القصيد
فبرغمي كنت المقدم قلبي ... وبكرهي دليت في الملحود

---

[1] تامور النفس حياتها.

[2] الاملود: الناعم الرقيق.

[3] العميد الذي صرعه الحزن.

كنت لي عصمة وكنت سماءً بك تحيا أرضي ويخضر عودي

وأغرم يعقوب بن الربيع بجارية تسمى (مُلك) ومكث في طلبها سبع سنين ،حتى رق ماله ، وجهه ، ثم ملكها ، فأقامت عنده ستة أشهر وماتت فقال يبكيها:

لله آنسة فجعت بها ما كان أبعدها من الدنسِ
أتت البشارة والنعي معًا يا قرب مأتمها من العرسِ
يا مُلكُ ! نال الدهر فرصتهُ فرمى فؤادًا غير محترسِ
أبكيك ما ناحت مطوقة تحت الظلام تنوح في الغلسِ

وقال فيها:

ليت شعري بأي ذنبٍ لمُلكٍ كان هجري لقبرها واجتنابي
ألذنبٍ حقدته كان منها أم لعلمي بشغلها عن عتابي
أم لأمني لسخطها ورضاها حين واريت وجهها في التراب
إنما حسرتي إذا ما تذكر ت عنائي بها وطول طلابي
لم أزل في الطلاب سبع سنينٍ أتأتي لذاك من كل باب
فاجتمعنا على اتفاقٍ وقدرٍ وغنينا عن فرقةٍ باصطحاب
أشهرًا ستةً صحبتك فيها كن كالحلم أو كلمع السراب
وأتاني منك النعي مع البشـ ـرى فيا قرب أوبةٍ من ذهاب

وما أروع قوله في وصف احتضار هذه الجارية:

حتى إذا فتر اللسان وأصبحت للموت قد ذبلت ذبول النرجسِ
وتسيهلت منها محاسن وجهها وعلا الأنين تحثه بتنفسِ
رجع اليقين مطامعي يأسًا كما رجع اليقين مطامع المتلمس[1]

وقد وصف غربته من بعدها فقال:

فُجعتُ بمُلكٍ وقد أينعت وتمت فأعظم بها من مصيبه

[1] المتلمس هو صاحب الصحيفة التي يضرب بها المثل في الخيبة.

فأصـــبحت مغتربًـــا بعـــدها واضـــحت بحلـــوان مُلـــك غريبـــه
أرانـــي غريبًـــا وإن أصـــبحت منـــازل أهلـــي منـــي قريبـــه
عطفـــت علـــى اختهـــا بعـــدها فصـــادفتها ذات عقـــلٍ أديبـــه
فأقبلـــتُ أبكـــي وتبكـــي معـــي بكـــاء كثيـــبٍ بحـــزن كئيبـــه
وقُلـــتُ لهـــا مرحبًـــا مرحبًـــا بوجـــه الحبيبـــة أُخـــت الحبيبـــه
سأصـــفيك ودي حِفاظًـــا لهـــا فـــذاكِ الوفـــاء بظهـــر المغيبـــه
أراكِ كمُلـــكٍ وإن لـــم تكـــن لملـكٍ مـن النـاس عنـدي ضـريبه[1]

والشعر في بكاء الملاح كثير ، ولكن حب الإيجاز يحملنا على الاكتفاء بهذا المقدار، وما هو بالقليل.

[1] ضريبة: شبيهة.

بكاء الحلائل

وأوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كن حلائل ، والحليلة المعشوقة متاع عزيز ! فمن ذلك قول أحد الفتيان في بكاء امرأته ، وكان بها من المغرمين:

أطأ التراب وأنتِ رهن حفيرةٍ ... شه هالت يداي على صداك ترابها
إني لأغدر من مشى إن لم أطأ ... بجفون عيني ما حييت جُنابها

قال ابن رشيق: ومن جيد ما رثي به النساء وأشجاه ، وأشده تأثيرًا في القلب ، وأثارة للحزن ، قول محمد بن عبد الملك الزيات في أم ولده:

ألا من رأى الطفل المفارق أُمه ... شهي بعدي الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أمٍ وابنها غير أُمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدًا في الفراش تحثه ... بلابل قلبٍ دائم الخفقان

يقول فيها بعد أبيات:

ألا أن سجلا واحدًا قد أرقته ... من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فإنما ... أداوي بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكانًا في الثرى خط لحده ... لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى ... فهل انتما إن عُجت منتظران

ومن أشجى الشعر رثاءً قوله في هذه القصيدة:

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني ... جليد فمن بالصبر لابن ثمانِ
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة ... ولا يأتسى بالناس في الحدثان
ألا من أمنيه المنى وأعده ... لعثرة أيامي وصرف زماني
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي ... وإن غبت عنه حاطني ورعاني

ولـم أر كالأقـدار كيـف يصـبنني ولا مثـل هـذا الـدهر كيـف رمـاني

ومن موجع الشعر قول امرأة شريفة ترثي زوجها ولم يكن دخل بها:

أبكيـــك لا للنعـــيم والانـــس بـــل للمعـــالي والـــرمح والفـــرس
أبكـي علـى فـارسٍ فجعـتُ بـه أرملنـــي قبـــل ليلـــة العـــرس
يـــا فارسًـــا بـــالعراء مُطرحًـــا خانتـــه قـــواده مـــع الحـــرس
مـــا لليتـــامى إذا هـــمُ ســـغبوا وكـــل عـــان وكـــل محتـــبس

وأني لآسف على قلة هذا النوع من الشعر في الآداب العربية ، مع إنه من دلائل الوفاء ، لو يعلم الشعراء !

لوعة الشوق

نمتع القاريء في هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن تغلغل الشوق في طيات الفؤاد. فمن ذلك قول أحد الشعراء وقد اشتاق إلى أرض جِلق ، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها:

وإن اصطباري عن معاهد جلقٍ غريب فما أجفى الفراق وأجفاني
سقى الله أرضًا لو ظفرت بتربها كحلت بها من شدة الشوق أجفاني

وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق إلى قرطبة:

أقرطبة الغراء هل لي أوبة إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة وقعقع في ساحات دوحاتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك روضة وتربك في استنشاقه عنبر ورد

وإني ليبكيني قول الشريف:

ذكرت الحمى ذكر الطريد محله يذاد ذياد العاطشات ويرجع
وأين الحمى لا الدار بالدار بعدهم ولا مربع بعد الأحبة مربع
سلام على الأطلال لا عن جنابةٍ ولكن يأسًا حين لم يبق مطمع
نشدتكم هل زال من بعد أهلهِ زرود وهل زالت طلول وأربع
نعم عادني عيد الغرام ونبهت على الجوى دار بميثاء بلقع
وطارت بقلبي نفحة عضوية تنفسها حالٍ من الروض مُمرع
نظرت الكثيب الأيمن اليوم نظرة ترد إلى الطرف يدمى ويدمع
وأيقظت للبرق اليماني صاحبًا بذات النقا يخفى مِرارًا ويلمع
أأنت معيني للغليل بنظرةٍ فنبكي على تلك الليالي ونجزع
معاذ الهوى لو كنت مثلي في إذًا لدعاك الشوق من حيث تسمع
الهوى وبرء الحشا ، إني من البين موجع

هناك الكرى ، إني من الوجد ساهر ... ولا نـوم لـي إلا النعـاس المـروع
فـلا لـب لـي إلا تماسـك سـاعة ... ألا مـوطن يـدنو بشـملٍ ويجمـع
ألا ليـت شـعري كـل دارٍ مشـتة

وانظر كيف يقول:

ومـا حائمـات يلتفـتن مـن الصـدى ... إلـى المـاء قـد مـوطلن بالرشـفان
إذا قيـل هـذا المـاء لـم يملكـوا لهـا ... معاجًـا بـأقرانٍ ولا بمثـانِ
بأظمـا إلـى الأحبـاب منـي وفـيهم ... غـريم إذا رمـت الـديون لـواني
فيـا صـاحبي رحلـي أقـلا فـإنني ... رأيـت بليلـى غيـر مـا تريـانِ
ويـا مزجـي النضـو الطلـيح عشـية ... تُـراك بـبطن المـأزمين ترانـي
وهـل أنـا غـادٍ أنشـد النبلـة التـي ... بهـا عرضًـا ذاك الغـزال رمـاني

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول:

خذوا نظرةً مني فلاقوا بها الحمى ... ونجـدًا وكثبـان اللـوى والمطاليـا
ومـروا علـى أبيـات حـيٍ برامـةٍ ... فقولـوا لـديغ يبتغـي اليـوم راقيـا
وقولـوا الجيـرانِ علـى الخيـف مـن ... تـراكم مـن اسـتبدلتم بجواريـا
منـى ... لواحظـه تلـك الظبـاء الجوازيـا
ومن حل ذاك الشعب بعدي وأرشقت ... بـه ورعـى الـروض الـذي كنـت راعيـا
ومـن ورد المـاء الـذي كنـت واردًا ... تـذوب عليهـا قطعـة مـن فؤاديـا
فوا لهفتي ! كم لي على الخيف شهقة ... حلفـت لهـم لا أقـرب المـاء صـافيا
صفا العيش من بعدي حلي على النقا ... فـإني سأكسـوك الـدموع الجواريـا
فيـا جبـل الريـان إن تعـر مـنهم ... نسـيتم ومـا اسـتودعتم الـود ناسـيا
ويـا قـرب مـا أنكـرتم العهـد بيننـا ... وموقفنـا نرمـي الجمـار لياليـا
أأنكـرتم تسـليمنا ليلـة النقـا ... حـديث النـوى حتى رمى بي المراميا
عشـية جـاراني بعينيـه شـادن ... فيـا راميًـا لا مسـك السـوء راميـا
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطهِ ... حرامًـا ولـم أهـبط مـن الأرض واديـا

فيا ليتني لم أعل نشزًا إليكم ولم ألق في اللاقين حيًا يمانيا
ولم أدر ما جمع وما جمرتا منى بذي البان لا يشرين إلا غواليا
ويا ويح نفسي كيف زايدت في مها

ويقول الأبيوردي يصف شوقه إلى حبيبته:

وأقسم بالبيت الرحيب فناؤه وبالحجر الملثوم والحجر والركن
لأنت إلى نفسي أحب من الغنى وذكرك أحلى في فؤادي من الأمن

ويصور الحارث بن خالد شوقه إلى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق إلى النجاة ، ويقول:

يا أم عمران مازلت وما برحت بنا الصبابة حتى مسنا الشفقُ
القلب تاق إليكم كي يلاقيكم كما يتوق إلى منجاته الغرقُ

وإنك لتلمس حرارة الشوق في قول العذري:

لو جز بالسيف رأسي في مودتكم لمر يهوى سريعًا نحوكم رأسي
ولو بلي تحت أطباق الثرى جسدي لكنت أبلى وما قلبي لكم ناسي
أو يقبض الله روحي صار ذكركم روحًا أعيش به ما عشت في الناس
لولا نسيم لذكراكم يروحني لعدت محترقًا من حر أنفاسي

والشوق يحمل ابن الدمية على أن يحمد لحبيبته ذكرها له بالمساءة ويقول:

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ربيعي الذي أرجو نوال وصالكِ
أرى الناس يخشون السنين وإنما سني التي أخشى صروف احتمالك
لئن ساءني أن نلتني بمساءةٍ لقد سرني أني خطرت ببالكِ
ليهنك إمساكي بكفي على الحشا ورقراق عيني رهبة من زِيالك

وانظر لوعة الشوق في قول أحد المتيمين:

أقول لأصحابي وهم يعذلونني ودمع جفوني دائم العبرات
بذكر منى نفسي فبلوا إذادنا خروجي من الدنيا جفون لهاتي

راحة السلوان

ومن العشاق من يستريح إلى السلو ، ولكن أين إلى السلو السبيل؟ فمن ذلك قول العديل بن الفرخ:

فبعض صحا عن طلاب البيض قبل مشيبه ... وراجع غض الطرفِ فهو خفيض
كأني لم أرع الصبا ويروقني ... من الحي أحى المقلتين غضيضُ
دعاني له يومًا هوى فأجابه ... فؤاد إذا يلقى المراض مريضُ
لمستأنساتٍ بالحديث كأنه ... تهلل غر برقهن وميض

وقال الشريف:

فبع هي سلوة ذهبت بكل غرامِ ... والحب نهب تطاول الأيام
ولقد نضحت من السلو وبرده ... حر الجوى فبردت أي ضرامِ
من بعد ما أظما الغليل جوانحي ... وأطال من ملل الزلال أوامي
لا يدع العذال نزع صبابتي ... بيدي حسرت عن الغرام لثامي
قد كانت الصبوات تعصب مقودي ... فالآن سوف أطيل من إجمامي
هيهات يخفضني الزمان وإنما ... بيني وبين الذل حد حسامي

وظاهر هذا الشعر أن أصحابه نزعوا عن الحب طائعين. وفي مقابل هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

وعلمتني كيف الهوى وجهلته ... وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
واعلم مالي عندكم فيردني ... هواي إلى جهلي فأرجع عن علمي

ويقول ابن الأحنف في اليأس من السلوان:

تجنب يرتاد السلو فلم يجد ... لهُ عنك في الأرض العريضة مذهبا
فعاد إلى أن راجع الوصل صاغرًا ... وعاد إلى ما تشتهين وأعتبا

ويقول من كلمة ثانية:

كم قد تجرعت من غيظٍ ومن حرقٍ إذا تجـــدد حـــزن هـــون الماضـــي
وكـم سـخطت ومـا بـاليتيم سـخطي حتـى رجعـت بقلـبٍ سـاخطٍ راضـي

ويقول أيضًا إبراهيم بن العباس:

لمن لا أرى أعرضت عن كل من أرى وصـــرت علـــى قلبـــي رقيبًـــا لقاتلـــه
أدافعـــــه عـــــن ســـــلوةٍ وأرده حنينًـــــا إلـــــى أوصـــــابه وبلابلـــــه

ويقول ابن أذنية:

إن التـــي زعمـــت فـــؤادك ملهـــا خلقـت هـواك كمـا خُلقـت هـوى لهـا
بيضـــاء باكرهـــا النعـــيم فصـــاغها بلباقـــــــةٍ فأدقهـــــــا واجلهـــــــا
حجبـت تحيتهـا فقلـت لصـاحبي مـــا كـــان أكثرهـــا لنـــا وأقلهـــا
وإذا وجـدت لهـا وسـاوس سـلوةٍ شـفع الضـمير إلـى الفـؤاد فسـلها

ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع:

ولمـــا نســـيتم ودنـــا وغرامنـــا ولـم تحفظـوا بعـد الفـراق لنـا عهـدا
جعلنا نغض الطرف عنكم وعندنا مـن الشـوق نـار لا نطيـق لهـا وفـدا

غدر الغواني

ولابد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب ، التي طالما يغدر فيها النساء. وإنا لنجد من بينهم من يحسب الغواني جميعًا غادرات ، ويقول:

فلا تحسبن هندًا لها الغدر وحدها ... سجية نفس ، كل غانيةٍ هندُ

ويقول كثير في السخر من عهود النساء:

فبع ألا إنما ليلى عصا خيزرانةٍ ... إذا غمزوها بالأكف تلين
تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن ... عليك شجًا في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك الليان فإنها ... لآخر من خلانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وقال الشريف يشكو المطل والتسويف:

يا ظبية البان ترعى في خمائلهِ ... ليهنك اليوم إن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمع الباكي
وعد لعينيك عندي ما وفيت به ... يا قرب ما كذبت عيني عيناك
أنتِ النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أرمك في قلبي وأحلامك
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
هامت بك العين لم تتبع سواك ... من علم العين إن القلب يهواك هوى

وإني ليشجيني قوله من كلمة نانية:

تهفو إلى البان من قلبي نوازعه ... وما بي البان من داره البان
أسد سمعي إذا غنى الحمام به ... كيلا يبين سر الوجد إعلان

ورب دارٍ أوليهـــــا مجانيـــــة ... وبـي إلـى الـدار أطـراب وأشـجان
إذا تلفـت فـي أطلالهـا ابتـدرت ... للقلـــب والعـــين أمـــواه ونيـــران
كلـــم بقلبـــي أداويـــه ويقرفـــه ... طـول أذكـاري لمـن لـي منـه نسيان[1]
لا للـــوائم أقصـــار بلائمـــة ... عـــن العميـــد ولا للقلـــب ســـلوان
علـى مواعيـدهم خلـف إذا وعـدوا ... وفـــي ديـــونهم مطـــل وليـــان
هـــم عرضـــوا بوفـــاء العهـــد آونـــة ... حتـــى إذا عـــذبوني بـــالمنى خـــانوا

وابن الرومي يجعل الغدر من طبائع الحسان ، إذ يشبههن بالحديقة ، تحمل الثمر حينًا وتعرى من الورق حينًا ، وإليك قوله من قصيدة طويلة:

فبـعيـولين مـا فيـه أغـرام وآونـة ... يـولين مـا فيـه للمعشـوق سـلوان
ولا يـدمن علـى عهـدٍ لمعتقـدٍ ... إنـي ؟ وهـن كمـا شـبهن بسـتان
يميـل طـورًا بحمـلٍ ثـم يعدمـه ... ويكتسـي ثـم يلفـى وهـو عريـان
تغـدو الفتـاة لهـا خـل فـإن غـدرت ... راحـت ينـافس فيهـا الخـل خـلان
مـا للحسـان مسـيئاتٍ بنـا ولنـا ... إلـى المسـيئات طـول الـدهر تحنـان
وإن تـبعن بعهـد قلـن معـذرةً ... إنـا نسـينا وفـي النسـوان نسـيان
يكفـي مطالبنـا بالـذكر ناهيـة ... إن اسـمنا الغالـب المشـهور نسـوان
لا نلـزم الـذكر أنـا لـم نسـم بـه ... ولا منحنـاه بـل للـذكر ذكـران
فضـل الرجـال علينـا إن شـيمتهم ... جـود وبـأس وأحـلام وأذهـان
وإن فـيهم وفـاءً لا تقـوم بـه ... ولـن يكـون مـع النقصـان رجحـان
صـدقن مـا شـئن لكنـا تقنصـنا ... مـنهن عـين تلاقينـا وأدمـان[2]
أنكـى وأزكـى حريقًـا فـي جوانحنـا ... خلـق مـن المـاء والألـوان نيـران
إذا ترقـرقن والإشـراق مضـطرم ... فـيهن لـم يملـك الأسـرار كتمـان
مـاء ونـار فقـد غـادرن كـل فتـى ... لابسـن وهـو غزيـر الـدمع حـران

---

[1] الكلم: الجرح. وقرف الجرح أصابته من جديد.

[2] عين جمع عيناء وهي جميلة العين ، والامادان الظباء.

تخصل منهن عين فهي باكية ويستحر فؤاد وهو هيمان

وقال فتى في ابنة عمه ، وقد تجنت عليه وغدرت به:

أأحبابنا لو تعلمون بحالنا لما كانت اللذات تشغلكم عنا
تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا وأبديتم الهجران ما هكذا كنا
وآليتم إن لا تخونوا عهودنا فقد وحياة الحب خنتم وما خنا
غدرتم ولم نغدر وخنتم ولم نخن وحلتم عن العهد القديم وما حلنا
وقلتم ولم توفوا بصدق حديثكم ونحن على صدق الحديث الذي قلنا

وكان صخر بن عمرو ، أخو الخنساء ، يحب سلمى بنت عوف ثم تزوجها ؟ وتعاهدا على أن لا يتزوج واحد منهما بعد صاحبه ، ثم طُعن في أحد الأيام. فمرض سنة كاملة. فقصرت زوجه في السهر عليه ، والرفق به. ولا كذلك أمه الرءوم. قالوا: وسمع يومًا امرأة تقول لأمه: كيف حال صخر ؟ فقالت: نحن بخير ما دمنا نرى وجهه. وسمع أخرى تقول لامرأته كيف حال صخر ؟ فقالت: لا حي فيرجى. ولا ميت فينعى !! وحكي أنه جلس يومًا ليستريح وقد رفع له سجف البيت ، فرأى سلمى واقفه تحادث رجلاً من بني عمها وقد وضع يده على عجيزتها ، فسمعه يقول لها: أيباع هذا الكفل ؟ فقالت عن قريب ! فقال صخر لأمه: علي بسيفي ، لانظر هل صديء أم لا. فأتته به فجرده ، وهم بقتل سلمى. فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله. فبكى وقال:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمى مضجعي ومكاني
فأي امريء ساوى بأم حليلة فلا عاش إلا في شقًا وهوانِ
أهم بأمر الحزم لو استطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
وما كنت أخشى أن أكون جنازة لديك ومن يغتر بالحدثان

ويذكرون أن غسان بن جهضم كان مفتونًا بابنة عمه ، ثم تزوجها ، فلما حضره الموت حلفت لا تتزوج من بعده ، ثم حنثت في يمينها ، فأنشدها في نومها ليلة الزفاف:

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمة ولم تعرفي حقًا ولم تحفظي عهدا

ولم تصبري حولاً حفاظًا لصاحب حلفتٍ له يومًا ولم تنجزي وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

وذكرني هذا الشعر بقول أبي العتاهية:

إذا ما انقضت عني من العيش مدتي فإن غناء الباكيات قليل
ويحدث من بعد الخليل خليل سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي

وهذه طبيعة العالم يا صاح ، فاقض من أوطارك ما أنت قاض ، واترك الوهم للمجانين!!

ميزان الحب(١)

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهب المحب لمحبوبه دمه وماله ، وانظر كيف يقول:

لحا الله من لا ينفع الود عنده ... ومن حبله إن مد غير متين
ومن هو ذو لونين ليس بدائمٍ ... على ثقةٍ خوان كل أمين
فلو أرسلت يومًا بثينة تبتغي ... يميني ولو عزت علي يميني
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها ... وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يا بثين فإنما ... يبين عند المال كل ضنين
فمالك لما خبر الناس أنني ... أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذرًا أو أجيء بشاهدٍ ... من الناس عدلٍ إنهم ظلموني
فليت رجالا فيك قد نذروا دمي ... وهموا بقتلي يا بثين لقوني
إذا ما رأوني طالعًا من ثنيةٍ ... يقولون من هذا ؟ وقد عرفوني !

---

(١) في كتاب «الأخلاق عند الغزالي» بحث مفصل عن الحب من الوجهة الفلسفية ، فليرجع إليه القاريء إن شاء.

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء إلى الأيام السوالف ، والليالي الخوالي !!
ويذكرون إن المتوكل أحب أن ينادمه الحسين بن الضحاك ، ليرى ما بقي من طرفه ، وشهوته لما كان عليه. فأحضره وقد كبر وضعف، فسقاه حتى سكر وقال لخادمه شفيع: أسقه ! فسقاه وحياه بوردة. وكانت على شفيع أثواب موردة. فمد الحسين يده إلى درع شفيع. فقال المتوكل: اتجس غلامي بحضرتي ؟ فكيف لو خلوت به ! ما أحوجك يا حسين إلى أدب ! وكان المتوكل غمز شفيعًا على العبث به ، فقال الحسين: يا سيدي ! أريد دواة وقرطاسًا. فأمر له بهما فكتب:

وكالوردة البيضاء حيا بأحمرِ ... من الورد يسقى في قراطق كالورد
له عبثات عند كل تحيةٍ ... بكفيه يستدعي الخلي إلى الوجدِ
تمنيت أن أسقي بكفيه شربةً ... تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله عيشًا لم أبت فيه ليلة ... من الدهر إلا من حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر ، وهم بتقديم الغلام إليه ، لو كان مما تسمح بمثله النفس!!

وانظر ما يقول ابن هانيء في ذكرى أيامه السوالف:

قمن في مأثمٍ على العشاقِ ... ولبسن السواد في الأحداق
وبكين الفراق بالغم الرطـ ... ـب المقنا وبالخدود الرقاقِ
ومنحن الفراق رقة شكوا ... هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمـ ... ـع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى ... آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ودنـوا للـوداع حتـى تـرى الأجـ ـــياد فـــوق الأجيـــاد كـــالأطواق
يـوم راهنـت فـي البكـاء عيونًـا فتقـــدمت فـــي عنـــان الســـباق
أمنـع القلـب أن يـذوب ومـن يمنـ ـــع جمـــر الغضـــى عـــن الأحـــراق
رب يـوم لنـا رقيـق حواشـي اللهـ وحســـنًا جـــوال عقـــد النطـــاق
قـد لبسـناه وهـو مـن نفحـات الـ ـــمسكِ درع الجيـــوب درع التراقـــي

وما أوجع قول ابن الرومي في البكاء على لياليه الخوالي:

أيـام لهـوي هـل مواضـيك عـود شهيوهل لشبابٍ ضل بالأمس منشدُ
رزئـت شـبابي عـودة بعـد بـدأةٍ وهـــن الرزايـــا بادئـــات وعـــود
سـلبت سـواد العارضـين وقبلـه بياضـــهما المحمـــود إذ أنـــا أمـــرد
وبـدلت مـن ذاك البيـاض وحسـنه بياضًـــا ذميمًـــا لا يـــزال يســـود
لشـتان مـا بـين البياضـين: معجـب أنيـــق ومنشـــوء إلـــى العـــين أنكـــد
وكنـت جـلاءً للعيـون مـن القـذى فقـد جعلـت تقـذي بشـيبي وترمـد
هي الأعين النجل التي كنت تشتكي مواقعهـا فـي القلـب والـرأس أسـود
فمالـك تأسـى الآن لمـا رأيتهـا وقـد جعلـت مرمـى سـواك تعمـد
تشـكى إذا مـا اقصـدتك سـهامها وتأســى إذا نكــبن عنــك وتكمــد
كـذلك تلـك النبـل مـن وقعـت بـهِ ومـن صُـرفت عنـه مـن القـوم مقصـد
إذا عـدلت عنـا وجـدنا عـدولها كموقعهـا فـي القلـب بـل هـو أجهـد
وبيضـاء يخبـو درهـا مـن بياضـها ويـــذكو لـــه ياقوتهـــا والزبرجـــد
إذا ما التقى السكران: سكر شبابها وأكوابهـا ، كـادت مـن اللـين تعقـد
لهـوت بهـا لـيلاً قصـيرًا طويلـهُ ومـــــالي إلا كفهـــــا متوســـــد
وكـم مثلهـا مـن ظبيـةٍ قـد تفيـأت ظلالـــي وأغصـــان الشـــبيبة ميـــد

ليالي سنتريس(١)

وقد أكثر صاحب البدائع من الحنين إلى سنتريس ، وهي مهوى قلبه ، ومنية روحه ، إذا كانت ملعب صباه ، وميدان لهوه ، في أيامه السوالف ، ولياليه الخوالي !

وانظر كيف يقول:

ليالي النيل واللذات ذاهبة ... وجدي عليكن أشجاني بأفضناني
لو يرجع الدهر لي منكن واحدةً ... في سنتريس ويدني بعض خلاني
إذًا تبين دهري كيف يرحمني ... من ظلم همي ومن عدوان أحزاني
كم ليلةٍ لي بذاك النهر سالفةٍ ... قضيتها بين غاداتٍ وولدانِ

* * *

وذي دلالٍ هو الدنيا وزينتها ... شهي يُردي الأسود بطرفٍ منه نعسان
كأنما فعل عينيه بعاشقه ... فعل المدامة في أعطاف نشوان
شربت من ريقه راحًا مشعشعة ... بخالص الود لم تُمزج بسلوان
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرني ... وكم جميلٍ بورد الخد حياني

* * *

يا موقد النار في قلبي مؤججةً ... وقاطنًا بين أنهار وريحانِ
عرج علي فما نفسي بصابرةٍ ... على نواك وما طرفي بوسنان

وإليك قوله من كلمة ثانية:

إيهِ يا فتنة الوجود سلام ... من مشوقٍ متيم القلب عانِ
لو يشاء الهوى حوتك ضلوع ... حائمات على صباك حواني

---

(١) في مقدمة كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل.

فـارحمي فانيًـا مـن الوجـد يشـقى بغـــرامٍ مـــؤججٍ غيـــر فـــان
رنقـــت ورده الليـــالي فأمســـى يرقـب الصـفو مـن خـلال الأمـاني

* * *

آه لـــو يســـمح الزمـــان ونلقـــى مـــن طـــوى قـــربهم عنـــاد الزمـــان
وتـــرى ســـنتريس والـــدهر غـــافٍ مـــا قضـــينا مـــن الليـــالي الحســـان
حـــين كنـــا مـــن الســـرور نشـــاوى فـــي نجـــاةٍ مـــن النـــوى وأمـــان
نتســـاقى الحـــديث عـــذبًا شـــهيًا وقطـــوف المنـــى رِطـــاب دوانـــي

* * *

يـــا خليلـــي والرفيـــق معـــين أســـعفاني بـــبعض مـــا تملكـــانِ
أبتغـي آسـيًا فقـد عيـل صـبري مـــن تـــوالي الوجيـــب والخفقـــان
أبتغـــي صـــاحبًا تولـــه قبلـــي وشـــجاه مـــن الجـــوى مـــا شـــجاني
فلقـــد يُســـعف الجـــريح أخـــاهُ ويواســـي الزميـــل فـــي الأحـــزان

* * *

وقد لحن هذه القصيدة البلبل الغريد الشيخ عبد السميع عيسى الباجوري وما أروع شعر الوجدان إذا غني بمثل صوته العذب الجميل !!

صبا نجد

وما أشوق القلب إلى شميم صبا نجد ! فقد حببه إلينا الشعراء حق لنجد (صردر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى ، حين يقول:

النجاءَ النجاءَ من أرض نجد ... قبل أن يعلق الفؤاد بوجدِ
إن ذاك الثرى لينبت شوقًا ... في حشا ميت اللبابات صلد
كم خلي غدا إليه وأمسى ... وهو يهذي بعلوةٍ أو بهندِ
وظباءٍ فيه تُلاقي الموالي ... والمعادي من الجمال بجند
بشتيت من المباسم يغري ... وسقامٍ من المحاجر يعدي[1]
وبنانٍ لولا اللطافة ظنت ... لجناياتها براثن أسدِ
وحديث إذا سمعناه لم نـ ... ـر بخمرٍ نضحننا أم بشهد
أنفت من براقع الخز والقز ... خدود قد برقعوها بوردِ

ويقول الطغرائي:

يا حبذا نجد وأعراق الثرى ... لدن وأنفاس النسيم رقاقُ
فهواؤه خضر النسيم وتربه ... حالي الأديم وماؤه رقراق
وبساكنيه إن استقربنا النوى ... تشفي النفوس وتمسك الأرماق

ويقول ابن الخياط:

خذا من صبا نجد أمانًا لقلبهِ ... فقد كان رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فإنه ... إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلي لو احببتما لعلمتما ... مكان الهوى من مغرم القلب صبه

---

[1] المراد بالمبسم الشتيت الثغر المفلج.

تـذكروا لـذكرى تشـوق وذو الهـوى يتـوق ومـن يعلـق بـه الحـب يصـبه
غـرام علـى يـأس الهـوى ورجائـه وشـوق علـى بعـد المـزار وقربـه

وقال ابن التعاويذي:

يـا رفيقـي هـل لـذاهب أيـا مٍ تقضـت حميـدة مـن مـرد
أنجـداني بوقفـة فـي مغـاني الـ ـحي إن جزتمـا بـأعلام نجـدِ
وابكياهـا بمقلتـي وأسـألاها مـن سـقاها مـاء المـدامع بعـدي
جنبًـا عنـدها مصـارع مـن مـا ت بـداء الغـرام فالشـوق يعـدي
فبأكنافهـا جـاذر رمـلٍ بـين أثوابهـا بـراثن أسـد

جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى أن عينه سبب بلائه ، كقول خالد الكاتب:

أعان طرفي على جسمي وأحشائي بنظـرةٍ وقفـت جسـمي علـى دائـي
وكنـت غـرا بمـا يجنـي علـى بـدني لا علـم لـي إن بعضـي بعـض أدوائـي

ومثله قول الأرجاني:

تمتعـا يـا مقلتـي بنظـرةٍ وأوردتمـا قلبـي أشـر المـواردِ
أعينـي كفـا عـن فـؤادي فإنـه من البغي سعى اثنين بي قتل واحد

ويرى الشريف الرضي أن قلبه سبب شجاه ، ويقول:

قلـب كيـف علقـت فـي أشـراكهم ولقـد عهـدتك تُفلـت الاشـراكا
أكثبـت حتـى أقصـدتك سـهامهم قـد كنـت عـن أمثالهـا إنهاكـا
إن ذبت من كمد فقد جر الهوى هـذا الـذي جـرت علـي مـن جراكـا
لا تشـكون إلـي وجـدًا بعـدها هـذا الـذي جـرت علـي يـداكا
لأعاقبنـك بالغليـل فـإنني لـولاك لـم أذق الهـوى لولاكـا

ويأسى صردر على إن كانت أجفانه حجاب قلبه ، ويقول:

لواحظنـا تجنـي ولا علـم عنـدها وأنفسـنا مأخـذوة بـالجرائر
ولـم أر أغبـى مـن نفـوس عفـائفٍ تصـدق أخبـار العيـون الفـواجر
ومن كانت الأجفان حجاب قلبه أذن علـى أحشـائه للفـواقر

وقال ابن الأحنف يشكو ظلم قلبه وحبيبه:

يهـيم بجيـران الجزيـرة قلبـهُ وفيهـا غـزال فـاتر الطـرف سـاحره
يـؤازره قلبـي علـي ولـيس لـي يـدان بمـن قلبـي علـي يـؤازره

قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع:

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماءِ
إن الذي خلق الملاحة لم يشأ إلاّ شقائي في الهوى وبلائي

ولله الأمر من قبْلُ ومن بعد !

الفهرس

مدامع العشاق ١
الإهداء ٤
مقدمة: ٥
مذاهب النسيب ١٣
موجبات الدموع ١٥
عذر أرباب الدموع ٢٢
الاكتفاء بالدموع ٢٤
الفزع إلى الدموع ٢٦
الدمع عند الوداع ٣٠
الدمع بعد الفراق ٣٤
شكوى الصبابة ٣٧
عند منازل الأحباب ٤٦
وشاية الدموع ٦٢
سلطان الحب ٦٤
غرام النساء بالنساء ٧٠
طيف الخيال ٧٤
خيال البحتري ٧٨
طرف أدبية ٨٥
اليأس والرجاء ٨٨
العتاب ٩٢

نوح الحمام ١٠٧
التقرب بالدموع ١١٤
ثورة الوجد ١١٨
الارق والسهاد ١٢٦
الطبيعة في أنفس الشعراء ١٣٤
مداراة الرقباء ١٤٠
بخل الحسان ١٤٤
الأمر للحب ١٤٩
حمل السلام ١٥١
دموع الغانيات ١٥٥
ندم المفارق ١٦١
غربة المحب ١٦٧
الأمل الضائع ١٦٩
الكتمان ١٧٣
طرفة أدبية ١٧٩
قسوة التجني ١٨٠
ظلم الحبيب ١٨٤
قساة القلوب ١٨٨
سيف الفراق ١٩٢
الهرب من الفراق ١٩٦
غراب البين ١٩٨
فقد العزاء ٢٠٠
بكاء الشباب ٢٠٤

بلايا الغيرة ٢٠٨
الاستعطاف ٢١٢
الحنين ٢١٨
الرفق بالحبيب المريض ٢٢٣
الذبول والنحول ٢٢٦
أماني المحبين ٢٣٠
الهيبة والخضوع ٢٣٤
الرضى بالقليل ٢٣٥
شفاء المحب ٢٣٨
القلب الخافق ٢٤٠
مثال الحبيب ٢٤٢
أهوال الصدود ٢٤٤
التفت إلى معالم الوجد ٢٤٦
الصدى والنوى ٢٤٨
القريب والبعيد ٢٥١
حلاوة الملام ٢٥٣
رؤية الضمير ٢٥٥
القلب والكبد ٢٥٧
بكاء الملاح ٢٥٩
بكاء الحلائل ٢٦٧
لوعة الشوق ٢٦٨
راحة السلوان ٢٧٣
غدر الغواني ٢٧٥

ميزان الحب() ٢٧٨
الليالي الخوالي ٢٨١
ليالي سنتريس() ٢٨٤
صبا نجد ٢٨٦
جناية العين والقلب ٢٨٨
الفهرس..... ٢٩١